# مصر الإسلامية

## الجزء الأول

(من الفتح الإسلامى حتى زوال الدولة الأخشيدية)

تأليف

الدكتور مصطفى طه بدر

رئيس قسم المواد الاجتماعية بكلية المعلمين بالقاهرة

الطبعة الثانية

ملتزم النشر والطبع

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلى باشا - القاهرة

١٩٥٩

# مصر الإسلامية

## الجزء الأول

(من الفتح الإسلامى حتى زوال الدولة الأخشيدية)

تأليف
الدكتور مصطفى طه بدر
رئيس قسم المواد الاجتماعية بكلية المعلمين بالقاهرة

الطبعة الثانية

ملتزم النشر والطبع
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلى باشا - القاهرة
١٩٥٩

المطبعة العالمية ١٢٠٢٦ شارع ضريح سعد بالقاهرة

# محتويات الـكتاب

صحيفة

صحيفة

صحيفة

## مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خير خلق الله أجمعين . أما بعد فهذه هى الطبعة الثانية من الجزء الأول من كتاب مصر الإسلامية ، وهى تمتاز عن الأولى ببعض الزيادات والتغييرات كما أن بها عدة خرائط كانت الطبعة الأولى محرومة منها . ولست فى حاجة إلى الإشارة إلى محتويات الكتاب فحسب القارئ أن يطالع الكتاب أو يقلب صفحات الفهرس ليعرف كل شيء عنها ، ولكنى أسمح لنفسى بالقول بأن هذا الكتاب قصد به أن يرسم صورة واضحة لجميع نواحى الحياة فى مصر منذ الفتح العربى حتى نهاية الدولة الإخشيدية وهو لم يهمل الناحية الاجتماعية والناحية الاقتصادية والناحية العلمية والأدبية إلى جانب عنايته بالناحية السياسية . فإذا كان قد أدى الغاية المطلوبة منه فهذا أملى ، وإذا كان قد قصر عن بلوغ الغاية فحسبى أن أكون قد حاولت وبذلت الجهد . والله أسأل أن يوفقنى إلى إصدار الجزء الثانى من هذا الكتاب عن تاريخ مصر الإسلامية منذ قيام الدولة الفاطمية حتى الفتح العثمانى فى وقت قريب ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

تحريراً فى الدقى فى ١٤/١٠/١٩٥٨ مصطفى طه بدر

# مقدمة الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد أشرف المرسلين . أما بعد فهذه محاضرات ألقيتها على طلبة قسم التاريخ بكلية الآداب ، وقد أردت بطبعها أن أسهل الأمر عليهم أولا وأن أوسع دائرة نفعها ثانياً فيقرأها غيرهم من قراء التاريخ الإسلامى .

ولا يخفى أن الفترة التى تؤرخ لها هذه المحاضرات هى من أهم الفترات فى تاريخ مصر على وجه العموم . إذ هى تبدأ بدخول العرب المسلمين أرض مصر ، وتنتهى بجعل مصر دولة إسلامية عربية دين أغلبية أهلها الإسلام ، ولغتهم العربية . وهى بهذا الاعتبار فترة تغيير وتكوين ، وضع فيها الأساس للدولة المصرية الحديثة .

وإن نظرة سريعة إلى فهرس المحتويات تبين بوضوح الموضوعات التى تناولتها فى هذه المحاضرات . ولكننى أحب هنا أن أشير إلى بعض الموضوعات الهامة التى لا يستطيع الإنسان أن يهملها عند دراسة تاريخ مصر فى هذه الفترة . ومن ذلك موقف المقوقس من الفتح العربى ، ومسألة اتهام عمرو بن العاص بإحراق مكتبة الإسكندرية ، ونظام الحكم الذى قام فى مصر بعد فتحها واعتمد على النظام الذى كان قائماً فيها مع اصطباغه بالصبغة الإسلامية ، ومعيشة القبط والعرب بعد الفتح ، والعوامل والوسائل التى أدت إلى التقرب بين هذين العنصرين وامتزاجهما وإلى انتشار الدين الإسلامى واللغة العربية ، والدور الذى قامت به مصر فى توجيه سياسة العالم الإسلامى والحركة العلمية الإسلامية العامة ، وقيام حكومة شبه مستقلة فى مصر فى أيام الطولونيين والأخشيديين لها جل صفات الحكومات المستقلة ، وبيان العلاقات التى كانت بينها وبين الخلافة الإسلامية ، والتجاوب الذى كان بينها

وبين شعب مصر ، وبخاصة ما كان من احترامها النزعة الدينية السائدة ، وتظاهر أمرائها بالتدين إرضاء للعامة .

وإن الأمل بعد نشر هذه المحاضرات التى توضح كيف تكون الشعب المصرى على نحو جديد دعامته الإسلام والعربية أن أوفق إلى طبع محاضرات أخرى تتناول تاريخ مصر الإسلامية حتى الفتح العثمانى ، وتوضح بصفة خاصة حياة الشعب المصرى الجديد . ولن أذكر الآن كم سيكون عدد الأجزاء التى ستصدر . ولكنى أعتقد — وأتمنى — أنها ستصور الحياة المصرية فى تلك العصور تصويراً حقيقياً ، من جميع النواحى ، وأن تبرز الخدمات الجليلة التى أسدتها مصر للعالم الإسلامى والشرق بصفة عامة ، وأن تكون على منهج علمى سليم . فإنها إن أصدرت على هذا الوجه كانت مرجعاً تاريخياً لمصر الإسلامية يمد قارئه بصورة واضحة — وإن كنت لا أقول مفصلة — للحياة فى تلك الأزمنة ، وكانت عملا علمياً أعتز به ، لأنى أكون بذلك قد أسهمت فى كتابة تاريخنا القومى . وفقنا الله جميعاً إلى ما فيه الخير لأمتنا العزيزة وللإنسانية عامة ؟

الجيزة فى ١٩٥٤/١/٩ — مصطفى طه بدر

# الباب الأول

## الفتح العربي لمصر

(١٨ — ٢٦ هـ = ٦٣٩ — ٦٤٦ م)

---

## الفصل الأول

### سير عمرو بن العاص إلي مصر

١ — تمهيد :

فى أوائل القرن السابع الميلادى ظهر الإسلام ، ولم يكد ينقضى من هذا القرن إلا أقله ، حتى أخذ المسلمون ينشرون نفوذهم فى أراضى الامبراطوريتين الفارسية والبيزنطية . وقد تم لهم فى أوائل عهد الخليفة عمر ابن الخطاب فتح الشام وفلسطين ، وكان لا بد لهم أن يفتحوا مصر أيضاً تمشياً مع سياسة التوسع هذه . وقد كانت مصر ذاتها فى حالة انتظار فتح أجنبي يخلصها من ظلم الرومان ومن اضطهاداتهم الدينية وضرائبهم الثقيلة بوجه خاص . ويقول المؤرخون إن بطرك الكنيسة القبطية فى مصر بنيامين (يذكره المورخون العرب أبو ميامين) الذى فر إلى وادى النطرون ثم إلى دير قريب من قوص بالصعيد عند ما رجعت مصر إلى حكم الرومان أخيراً فى عهد هرقل ، دعا مواطنيه قبل أن يفارقهم إلىالتذرع بالصبر ونبأهم بأن دولة أجنبية ستخلصهم من الظلم الواقع عليهم فى مدى عشر سنوات[١] .
ومما قاله بطلر[٢] فى هذا الصدد : « فما هو إلا أن جاء قيرس إلى الاسكندرية

---

(١) بطلر : فتح العرب لمصر ( ترجمة محمد فريد أبو حديد ) ، ص ١٣١ — ١٣٣ .

(٢) شرحه ص ١٣١ .

فى خريف سنة ٦٣١ م حتى هرب البطريق القبطى [ يقصد بنيامين ] . . وقد دبر بنيامين أمور الكنيسة قبل أن يغادر ولايتها ، وجمع جمعاً من القسوس والرعية وألقى فيهم خطاباً يحضهم فيه على أن يثبتوا على عقيدتهم حتى يوافيهم الموت ، ثم كتب إلى أساقفته جميعاً يأمرهم بالهجرة إلى الجبال والصحارى ليتواروا فيها حتى يرفع الله عنهم غضبه . وأنبأهم أن البلاد سيحل بها وبال وأنهم سيلقون العسف والظلم عشر سنين ثم يرفع ذلك عنهم » . ونحن لا يهمنا من هذه النبوءة شىء أكثر من أنها تبين لنا شعور الكراهية الذى كان يضمره المصريون للرومان .

٢ — استشارة عمرو فى المسير :

وقد كان فتح مصر على يد القائد العربى المشهور بالدهاء عمرو بن العاص . ويقول المؤرخون إنه استأذن الخليفة عمر بن الخطاب فى فتح مصر عند ما كان موجوداً فى الجابية وهى إحدى ضواحى دمشق سنة ١٨ هـ[١] . وتردد عمر بن الخطاب فى السماح لعمرو بن العاص بذلك فى بادىء الأمر ، لأن جيوش المسلمين كانت متفرقة فى الأمصار مثل فارس والجزيرة والشام وكان من الصعب جمع قوة كافية لفتح بلد جديد . أضف إلى ذلك أن المسلمين كانوا قد فتحوا فى فترة قصيرة عدة أمصار ولم تكن قدمهم قد ثبتت فى تلك الأمصار ، وكان عمر بن الخطاب لا يريد أن يتعجل الحوادث أو يثقل كاهلهم بفتح جديد . ولكن عمرو بن العاص كان يطمع فى أن يكون صاحب الفضل فى فتح مصر ، فألح على عمر بن الخطاب فى السماح له بالسير إليها ، وحاول إقناعه بعدة أمور منها أن مصر غنية وافرة الثروة ( ويلاحظ أن

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ( طبعة المعهد الفرنسى ) ص ٤٩ ، ٥١ ، السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٤٦ .

عمرو بن العاص كان قد ذهب إليها فى الجاهلية واطلع على أحوالها)[١] . ومنها أن أهلهـا ضعفاء لا يستطيعون الدفاع عنها[٢] . ومنها أنها لازمة لتأمين فتوحات العرب فى الشام وفلسطين من ناحية الجنوب ووجودها فى يد الروم يهدد تلك الممتلكات باستمرار . ومنها أن أريطون (الأرطبون فى كتب العرب) حاكم الروم على بيت المقدس — وكان قد هرب من المدينة قبل تسليمها إليهم — قد لاذ بمصر وأنه كان يجمع فيها جنود الدولة ، وأن على العرب ألا يضيعوا الوقت بل أن يوقعوا به قبل أن يستفحل أمره[٣] .

وقد سمح الخليفة عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص أخيراً بالسير لفتح مصر وأعطاه أربعة آلاف جندى فقط[٤] . وعلى الرغم من قلة هذا العدد فإن عمرو بن العاص سار إلى مصر . ولا شك أن الذى شجعه على السير اعتقاده أنه فى المستقبل يستطيع أن يطلب الإمدادات من الخليفة عمر الحريص على أرواح المسلمين والذى لم يكن يرضيه أن يترك جماعة من المسلمين يموتون فى جهة من الجهات بسبب حاجتهم إلى الأمداد . وتقول بعض الروايات إن عمر بن الخطاب عندما سمح لعمرو بن العاص بالسير إلى مصر أخبره بأنه سيرسل إليه كتاباً يطلب منه فيه العودة ، وطلب منه إذا لحقه هذا الكتاب قبل أن يدخل أرض مصر يعود أدراجه[٥] . وفى هذا ما يدل على تردد عمر بن الخطاب فى السماح لعمرو بن العاص بفتح مصر . وهناك رواية أخرى تشير إلى أن عمرو بن العاص سار بغير رأى عمر بن الخطاب[٦] . ولكن هذه الرواية يصعب تصديقها لأن عمر بن الخطاب كان

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٤٩ .

(٢) شرحه ص ٥١ .

(٣) بطلر : فتح العرب لمصر ص ١٤٤ .

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٥١ .

(٥) شرحه .

(٦) شرحه ص ٥٢ .

رجلا حازماً شديداً فى الحق لا يتهاون مع العصاة ، ولو خرج عمرو بغير إذنه لوجد فيه خير من يؤدبه على عصيانه ، أضف إلى ذلك أن عمرو بن العاص لو خرج بغير أمر الخليفة عمر لما أطاعه المسلمون الذين كانوا بدون شك يضعون أمام أعينهم قوله تعالى : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » . وعلى كل حال فإن عمرو بن العاص ترك فلسطين فى سنة ١٨هـ ( ٦٣٩م ) وسار نحو مصر ، ويقال إنه عندما بلغ رفح بقرب حدود فلسطين رأى رسول الخليفة عمر وعرف أنه يحمل كتابه الذى سبقت الإشارة إليه فتحايل ولم يتسلم الكتاب حتى دخل حدود مصر[١] .

---

(١) ابن عبد الحكم فتوح مصر ص ٥٢ ، السيوطى حسن المحاضرة جـ ١ ص ٤٦ .

# الفصل الثانى

## حوادث الفتح

**فتح العريش والفرما :**

كان أول بلد استولى عليه عمرو بن العاص حين دخل حدود مصر هو العريش . وقد استولى عليه بدون مقاومة . وبعد ذلك سار عمرو بن العاص بجيشه قليل العدد واخترق الطريق القديم الذى سلكه يوسف فى عهد الفراعنة وقمبيز والاسكندر بعد ذلك . وقد وصل عمرو أخيراً أمام الفرما وكانت حصينة ، كما كانت تعتبر مفتاح مصر . ويقال إنها عبارة عن مدينة بلوزيم Pelusium القديمة وكانت على ساحل البحر الأبيض شرقى بورسعيد الحالية[١] . كما يقال أيضاً إنها كانت تسمى بالقبطية پرمون وكانت على نهد من الأرض على نحو ميل ونصف ميل من البحر ، وكان لها مرفأ لعله كان متصلا بالمدينة بخليج يجرى من البحر . وكان فرع من النيل اسمه الفرع البلوزى يهوى إلى البحر بقربها[٢] . وقد باشر عمرو حصارها واستطاع أن يفتحها فى مدى شهر[٣] . ويقول البعض فى مدى شهرين[٤] . وقد لقى أثناء فتحها مساعدة كبيرة من القبط[٥] الذين كانوا كما سبق أن ذكرنا يعملون على التخلص من حكم الروم . ويرى بطلر أن القبط لم يساعدوا العرب عند فتح الفرما ، ويستدل على ذلك بأنهم لو ساعدوا العرب « لما أحرق هؤلاء السفن وهدموا الحصن ، ولما فعلوا ما فعله الفرس من قبلهم من تخريب

---

(١) سيدة الكاشف : مصر فى فجر الإسلام ص ١١ فى الهامش .

(٢) بطلر : فتح العرب لمصر ص ١٥٦ .

(٣) ابن عبد الحكم فتوح مصر ص ٥٣ .

(٤) بطلر : فتح العرب لمصر ص ١٥٧ .

(٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٥٣ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٤٦ .

الكنائس الباقية فى الفرما » . ويدلل على ذلك أيضاً بأن حنا النقيوسى الذى كان من الأحياء قرب ذلك العهد قال فى ديوانه إن القبط لم يساعدوا المسلمين إلا بعد أن استولوا على الفيوم وإقليمها[١] . ولكنه بعد ذلك يذكر ما ينقض أدلته هذه حين يقول : « ولا بد أن يكون عمرو قد أدرك أنه لن يستطيع شيئاً إذا لم يوافه عمر بن الخطاب بما وعده من الأمداد وكان يعرف أن الأمداد لن تستطيع أن تخلص إليه إلا عن طريق الفرما ، ولم يكن معه من الجند من يقدر على أن يخلفه فى المدينة ليحرسها ، وعلى ذلك لم يكن له بد من هدم أسوارها وحصونها حتى لا يستفيد بها العدو لو عاد إلى تملكها »[٢] .

فتح بلبيس :

وبعد الفرما سار عمرو بن العاص مخترقاً وادى الطميلات حتى وصل إلى بلبيس . وهناك وجد القائد البيزنطى الأرطبون Aretion الذى كان قد ترك فلسطين عند ما اشتد الحصار على بيت المقدس سنة ١٥ هـ ، واستطاع أن يهزمه وأن يستولى على البلد فى شهر أيضاً[٣] . ويقال إنه وجد ابنة المقوقس حاكم مصر البيزنطى فى ذلك الوقت فى بلبيس ، فأرسلها إلى أبيها معززة مكرمة . كما يقال إن الروم خسروا عند فتح هذا البلد ألف قتيل وثلاثة آلاف أسير[٤] .

حصار حصن بابليون :

وبعد بلبيس سار عمرو بن العاص جنوباً حتى وصل إلى قرية تندونياس ( يذكرها بطلر فى كتابه ص ١٦١ باسم تنونديس ) . وقد سماها العرب بعد


---

(١) بطلر : فتح العرب لمصر ص ١٥٧ .

(٢) شرحه ص ١٥٨ .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٥٤ ، بطلر فتح العرب لمصر ص ١٦٠ .

(٤) بطلر : فتح العرب لمصر ص ١٦١ .



خريطة
الفتح العربي لمصر
خط السير
البحر الأبيض المتوسط
العريش
الفرما
المصب البلوزي
المصب التانيتي
المصب الفتنيتي
المصب السبنيتي
المصب البلبتيني
بحيرة البرلس
بحيرة المنزلة
بحيرة التمساح
البحيرات المرة
القلزم
بلبيس
عين شمس
سخا
منوف
كوم شريك
نقيوس
طرنوط
الكريون
الإسكندرية

ذلك أم دنين[1] . ثم سميت فيما بعد المقس وموضعها الآن حديقة الأزبكية على رأى أو فى المكان الممتد بين حديقة الأزبكية وقسم الأزبكية[2] على رأى آخر . وفى تندونياس شرع عمرو بن العاص فى مهاجمة حصن بابليون الذى سماه العرب الحصن أو قصر الشمع ، وكان أهم مراكز مصر الحربية فى العهد الرومانى ، على أنه وجد بعد عدة أسابيع أن حصاره لهذا الحصن لن يجدى لقوة حاميته واستعدادها ، ولذلك أرسل يطلب المدد من الخليفة عمر بن الخطاب كما شغل جنده بفتح الفيوم[3] .

وصول المدد :

وقد وصلت الأمداد من الخليفة عمر بن الخطاب فعلا ، وربما كان نجاح عمرو بن العاص الذى بيناه فيما سبق مما شجع الخليفة على إرسال المدد إليه ، وكان عدد هذا المدد أربعة آلاف على رأسهم أربعة من مشاهير القواد وصف الواحد منهم بأنه كان يعادل ألف جندى ، وهؤلاء هم الزبير ابن العوام وعبادة بن الصامت والمقداد بن عمرو الأسود ومسلمة بن مخلد[4] على أن السيوطى ينقل عن القضاعى أن المدد كان اثنى عشر ألفاً[5] وكذلك يذكر مثل هذا القول بطلر ، ويعتمد فى ذلك على البلاذرى وياقوت والمقريزى[6] .

موقعة عين شمس :

وعندما وصل المدد إلى عين شمس — وكانت فى ذلك الوقت مدينة

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٥٤ .

(٢) كان قسم الأزبكية حتى وقت قريب فى الجزء الجنوبى الشرقى من ميدان باب الحديد أمام كازينو البسفور ولكنه هدم وضم إلى الميدان .

(٣) بطلر : فتح العرب لمصر ص ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٧ ( وقد ذكر بطلر أنه اعتمد فيما ذكره على ديوان حنا النقيوسى الذى كتب فى القرن السابع الميلادى ) .

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٥٦ .

(٥) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٥٦ .

(٦) بطلر : فتح العرب لمصر ص ١٦٧ .

عظيمة متسعة متصلة بمصر القديمة التي فى موضع الفسطاط فى الوقت الحاضر[١] خرج عمرو بن العاص لمقابلته . وعندئذ تشجع قائد الروم فى مصر واسمه تيودور وخرج لمقاتلة العرب على رأس عشرين ألفاً . ولكن القائد العربى أوقع به لأنه قابله بجزء من الجند العرب فى حين وضع قسما آخر من هؤلاء العرب كميناً فى الجبل الأحمر ( شرقى العباسية الآن على رأى أو بقرب الموضع الذى فيه قلعة القاهرة الآن على ما يقول بطلر ص ٧٠ ) كما وضع قسما آخر كميناً فى تندونياس . وقد استمر القتال بين الجيشين وعندئذ هوجم القائد من الكمين الذى كان فى الجبل الأحمر ، وعند ما أراد أن يتخلص من الضغط بالانسحاب إلى الغرب هاجمه القسم الكامن فى تندونياس ، وبذلك أصبح بين الجيوش العربية الثلاثة . وقتل عدد كبير من جنوده بينما فر هو وعدد قليل عن طريق النيل أو الانسحاب إلى حصن بابليون[٢] .

المفاوضات بين المقوقس والعرب :

وبعد هذا الانتصار ثبت قدم عمرو بن العاص فى تندونياس وفى مدينة مصر التى كان يحميها حصن بابليون ، كما استطاع أن يتم فتح الفيوم ويفتح بعض مدن فى الوجه البحرى مثل أتريب ومنوف ، وكذلك استطاع أن يركز جهوده للاستيلاء على حصن بابليون . وقد كان الاستيلاء على حصن بابليون أمراً شاقاً لقوة حاميته واستعداداتها ، ولذلك فإن حصار العرب له طال حتى بلغ سبعة شهور[٣] . وقد جدت فى أثناء الحصار أمور أضعفت من روح الحامية الرومانية فى حصن بابليون . من ذلك أن حاكم مصر قيرس المعروف عند العرب بإسم المقوقس[٤] عندما رأى شجاعة العرب

---

(١) بطلر : فتح العرب لمصر ص ١٧١ الهامش .

(٢) شرحه ص ١٧٢ .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٥٩ وحسن المحاضرة للسيوطى جـ ١ ص ٤٧ .

(٤) بطلر : فتح العرب لمصر ص ١٣٠ .

واستماتتهم فى القتال فكر فى عقد صلح معهم وأرسل رسلا من قبله إليهم كما استقبل رسلا من العرب منهم وفد عدده عشرة رجال كان أحدهم ورئيسهم عبادة بن الصامت . وعلى الرغم من أن العرب لم يقدموا للمقوقس من الشروط شيئاً إلا الإسلام أو الجزية أو القتال فإنه وافق على الصلح وعقد مع عمرو بن العاص صلحاً نص فيه على أن يدفع المصريون جزية مقدارها دينارات فقط عن كل شريف ووضيع منهم بلغ الحلم ليس على الشيوخ والأطفال والنساء شيء كما نص أيضاً على أن يكون للعرب حق النزول بين المصريين وحق الضيافة ثلاثة أيام وأن تبقى لهم أموالهم وأرضيهم[1] .

وعلى الرغم من أن الامبراطور هرقل عند ما أرسل إليه المقوقس يخبره بما قام به لم يوافقه وأرسل يوبخه ويطلب منه الحضور ، وفى الوقت نفسه أرسل إلى القواد الرومان يأمرهم بالاستمرار فى قتال العرب [2] . وعلى الرغم من ذلك كله فإن المقوقس أكد لعمرو بن العاص أنه لا زال على صلحه الذى عقده [3] . وقد ذهب المقوقس بعد ذلك إلى القسطنطينية وأهانه الإمبراطور هرقل ونفاه لهذا السبب [4] . ولو صح أن المقوقس كان والياً على مصر ( يؤكد بطلر أن المقوقس هو والى مصر وبطريقها قيرس ) من قبل هرقل لاستطعنا أن نقول إن هذا الصلح لابد أن يكون قد أحدث انقساماً فى جيش الروم فى مصر . إذ لابد أن يكون للمقوقس من بينهم أنصار . وقد جاء فى كتاب فتوح مصر أن المقوقس بعد شهر من حصار حصن بابليون ذهب إلى الجزيرة ومعه جماعة من أكابر القبط ثم لحق به بعد ذلك جماعة من أهل القوة والشرف من الروم والقبط[5] . ومن

(١) فتوح مصر لابن عبد الحكم ص ٥٩ — ٦٤ والسيوطى حسن المحاضرة ج ١ ص ٤٧ — ٥٢ .

(٢) فتوح مصر لابن عبد الحكم ص ٦٤ — ٦٥ .

(٣) شرحه ص ٦٥ .

(٤) بطلر : فتح العرب لمصر ص ١٩٥ .

(٥) ابن عبد الحكم ص ٥٩ .

الأمور التى جرت أيضاً فى أثناء الحصار وأضعفت روح المدافعين موت هرقل فى ١١ فبراير سنة ٦٤١ م ( ٢٠ هـ ) [١] . فإنه بسببه دب اليأس فى قلوب المدافعين وقد قال أحد مؤرخى العرب وهو السيوطى « فكسر الله الروم بموته » [٢] وقوله حق لا مراء فيه . ويجب ألا ننسى أيضاً أن المرض فتك بأهل الحصن فى أثنـــاء الحصار فقل عددهم وضعفت مقاومتهم [٣] .

فتح حصن بابليون :

وقد استفاد العرب من حالة اليأس التى تبعت موت هرقل فاعتلى الزبير ابن العوام سور الحصن وكبر وكبر المسلمون معه وخيل إلى المدافعين عن الحصن أن العرب دخلوه فأسقط فى أيديهم وسلموا وبذلك فتح الحصن[٤] . وقد حدث ذلك بعد شهر من معرفة خبر موت هرقل[٥] ، أى سنة ٢٠ هـ ( ٦٤١ م ) .

ويرى بطلر[٦] أن عمرو بن العاص عقد مع من سلموا حصن بابليون صلحاً أمنوا فيه على حياتهم ووافق على أن يخرجوا من الحصن فى ثلاثة أيام وينزلوا بالنهر ويحملوا ما يلزم لهم من القوت لبضعة أيام . وأما الحصن وما فيه من الذخائر وآلات الحرب فيأخذها العرب ، وعلى أن يدفع أهل مدينة مصر وهى المجاورة للحصن الجزية . ويقول بطلر أيضا [٧] إن عمرو فرض الجزية بعد ذلك مباشرة على منطقة عين شمس وإن نفوذه بعد سقوط حصن بابليون أصبح مستقراً فى المنطقة الشرقية من مصر السفلى وإنه

(١) مصر فى فجر الإسلام ص ١٣ .
(٢) فتح العرب لمصر ص ١٩٩ .
(٣) شرحه ص ١٩٧ .
(٤) فتوح مصر لابن عبد الحكم ص ٥٨ ، حسن المحاضرة جـ ١ ص ٤٧ .
(٥) بطلر : فتح العرب لمصر ص ١٩٩ .
(٦) شرحه ص ٢٠٠ ، ٢٠٣ — ٤ .
(٧) شرحه ص ٢٠٧ .

استطاع أن يشرف على ما ينتقل فى النيل من السفن والبضائع . وبطلر حين يقول ذلك يرى أن المقوقس لم يعقد الصلح مع عمرو بن العاص عند حصن بابليون لأنه كان قد ذهب لمقابلة الإمبراطور . وأن حامية الحصن سلمت بدون قتال بعد أن اعتلى الزبير ومن تبعه الحصن وعقد عمرو معها الصلح .

السير إلى الإسكندرية :

وبعد فتح حصن نابليون سار عمرو بن العاص قاصداً الإسكندرية وفتح فى طريقه إليها عدة بلاد منها طرنوط ( الطرانة ) ونقيوس ( موضعها الآن شبشير ) وكوم شريك وسنطيس ( تذكر سلطيس أيضاً وتقع على بعد ستة أميال جنوبى دمنهور ) والكريون[1] . وقد دافع عن الكريون تيورور القائد الرومانى دفاعاً مجيداً دام أكثر من عشرة أيام ، ولكنه هزم فى النهاية واضطر هو وفلول جيشه أن يلجأ إلى الإسكندرية[2] .

حصار الإسكندرية الأول :

وبعد هذا حاصر عمرو بن العاص بجنوده الإسكندرية . ويقول المؤرخون إن عدد جنوده كان يبلغ اثنى عشر ألفاً ، وللإنسان أن يسأل كيف وصل عددهم إلى هذا الرقم ؟ وقد يجد لسؤاله عدة أجوبة منها أن يكون المؤرخون قد اعتبروا القواد الأربعة الذين جاءوا على رأس المدد الذى بعثه عمر بأربعة آلاف فعلا !! ومنها أن تكون بعض القبائل العربية التى كانت فى مصر وقت الفتح وقبيل الفتح انضمت إليهم خصوصاً وأن المقريزى يقول إن قبيلة راشدة وبعض قبائل لخم لحقت بعمرو عند جبل الجلال ، كما أنه جاء فى أخبار القرن السابق على هذه الحوادث أنه فى سنة ٥٦٥ م مرّ القديس أنتونيوس الشهيد بالطريق المار بالفرما فى حجه إلى

(١) فتوح مصر لابن عبد الحكم ص ٦٦ — ٦٧ فتح العرب لمصر لبطلر ص ٢٠٩ — ٢١٢ .

(٢) بطلر : فتح العرب لمصر ص ٢١٣ — ٢١٤ .

الأماكن المقدسة ورأى هناك صنما عظيما للعرب يقيمون له عيداً فى جبل هريب وذكر القبائل المغيرة وضربها فى الصحراء بقرب فرا ولعلها هى الفرما[١] . ومنها أن تكون الأمداد التى وصلته أكثر من أربعة آلاف وقد سبق أن ذكرنا أن السيوطى فى حسن المحاضرة ذكر أن المدد الذى وصل عمرو بن العاص كان اثنى عشر ألفاً لا أربعة آلاف . أضف إلى ذلك أن بطلر يقول إن عمرو لم يكن يجرؤ على السير إلى الإسكندرية بأقل من خمسة عشر ألفاً ، وإنه لأقرب للحق أن نجعل عدد جيشه عند ذلك عشرين ألفاً ويرجح أن تكون قد وصلته أمداد[٢] .

وكانت حامية الإسكندرية قوية جداً ومعدة إعداداً حسناً وتأتيها الإمدادات من البحر . ويقال إن عددها كان يبلغ خمسين ألفاً كما كانت حصون الإسكندرية منيعة وكانت البحيرات وترعة الإسكندرية تحميها من جهة البر[٣] .

فتوحات العرب فى الدلتا والصعيد :

طال حصار العرب للاسكندرية بسبب مناعتها حتى بلغ أربعة عشر شهراً ، واضطر عمرو أن يترك جنوده أمامها ، وأن يأخذ معه سرية ويهاجم بعض بلدان مصر السفلى بل وبعض بلدان الصعيد . ويقول التاريخ[٤] إن عمرو بن العاص أثناء حصار الإسكندرية سار على رأس سرية نحو الدلتا ليشعرها بوجوده ومر بعدة بلاد منها بالبحيرة الكريون ودمنهور ، وفى الغربية سخا وطوخ مزيد ، وفى الشرقية دمسيس الواقعة على شاطىء فرع دمياط الشرقى ؛ ولكنه لم يستطع أن يفتح بلداً من هذه البلاد وإن غنم

---

(١) بطلر : فتح العرب لمصر ص ١٥٩ هامش ٢ .

(٢) شرحه ص ٢١٤ .

(٣) بطلر : فتح العرب لمصر ٢١٦ .

(٤) شرحه ص ٢١٧ — ٢١٩ .

كثيراً من الغنائم وأحرق المزارع ورجع إلى حصن بابليون دون أن يجنى كبير فائدة . ولم يكتف عمرو بهذا بل إنه فى فترة الحصار أيضاً فتح بلاد الصعيد حتى منطقة طيبة ولم يجد مقاومة من حاكم منطقة طيبة الذى ذهب إلى الاسكندرية عن طريق الصحراء[١].

فتح الاسكندرية :

وفى النهاية اضطرت حامية الاسكندرية أن تسلم وعقد عمرو بن العاص معها صلحاً . ويقول بطلر إن المقوقس كان قد عاد إلى مصر فى ذلك الوقت فذهب إلى عمرو فى بابليون ( وكان قد رجع من الصعيد ) وعقد معه صلحاً فى نوفمبر سنة ٦٤١ م وهو غير الصلح الأول الذى عقد عند حصار حصن بابليون ، وهذا الصلح الأخير هو الذى يسمى صلح الاسكندرية ، وقد سلمت حامية الاسكندرية بدون قتال بعد أن علمت بأمر هذا الصلح ووافق هرقل الصغير ( هرقليوناس ) على هذا الصلح بعد ذلك[٢] .

شروط الصلح :

أما شروط هذا الصلح فهى كما يلى[٣] :

١ — أن يدفع الجزية كل من دخل فى العقد .

٢ — أن تعتمد هدنة لنحو أحد عشر شهراً تنتهى فى أول شهر بابه القبطى الموافق للثامن والعشرين من شهر سبتمبر من سنة ٦٤٢ م .

٣ — أن يبقى العرب فى مواضعهم فى مدة هذه الهدنة على أن يعتزلوا وحدهم ولا يسعوا أى سعى لقتال الاسكندرية وأن يكف الروم عن القتال .

٤ — أن ترحلة مسلحة الاسكندرية فى البحر ويحمل جنودها معها

---

(١) بطلر : فتح العرب لمصر ص ٢٣٤ .

(٢) شرحه ص ٢٣٤ — ٥ ، ٢٣٨

(٣) شرحه ص ٢٣٥ .

متاعهم وأموالهم جميعاً . على أن من أراد الرحيل من جانب البر فله أن يفعل على أن يدفع كل شهر جزاء معلوماً ما بقى فى أرض مصر فى رحلته .

٥ — أن لا يعود جيش من الروم إلى مصر أو يسعى لردها .

٦ — أن يكف المسلمون عن أخذ كنائس المسيحيين ولا يتدخلون فى أمورهم أى تدخل .

٧ — أن يباح لليهود الإقامة فى الاسكندرية .

٨ — أن يبعث الروم رهائن من قبلهم مائة وخمسين من جنودهم وخمسين من غير الجند ضماناً لإنفاذ العقد .

ويقول بطلر[1] إن دفع القسط الأول من الجزية المستحقة بمقتضى الصلح كان فى أول المحرم سنة ٢١هـ ( ١٠ ديسمبر سنة ٦٤١ م ) وإن دخول عمرو ابن العاص الاسكندرية كان بعد انتهاء مدة الهدنة أى فى أكتوبر سنة ٦٤٢ م .

وقد أراد العرب الفاتحين أن يقتسموا النساء والأطفال فيما بينهم ولكن عمرو لم يرض بذلك وأرسل إلى عمر بن الخطاب يطلب رأيه فكتب إليه عمر لا تقسمها وذرهم يكون خراجهم فيئاً للمسلمين وقوة لهم على جهاد عدوهم فأقرها عمرو وأحصى أهلها وفرض عليهم الخراج[2] » .

العوامل التى سهلت للعرب فتح الاسكندرية :

ويلاحظ أنه مما سهل الأمر أمام العرب فى الاسكندرية أن شئون العرش كانت غير مستقرة فى القسطنطينية منذ وفاة هرقل الكبير . إذ أن إبنه قسطنطين خلفه على العرش ولكن زوجة هرقل الثانية مارتينه كانت قوية فأشركت معه ابنها هرقل الصغير ( هرقلوناس ) وصارت وصية على

(١) بطلر : فتح العرب لمصر ص ٢٤٤ — ٢٤٥ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتح مصر ص ٧٦ .

العرش . وبعد ذلك مات قسطنطين وأصبح هرقل الصغير على العرش وحده ولكن الأمر لم يستتب له ولأمه وقام أنصار قسطنطين ووضعوا إبنه قنسطانز على العرش فى نوفبر سنة ٦٤١ م [١] . ومما سهل الأمر أيضاً أمام العرب وجود المقوقس فى مصر . فإنه كان دائماً يحرص على التسليم للعرب وقد فعل ذلك عند حصارهم لحصن بابليون كما فعل ذلك عند حصارهم للاسكندرية . ويقال إن أهل الاسكندرية كانوا عازمين على الاستمرار فى الدفاع عن بلدهم . ولكن المقوقس بعد أن عقد الصلح مع عمرو بن العاص ذهب إليهم وأقنعهم . وقد كان المقوقس من حزب مارتينة وابنها هرقل الصغير . ولذلك استطاع أن يحصل على موافقة هرقل على صلح الإسكندرية ولكن بعد أن أصبح الأمر لقنسطانز بن قسطنطين حزن المقوقس وخاف على نفسه وألمت به الهموم ورأى أن سياسته الدينية جرت عليه غضب القبط وأن تسليمه لمصر جر عليه العار ولذلك ساءت حاله وانتابته الوساوس والهموم ، فأصيب بالدوسنطاريا ، ومات من هذا المرض فى ٢١ مارس سنة ٦٤٢ م — ٢٢ هـ [٢] ) .

فتح البلاد الساحلية :

وبعد فتح الإسكندرية اهتم عمرو بن العاص بفتح بقية البلاد الساحلية التى لم تسلم له حتى الآن . وقد سار العرب فى سنة ٦٤٢م واتجهوا لفتح المدن الساحلية واستطاعوا أن يفتحوا مدينة اسمها « إخنا » تقع إلى الشرق من الإسكندرية ثم فتحوا بعد ذلك مدينة تسمى « بلهيب » كانت تقع جنوبى رشيد ببضعة أميال ثم بعد ذلك فتحوا رشيد والبَرلُّس وسلمت لهم دمياط بدون قتال ، ويقال إن حاكمها كان اسمه شطا وإنه كان قد أسلم . وقد ناجز العرب حاكم تنيس واسمه فى الروايات العربية ( أبو طور ) وأخذ يدافعهم

---

(١) بطلر : فتح العرب لمصر ص ٢٦٤ .

(٢) شرحه ص ٢٦٤ — ٢٦٥ .

منذ تركوا دمياط ، ولكنه هزم فى النهاية وخضعت تنيس للعرب . ويقال إن شطا حاكم دمياط لما وجد أن فتح تنيس أبطأ على العرب جمع جيشاً ولحق بهم وقاتل معهم حتى قتل ودفن فى قبر اتخذه الناس مزاراً فيما بعد واعتبروا صاحبه من أولياء الله . وهكذا تم للعرب فتح تلك الجهات الساحلية بعد قتال دام حوالى العام الواحد[١] .

### استرداد الإسكندرية من العرب :

ولكن يجب أن نلاحظ أن الأمور لم تستقر للعرب فى مصر بذلك بل إن خطر الروم بدا لهم عظيما جداً فى وقت من الأوقات . وذلك فى سنة ٢٥ هـ ( ٦٤٥ م ) حين أنفذ جماعة من زعماء أهل الإسكندرية كتباً إلى الإمبراطور قنسطانز فى القسطنطينية يسألونه أن يخلصهم من ظلم المسلمين وقالوا له إن الإسكندرية ليس فيها إلا حامية ضعيفة لا تقوى على دفع الجيش الرومانى[٢] . واستجاب الإمبراطور لهم وسيَّر قائداً اسمه مانويل على رأس قوة كبيرة تحملها ثلاثمائة سفينة . وقد استطاع هذا الجيش البيزنطى أن ينزل بالإسكندرية وقضى على الحامية العربية التى كانت بها قضاءاً تاما تقريباً وكانت عبارة عن ألف رجل على ما يقال ، ثم بعد ذلك سار فى مصر السفلى ولقى معاونة من الروم الذين كانوا بالإسكندرية ولكنه لم يجد معاونة من القبط[٣] . وقد ظل هذا الجيش فى تقدمه حتى بلغ نقيوس[٤] .

### فتح الإسكندرية الثانى :

وفى ذلك الوقت كان والى مصر من قبل الخليفة عثمان هو عبد الله بن سعد ابن أبى سرح . وكان والياً ظالماً ضعيفاً ، ويقال إن ظلمه لأهل الإسكندرية

---

(١) بطلر : فتح العرب لمصر ص ٢٥٦ — ٢٦٢ .

(٢) بطلر : فتح العرب لمصر ص ٣٤٣ .

(٣) بطلر : فتح العرب لمصر ص ٣٤٤ ، ٣٤٦ .

(٤) شرحه ص ٣٤٧ والسيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٧٠ .

وإثقاله كاهلهم بالضرائب كان هو السبب فى أنهم أرسلوا إلى الإمبراطور قنسطانز يستنجدون به[١] . ولم ير الخليفة أن يعتمد على هذا الوالى فى صد هذا الخطر عن مصر . ولذلك كلف عمرو بن العاص الذى كان قد عزله من ولاية مصر بصده . والبعض يقول إن عمرو بن العاص كان لا يزال فى مصر والبعض الآخر يقول إنه كان فى مكة . وعلى كل حال فإن عمرو ابن العاص قام بواجبه ولقى العدو عند نقيوس على رأس جيش يتألف من خمسة عشر ألفا[٢]. واستطاع أن ينتصر عليه بعد قتال شديد ، وفر الروم إلى الاسكندرية وتحصنوا فيها[٣] . وقد أظهر عمرو بن العاص أسفه لأنه لم يهدم أسوار الاسكندرية بعد فتحها فى المرة الأولى وحلف لئن أظفره الله بها ليهدمن أسوارها حتى تكون مثل بيت الزانية يؤتى من كل مكان . ثم بذل العرب جهوداً كبيرة حتى هدموا الأسوار من الجهة الشرقية ودخلوا المدينة عنوة وقتلوا أهلها وأحرقوا وغنموا واستمروا فى ذلك حتى بلغوا وسط المدينة ، وعندئذ أمرهم عمرو بن العاص أن يرفعوا أيديهم ، وبنى مسجد فى الموضع الذى أمر عمرو فيه برفع السيف هو مسجد الرحمة . أما الروم فإنهم لاذوا بسفنهم وهربوا فى البحر بعد أن قتل عدد كبير منهم فى المدينة . وكان منويل بين من قتل ، وأخذ العرب النساء والذرارى فجعلوهم فيئا ، وقد تم هذا الفتح الثانى للاسكندرية فى صيف سنة ٦٤٦ م[٤].

وما انتهت ثورة الاسكندرية وخمد لهيبها حتى بر عمرو بقسمه وهدم الأسوار الشرقية حتى سواها بالأرض ،[٥] .

---

(١) بطلر : فتح العرب لمصر ص ٣٤٣ .

(٢) بطلر : فتح العرب لمصر ص ٣٤٥ ، ٣٤٧ .

(٣) شرحه ص ٣٤٨ وحسن المحاضرة ج ١ ص ٧٠ .

(٤) بطلر : فتح العرب لمصر ص ٣٤٨ — ٣٤٩ وحسن المحاضرة ج ١ ص ٧٠ .

(٥) بطلر : فتح العرب لمصر ص ٣٥٥ .

وقد وردت فى كتاب فتح مصر لابن عبد الحكم رواية[1] تشير إلى أن فتح الاسكندرية هذه المرة الثانية كان يرجع إلى الخيانة ، وأنه كان فى الاسكندرية بواب إسمه ابن بسامة ، فسأل عمرو بن العاص أن يؤمنه على نفسه وأرضه وأهل بيته ويفتح له الباب فأجابه عمرو إلى ذلك ففتح له ابن بسامة الباب فدخل عمرو ... » . وهى رواية لا يمكن تصديقها .

إخضاع المدن الثائرة :

ويقول بطلر[2] إنه فى أثناء انتقاض الاسكندرية على العرب ثارت عليهم بعض مدن مصر السفلى مثل بلهيب وخيس وساطيس وقرطسا ، ولكنهم بعد أن انتصروا على حملة منويل واستعادوا الاسكندرية أخضعوا هذه المدن بدورها وأسروا من أهلها وأرسلوا الأسرى إلى المدينة ولكن الخليفة عثمان رد الأسرى وأمر بمعاملة هذه المدن ومعاملة الاسكندرية معاملة البلاد التى فتحت صلحاً أى أن تفرض عليهم الجزية ويتمتعوا بحريتهم الدينيـة وبأموالهم وأملاكهم . على أنه يبدو من عدة روايات ذكرها ابن عبد الحكم[3] . أن ثورة هذه المدن وإخضاعها كان فى عهد عمر بن الخطاب أى بعد حصار الاسكندرية الأول لا الثانى فقد جاء : « وقد كانت قرى من قرى مصر . قاتلت فسبوا منها قرية يقال لها بلهيب وقرية يقال لها خيس وقرية يقال لها سلطيس فوقع سباياهم بالمدينة وغيرها فردهم عمر بن الخطاب إلى قراهم وصيرهم وجماعة القبط أهل ذمة » . وجاء أيضاً : « أن عمراً سبى

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٧٣ .

(٢) بطلر : فتح العرب لمصر ص ٣٥٦ — ٣٥٧ .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٧٥ .

أهل بلهيب وسلطيس وقرطسا وسخا فتفرقوا وبلغ أولهم المدينة حين نقضوا ثم كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو يردهم فرد من وجد منهم » . وجاء كذلك : « أن أهل سلطيس ومصيل وبلهيب ظاهر الروم على المسلمين فى جمع كان لهم ، فلما ظهر عليهم المسلمون استحلوهم وقالوا : هؤلاء لنا فىء مع الإسكندرية فكتب عمرو بن العاص بذلك إلى عمر بن الخطاب ، فكتب إليه عمر أن يجعل الإسكندرية وهؤلاء الثلاث قريات ذمة للمسلمين ويضربوا عليهم الخراج ويكون خراجهم وما صالح عليه القبط قوة المسلمين على عدوهم ولا يجعلون فيئاً ولا عبيداً ففعلوا ذلك » .

وعلى كل حال فإن عمرو بن العاص لم يبق فى مصر بعد استقرار الأمر إلا شهراً واحداً ثم خرج عنها لعبد الله بن سعد[1] . وقد ذكر السيوطى هذا الأمر فقال[2] : « فلما هزم الله الروم أراد عثمان عمراً أن يكون على الحرب وعبد الله بن سعد على الخراج ، فقال عمرو أنا إذن كماسك البقرة بقرنيها وآخر يحلبها فأبى عمرو » . وقال أيضاً[3] : « وأقام عمرو منذ فتح الإسكندرية شهراً ثم عزله عثمان رضى الله عنه وولى عبد الله بن سعد » .

---

(١) بتلر : فتح العرب لمصر ص ٣٥٧ .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٧٠ .

(٣) شرحه .

# الفصل الثالث

## مسألة اتهام عمرو بن العاص
## بإحراق مكتبة الإسكندرية

### أهمية هذه المسألة :

يتهم بعض المؤرخين عمرو بن العاص بأنه أحرق مكتبة الإسكندرية عند ما فتحها ، فى حين ينفى مؤرخون آخرون هذه التهمة عنه . وهذا الموضوع من الخطورة بمكان . ويدل على ذلك أن عدداً كبيراً من المؤرخين المحدثين اهتموا به وأفردوا له الفصول الطوال فى كتبهم . ومن هؤلاء المؤرخين جبون فى كتابه اضمحلال وسقوط الدولة الرومانية ، وجوستاف لوبون فى كتابه حضارة الشرق ، وسديو فى كتابه تاريخ العرب ، وبطلر فى كتابه الفتح العربى لمصر ، وجرجى زيدان فى كتابه التمدن الإسلامى ، والدكتور حسن إبراهيم حسن فى كتابه عمرو بن العاص[1] .

### أصل التهمة :

ولن نسهب فى شرح هذا الموضوع لأنه مطروق كما ذكرنا ولكننا سنكتفى بالقول بأن عبد اللطيف البغدادى ( + ٦٢٦ هـ = ١٢٣١ م ) فى

---

(١) بطلر : فتح العرب لمصر ص ٢٩٤ — ٣١٢ ، جرجى زيدان : التمدن الإسلامى ج ٣ ص ٤٠ — ٤٦ .

وحسن ابراهيم حسن : عمرو بن العاص ص ١٠٥ — ١١٨ .

و Gibbon (Edward): *The History of the Decline and Fall of the Roman Empire*, Vol. IX, pp. 274-276.

و Le Bon (Gustave): *La Civilisation des Arabes*, Paris, 1884, p. 203.

و Sedillot: *Histoire Générale des Arabes*, Paris, 1877, Vol. I, pp. 155-156.

كتابه « الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » وابن القفطى ( + ٦٦٦ هـ = ١٢٤٨ م ) فى كتابه « أخبار العلماء بأخبار الحكماء » ، وأبا الفرج الملطى ( + ٦٨٥ هـ = ١٢٧٧ ) فى كتابه « مختصر الدول » هم الذين أسندوا تهمة إحراق مكتبة الاسكندرية إلى عمرو بن العاص . وكان كلام البغدادى بمجرد إشارة فقد قال عند كلامه على الاسكندرية [١] « ورأيت أيضاً حول عمود السوارى من هذه الأعمدة بقايا صالحة بعضها صحيح وبعضها مكسور ، ويظهر من حالها أنها كانت مسقوفة والأعمدة تحمل السقف ، وعمود السوارى عليه قبة هو حاملها ، وأرى أنه كان الرواق الذى يدرس فيه أرسطوطاليس وشيعته من بعده وأنه دار العلم التى بناها الاسكندر حين بنى مدينته وفيها كانت خزانة الكتب التى أحرقها عمرو بن العاص بإذن عمر رضى الله عنه » . ويكاد يذكر عنه هذا حرفا بحرف المقريزى [٢] . وكان كلام بن القفطى كلاماً طويلا فقد قال عند كلامه على يحيي النحوى [٣] : وعاش إلى أن فتح عمرو بن العاص مصر والاسكندرية ، ودخل على عمرو ، وقد عرف موضعه من العلم ، واعتقاده ، وما جرى له مع النصارى ، فأكرمه عمرو ، ورأى له موضعاً ، وسمع كلامه فى أبطال التثليث فأعجبه ، وسمع كلامه أيضاً فى انقضاء الدهر ففتن به ، وشاهد من حججه المنطقية ، وسمع من ألفاظه الفلسفية التى لم يكن للعرب بها أنسة ما هاله ، وكان عمرو عاقلا حسن الاستماع صحيح الفكر فلازمه وكاد لا يفارقه . ثم قال له يحيي يوماً : إنك قد أحطت بحواصل الاسكندرية وختمت على كل الأجناس الموصوفة الموجودة بها فأما مالك به انتفاع فلا أعارضك فيه وأما ما لا نفع لكم به فنحن أولى به ، فأمر بالإفراج عنه .

---

(١) عبد اللطيف البغدادى : الإفادة والاعتبار ص ٢٨ .

(٢) الخطط جـ ١ ( طبعة مصر سنة ١٢٧٠ هـ ) ص ١٥٩ .

(٣) جرجى زيدان : التمدن الإسلامى جـ ٣ ص ٤٢ — ٤٣ .

فقال له عمرو : وما الذى تحتاج إليه ؟ . قال : كتب الحكمة فى الخزائن الملوكية ، وقد أوقعت الحوطة عليها ونحن محتاجون إليها ولا نفع لكم بها . فقال له : ومن جمع هذه الكتب وما قصتها : فقال له يحي : إن بطولوماوس فيلادلفوس من ملوك الاسكندرية لما ملك حبب إليه العلم والعلماء ، وفحص عن كتب العلم ، وأمر بجمعها وأفرد لها خزائن فجمعت وولى أمرها رجلا يعرف بابن مرة (زميرة) وتقدم إليه بالاجتهاد فى جمعها وتحصيلها والمبالغة فى أثمانها وترغيب تجارها ففعل واجتمع من ذلك فى مدة خمسون ألف كتاب ومائة وعشرون كتاباً ، ولما علم الملك باجتماعها وتحقق عدتها قال لزميرة : أترى بقى فى الأرض من كتب العلم ما لم يكن عندنا ؟ فقال له زميرة : قد بقى فى الدنيا شىء فى السند والهند وفارس وجرجان والأرمان وبابل والموصل وعند الروم . فعجب الملك من ذلك وقال له : دم على التحصيل فلم يزل على ذلك إلى أن مات . وهذه الكتب لم تزل محروسة محفوظة يراعيها كل من يلى الأمر من الملوك وأتباعهم إلى وقتنا هذا ، فاستكثر عمرو ما ذكره يحي وعجب منه وقال له : لا يمكننى أن آمر فيها بأمر إلا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . وكتب إلى عمر وعرفه بقول يحي الذى ذكر واستأذنه ما الذى يصنعه فيها . فورد عليه كتاب عمر يقول فيه : وأما الكتب التى ذكرتها فان كان فيها ما يوافق كتاب الله ففى كتاب الله عنه غنى وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة اليها فتقدم بإعدامها فشرع عمرو بن العاص فى تفريقها على حمامات الاسكندرية وإحراقها فى مواقدها ، وذكرت عدة الحمامات يومئذ وأنسيتها ، فذكروا أنها استنفدت فى مدة ستة أشهر فاسمع ما جرى واعجب » .

ولا يختلف كثيراً ما ذكره أبو الفرج الملطى فى روايته المشهورة التى ناقشها جميع المؤرخين الذين تكلموا على مسألة إحراق عمرو بن العاص

المكتبة فقد قال[1] عن يحيي النحوى أيضاً : «وعاش إلى أن فتح عمرو ابن العاص مدينة الإسكندرية ، ودخل على عمرو ، وقد عرف موضعه من العلوم ، فأكرمه عمرو ، وسمع من ألفاظه الفلسفية التى لم تكن للعرب بها أنسة ما هاله ففتن به . وكان عمرو عاقلا حسن الاستماع صحيح الفكر ، فلازمه وكان لا يفارقه . ثم قال له يحيي يوماً : إنك قد أحطت بحواصل الإسكندرية وختمت على كل الأصناف الموجودة بها فمالك به انتفاع فلا نعارضك فيه وما لا انتفاع لك به فنحن أولى به . فقال له عمرو : ما الذى تحتاج إليه ؟ قال : كتب الحكمة التى فى الخزائن الملوكية . فقال له عمرو : هذا ما لا يمكننى أن آمر فيه إلا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . فكتب إلى عمر وعرفه قول يحيي ، فورد عليه كتاب عمر يقول فيه : وأما الكتب التى ذكرتها فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنه غنى وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة إليه فتقدم بإعدامها . فشرع عمرو بن العاص فى تفريقها على حمامات الأسكندرية وإحراقها فى مواقدها فاستنفدت فى مدة ستة أشهر فاسمع ما جرى واعجب » .

أقوال الموافقين على اتهام عمرو :

انقسم المؤرخون حيال هذه التهمة إلى فريقين : فريق يرى صدق هذه الرواية ويمثله جرجى زيدان ، وهو يدلل على ذلك بأن العرب عند ما فتحوا فارس أحرقوا ما بها من الكتب أو طرحوها فى الماء ، وبأن العرب كانوا شديدى الرغبة فى محو كل كتاب غير القرآن ، وبأن كثيرين من الفاتحين

(١) جرجى زيدان : التمدن الإسلامى ج٣ ص ٤٠ ، حسن ابراهيم حسن : عمرو ابن العاص ١٠٧ — ١٠٨ .

وأبو الفرج الملطى : مختصر الدول ص ١٨٠ ( طبعة Pocoke سنة ١٦٦٣ ) .

عند ما فتحوا بلاد أعدائهم أحرقوا كتبهم مثل هولاكو عند فتح بغداد وبأن كثيرين من أصحاب الأديان كانوا يهدمون معابد أعدائهم ويحرقون كتبهم بل إن بعض أئمة المسلمين كانوا يحرقون كتبهم بأيديهم ، وبأن هذه التهمة لم يقل بها أبو الفرج وحده حتى يقال إنه قالها بداعي تعصبه الديني ضد الإسلام بل قال بها مؤرخون مسلمون منهم البغدادي وابن القفطي[١] .

أقوال المعارضين :

والفريق الثاني من المؤرخين رأى أن رواية أبي الفرج لا يمكن تصديقها لأسباب كثيرة . منها أن هذه الرواية بها كثير من الخرافات التي لا يقرها العقل ، إذ كيف يعمل عمرو بن العاص على إحراق الكتب ثم يسلمها إلى الحمامات ؟ ألم يكن في استطاعة أصحاب الحمامات أن يبيعوها وفي استطاعة أمثال يوحنا النحوي أن يشتروها ؟ ثم كيف يمكن إشعال أفران الحمامات في الإسكندرية ستة شهور بهذه الكتب[٢] ، مع أن الحمامات التي كانت في الإسكندرية في ذلك الوقت كانت حوالي أربعة آلاف حمام[٣] ؟ أضف إلى ذلك أن يوحنا النحوي وهو حنا فليبونوس على ما يقول بطلر كان قد مات قبل فتح العرب للإسكندرية بحوالي ثلاثين أو أربعين سنة[٤] ، كما أن الكتب كانت من الكاغد الذي لا يصلح لإيقاد النار[٥] .

---

(١) جرجي زيدان : التمدن الإسلامي ج ٣ ص ٤٠ — ٤٦ .

(٢) حسن ابراهيم حسن : عمرو بن العاص ١١٤ — ١١٥ .

(٣) قال بذلك الاصطخري ولكن بطلر يرى أن في ذلك مبالغة ولا يستبعد أن يكون ذلك خطأ من النساخ وربما كانت ٤٠٠ حمام ( بطلر : فتح العرب لمصر ص ٢٧٠ ) على أن ما جاء في كتاب ابن عبد الحكم يؤيد القول الأول إذ جاء في ص ٧٤ « كتب عمرو بن العاص .. إلى عمر بن الخطاب أما بعد فإني فتحت مدينة لا أصف ما فيها غير أني أصبت فيها أربعة آلاف بنية بأربعة آلاف حمام وأربعين ألف يهودي عليهم الجزية وأربعمائة ملهى للملوك » .

(٤) بطلر : فتح العرب لمصر ص ٢٩٨ .

(٥) حسن ابراهيم حسن : عمرو بن العاص ص ١١٤ — ١١٥ .

وأفراد هذا الفريق لا يكتفون بمناقشة رواية أبي الفرج ذاتها بل يردون على أقوال الفريق الأول ويفندونها ، فيقولون إن القول بأن العرب عندما فتحوا فارس أحرقوا الكتب قول ضعيف لأنه لم يقل به إلا مؤرخ واحد جاء بعد الفتح العربي لفارس بزمن طويل جداً هو حاجي خليفة (+١٠٥٧هـ ١٦٥٧ م ) فى كتاب كشف الظنون فى أسامى الكتب والفنون . ويقولون أيضاً إن هولاكو وأمثاله إذا كانوا قد أحرقوا كتباً أو أغرقوها فى الماء فإن هذا ليس من الضرورى أن ينطبق على العرب ، والمعروف عن العرب أنهم كانوا يعملون على نشر العلم منذ غزوة بدر . ولذلك كانوا يطلقون سراح الأسير إذا وعد بتعليم عشرة من المسلمين الكتابة ، كما أنهم كانوا يحترمون العلماء ويقدسون الكتب المنزلة مثل الإنجيل والتوراة ، ولا تسمح لهم عقيدتهم بإحراقها(١) وإذا كان عبد اللطيف البغدادى وابن القفطى قد اتفقا مع أبي الفرج الملطى فى نسبة هذه التهمة إلى عمرو بن العاص مما ينفى تهمة التعصب الدينى عن أبي الفرج الملطى فإن عبد اللطيف وابن القفطى من مؤرخى القرن السابع الهجرى أى متأخرون فى الزمن عن الفتح العربى لمصر بحوالى ستة قرون . أضف إلى ذلك أن المؤرخين الذين سبقوهم سواء فى ذلك المسلمون منهم وغير المسلمين لم يشيروا إلى هذه التهمة أية إشارة مع أنهم فى كتبهم تكلموا بإسهاب عن الفتح العربى لمصر . ومن أمثال هؤلاء المؤرخين سعيد بن البطريق ( أوتيخا ) ( +٣٢٨ هـ ) صاحب كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ويحيى بن سعيد الإنطاكى صاحب كتاب صلة تاريخ أوتيخا وكذلك الطبرى واليعقوبى والبلاذرى وابن عبد الحكم والكندى وغيرهم(٢) . ولا يضعف قولهم هذا قول جرجى زيدان عن المؤرخين الأقدمين الذين لم يذكروا مسألة إحراق عمرو بن العاص

---

(١) Gibbon: *The Decline and Fall*, Vol. IX, p. 274.

(٢) حسن ابراهيم: عمرو بن العاص، ص ١١٧ ; Sedillot, p. 256; Gibbon, p. 275

المكتبة . الغالب أنهم ذكروها ثم حذفت بعد نضج التمدن الاسلامى واشتغال المسلمين بالعلم ومعرفتهم قدر الكتب فاستبعدوا حدوث ذلك فى عصر الخلفاء الراشدين فحذفوه أو لعل لذلك سببا آخر » ، لأنه قول ضعيف يعوزه الدليل .

ولا يكتفى أفراد هذا الفريق بهذا كله بل ذكروا أموراً أخرى مهمة تؤيد رأيهم تأييداً قوياً ومن ذلك أن المكتبة كانت غير موجودة عند الفتح العربى [١] ، إذ كانت قد أحرقت سنة ٤٨ ق . م عند مجىء يوليوس قيصر إلى الاسكندرية ، كما كانت قد أحرقت، فى عهد تيودوسيوس ( ٣٨٧ — ٣٩٥ م ) [٢] ، وقد جاء فى كتاب بطلر [٣] . أن يوليوس قيصر كان محصوراً سنة ٤٨ ق م فى حى البروكيون يحيط به المصريون من كل جانب وعليهم قائدهم أخيلاس فأحرق السفن التى فى الميناء وقيل إن النار امتدت من هناك وأحرقت المكتبة فأفنتها . وهو يقصد بذلك مكتبة المتحف أو المكتبة الأم وقد قال عنها بعد ذلك[٤] إنها كانت فى القرن الرابع الميلادى قد فنيت . أما المكتبة الوليدة التى قامت فى السيرابيوم فإنها كانت فى حجرات متصلة ببناء معبد السيرابيوم وقد أحرق هذا المعبد فى عهد تيودوسيوس سنة ٣٩١ م على يد المسيحيين الذين كان يقودهم رئيسهم تيوفيلوس[٥] . وقد يدل على صدق هذا القول أن أحد الرحالة الرومان واسمه أورازيوس زار مصر فى أوائل القرن الخامس الميلادى وكتب عنها سنة ٤١٦ م وذكر أنه لم يجد سوى رفوف خالية من الكتب فى هذه المكتبة[٦] . أضف إلى

---

(١) Le Bon (Gustave), p. 208.

(٢) Gibbon: *The Decline and Fall.* Vol. IX, p. 275.

(٣) بطلر : فتح العرب لمصر ص ٢٩٩ .

(٤) شرحه ص ٣٠٢ .

(٥) بطلر : فتح العرب لمصر ص ٣٠٣ ، ٣٠٧ .

(٦) سيدة الكاشف : مصر فى فجر الإسلام ص ٣٣٣ ، بطلر : فتح العرب لمصر ص ٣٠٨ ، عمرو بن العاص لحسن ابراهيم ص ١١٧ .

ذلك أن الكتاب فى القرنين السابقين للفتح العربى لم يذكروا شيئاً عن وجود مكتبة عامة فى الاسكندرية ، وكذلك لم يشر إليها حنا النقيوس ولا إلى إحراقها مع أنه كتب عن الفتح العربى[1] .

**الرأى الأخير :**

ومن كل هذا نستطيع أن نقول مع القائلين بأن عمرو بن العاص لم يحرق مكتبة الاسكندرية وأن اتهامه بهذا محض افتراء عليه وعلى العرب ، ولا يبعد أن يكون عبد اللطيف البغدادى وابن القفطى وأبو الفرج الملطى قد أخذوا جميعاً هذه الأخبار الملفقة عن مصدر واحد يعادى العرب خصوصاً وأنهم جميعاً عاشوا فى القرن السابع الهجرى وأن الروايتين اللتين ذكرهما ابن القفطى وأبو الفرج تكادان تكونان رواية واحدة لاشتراكهما فى كثير من العبارات والتراكيب .

---

(١) بطلر : فتح العرب لمصر ٣١٠ — ٣١١ .

# الباب الثانى

## فـــترة حكم الولاة

## ( ٢٠ — ٢٥٤ هـ )

# الفصل الأول

## نظام الحكم فى فترة حكم الولاة

استفاد العرب فى كل البلاد التى فتحوها من النظام الذى وجدوه فيها . وفى مصر لم يخرجوا على هذه القاعدة ، ولم يختلف نظام حكومتهم كثيراً عن النظام الرومانى والبيزنطى ، وكان هذا الخلاف القليل مما تستوجبه الصبغة الدينية الإسلامية التى كانت تصبغ النظام الإسلامى .

### النظام السياسى والإدارى :

**الوالى وأعوانه :**

يتضح من كتب التاريخ أن التقسيم الإدارى لم يتغير فى مصر عما كان عليه فى العصرين الرومانى والبيزنطى : إذ كانت البلاد مقسمة فى عهد العرب إلى مصر العليا ومصر السفلى [1] . كما كانت فوق ذلك تنقسم إلى كور [2] وقرى . وكانت القرى فى أوائل العهد الإسلامى تبلغ أكثر من عشرة آلاف قرية . ويتضح هذا من رواية وردت فى حسن المحاضرة [3] .

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٨٤ .

(٢) المقريزى جـ ١ ص ٢٦ .

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٦٣ — ٦٤ .

جاء بها : « ولما ولى ابن رفاعة مصر خرج ليحصى عدة أهلها وينظر فى تعديل الخراج عليهم فقام فى ذلك ستة أشهر بالصعيد حتى بلغ أسوان ، ومعه جماعة من الأعوان والكتاب يكفونه ذلك بجد وتشمير وثلاثة أشهر بأسفل الأرض فأحصوا من القرى أكثر من عشرة آلاف قرية فلم يحص فيها فى أصغر قرية منها أقل من خمسمائة جمجمة من الرجال الذين يفرض عليهم الجزية » .

وكان الوالى يشبه فى سلطته الحاكم Graefectus فى العهد الرومانى من ناحية سلطته الواسعة وجمعه مقاليد الأمور كلها فى يديه . على أنه كان فى النظام الإسلامى ينوب عن خليفة المسلمين فى شئون الدين وفى رئاسة الجيش وفى شئون المال ، فكان يؤم المسلمين فى الصلوات كما كان يقودهم فى الحروب وكان يشرف على جمع الخراج ويعين صاحب الشرطة ليعاونه فى حفظ الأمن ، ويعين صاحب البريد ليكون رسوله إلى أعوانه من العمال وذلك فى أوائل العهد الإسلامى ثم ليكون بعد مدة من الزمن عينه على أصحاب الكور(١) وموازيت القرى . وفى أوقات كثيرة كان الوالى يعين القاضى ويصدق الخليفة على هذا التعيين . وكان الوالى أيضاً يتخذ الكتبة العديدين ليكتبوا الرسائل إلى عماله أو إلى الخلفاء . كما كان يعين هيئة مركزية للاشراف على شئون الرى . وكان يعين أيضاً عامل الخراج ثم أصبح الخلفاء بعد مدة من هم الذين يعينونه مستقلا عن الوالى .

ومع أن سلطة الوالى كانت واسعة جداً وكانت المركزية على أشدها فى النظام الإسلامى إلا أن الوالى رغبة منه فى الإستعانة بمرءوسيه كان أحياناً يدع لهم قسطاً كبيراً من النفوذ . ويبدو هذا واضحاً جلياً إذا عرفنا أن صاحب الشرطة كان يسهر على حفظ الأمن والنظام كما كان ينوب عن الوالى عند غيابه عن الفسطاط ولذلك كان يطلق على منصبه خلافة الفسطاط .

---

(١) Grohmann: *Arabic Papyri*, Vol. III, p. 28.

وإذا عرفنا أيضاً أن الوالى كان يعتمد على صاحب الكورة وعلى مازوت القرية أى شيخها أو رئيسها فى إدارة شئون الكورة أو القرية كما كان يعتمد على جسطال الكورة وهو الموظف المشرف على ماليتها [١] .

أضف إلى ذلك أن الهيئة المركزية التى كان يعينها الوالى للاشراف على شئون الرى كانت تعين من قبلها موظفين يسهرون على الجسور وحفر القنوات .

الحامية :

وكانت توجد فى مصر فى العهد الاسلامى حامية عربية كبيرة تشمل العرب جميعاً تقريباً وكانت لها مراكز مختلفة أهمها الفسطاط والاسكندرية وكان أهم هذه المراكز فيما يبدو فى الاسكندرية ويدل على ذلك كثرة عدد أفراد هذه الحامية وكثرة تغييرها محافظة على نشاطها .

النظام المالى :

الضرائب :

ونحن إذا أخذنا بأقوال المؤرخين المسلمين يتضح لنا أن العرب فى مصر ساروا وفق نصوص الصلح التى عقدوها مع المقوقس عند حصار حصن بابليون وعند حصار الاسكندرية . فلم يثقلوا أهلها بالضرائب ولم يفرضوا عليهم نظاماً مالياً قاسياً .

الجزية :

وقد كانوا يفرضون على أهل مصر الجزية أو ضريبة الرأس وكانت عبارة عن دينارين عن كل شخص ما عدا النساء والأطفال والشيوخ والفقراء

---

(١) كلمة مازوت جمعها موازيت وتقابل الكلمة البيزنطية ميزوتروتروس فى حين أن كلمة جسطال تقابل الكلمة البيزنطية أوجستاليوس .

Wiet: *Précis de l'Histoire de l'Egypte,* Tome II, p. 127.

وهذا المبلغ يساوى حوالى جنيه إنجليزى واحد أى ثمانية قروش مصرية فى الشهر تقريباً. وقد ذكر ابن عبد الحكم[1] : « ففتحت مصر كلها صلحاً بفريضة دينارين دينارين على كل رجل لايزاد على أحد منهم فى جزية رأسه أكثر من دينارين إلا أنه يلزم بقدر ما يتوسع فيه من الأرض والزرع . إلا أهل الإسكندرية فإنهم كانوا يؤدون الخراج والجزية على قدر ما يرى من وليهم لأن الاسكندرية فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد ولم يكن لهم صلحاً ولا ذمة ، ويفهم من قوله هذا أن الاسكندرية كانت مستثناة لأنها فتحت عنوة غير أنه يقول فى موضع آخر ما يبين أن الاسكندرية عوملت معاملة غيرها من البلاد المصرية فهو يقول[2] : « إن أهل سلطيس ومصيل وبلهيب ظاهر الروم على المسلمين فى جمع كان لهم فلما ظهر عليهم المسلمون استحلوهم وقالوا هؤلاء لنا فىء مع الاسكندرية . فكتب عمرو بن العاص بذلك إلى عمر ابن الخطاب فكتب إليه عمر أن يجعل الاسكندرية وهؤلاء الثلاث قريات ذمة للمسلمين ويضربوا عليهم الخراج ويكون خراجهم وما صالح عليه القبط قوة للمسلمين على عدوهم ولا يجعلون فيئاً ولا عبيداً ففعلوا ذلك » . وهو يقول أيضاً[3] فى موضع ثالث : « لما فتح عمرو بن العاص مصر صولح على جميع من فيها من الرجال من القبط ممن راهق الحلم إلى مافوق ذلك ليس فيهم إمرأة ولا صبى ولا شيخ على دينارين دينارين فأحصوا كذلك فبلغت عدتهم ثمانية آلاف ألف » .

على أنه مما يسترعى الانتباه ويبين أن العرب بالغوا فى حسن معاملة أهل مصر ما تثبته أوراق البردى من أن الجزية كانت تتناسب مع ثروة الشخص ، فشخص كان يدفع ديناراً واحداً وآخر ديناراً ونصف دينار

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٧٦ .

(٢) ابن عبد الحكم فتوح مصر ص ٧٥ .

(٣) شرحه ص ٧٨ .

وثالث كان يدفع ثلثى دينار ورابع ديناراً وثاث وهكذا [١] ، وقد كان المصريون يعرفون الجزية بإسم دُمْزياً فى حين كان العرب يسمونها الجزية [٢] ولاشك أن تغير الجزية بإختلاف ثروة الشخص كانت هى السبب فى أن الفقهاء اختلفوا فى مقدار الجزية وفى أن أبا حنيفة مثلا جعل الجزية مقادير ثلاثة (١) يؤخذ من الغنى ثمانية وأربعون درهما (٢) ويؤخذ من الأوساط أربعة وعشرون درهما (٣) ويؤخذ من الفقراء اثنا عشر درهما [٣].

الخراج :

وكان العرب يفرضون أيضاً ضريبة الأرض (الخراج فيما بعد) وكانت تجبى عيناً ونقداً . وكانت معتدلة تتراوح بين دينارين [٤] وبين دينار واحد وثلاثة أرادب حنطة عن الجريب [٥] وهو حوالى ثلث فدان (مائة قصبة مربعة) ويطلق على هذه الضريبة حين كانت تدفع عيناً فى أوراق البردى العربية اسم ضريبة الطعام وكانت لاتقتصر على القمح فقط بل كانت تشمل أحياناً الزيت والعسل وأنواعاً أخرى من الطعام . أما فى أوراق البردى اليونانية أى عند المصريين فكانت ضريبة الطعام تعرف بإسم أمبوليه [٦] .

ويلاحظ أن العرب فى تقدير ضريبة الأرض كانوا يراعون حالة الأرض من حيث الضعف والقوة وحالة فيضان النيل وأنواع المزروعات أيضاً ، وقد كانت ضريبة الأرض يتحملها القبط وحدهم فى بادىء الأمر لأن العرب إنصرفوا عن امتلاك الأرض فى البلاد المفتوحة إلى الحرب وأعمال الفتح . والمؤرخون مختلفون فيما إذا كان العرب قد انصرفوا عن تملك الأرض بناء على أوامر عمر بن الخطاب أو استجابة لطبيعتهم ولانشغالهم

---

(١) Grohmann: *Arabic Papyri in the Egyptian Library*, vol. III, pp. 197-8, 201-203, 217, 219, 220-1.

(٢) Grohmann: *Arabic Papyri*, Vol. III, pp. 16-17; Van Berchem: *Une page nouvelle de l'Histoire de l'Egypte*, p. 161.

(٣) بطلر : فتح العرب لمصر ص ٣٣٣ ، الهامش ص ٣٣٤ .

(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢١٦ .

(٥) شرحه ص ٢١٥ .

(٦) سيدة الكاشف : مصر فى فجر الإسلام ص ٤٩ — ٥٠ .

بالحرب ليس غير . وممن قال بأن عمر بن الخطاب هو الذى أمر العرب بالابتعاد عن الزراعة السيوطى فهو يقول فى كتابه [١] « إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أمر مناديه أن يخرج إلى أمراء الأجناد يتقدمون إلى الرعية أن عطاءهم قائم وأن رزق عيالهم سائل فلا يزرعون . . . . » . على أنه من الثابت أن العرب بعد مدة من الزمن ومنذ عهد عثمان بن عفان أصبحوا يمتلكون الأرض فى البلاد المفتوحة وأصبح القبط والعرب جميعاً يتحملون ضريبة الأرض .

ضرائب أخرى :

على أننا يجب ألا ندخل ضمن هذا الأراضى التى كانت ملكا خاصاً لحكام مصر قبل الفتح العربى أو الأرض الموات التى أحييت بعد الفتح العربى . فإن الأرض الأولى أصبحت للخلفاء وكانوا يقطعونها لأفراد من المسلمين والأرض الثانية كانت لمن أحياها . وقد ذكر لنا السيوطى [٢] أن عمرو بن العاص أقطع ألف فدان لابن سندر فى منية الأصبغ بأمر عمر ابن الخطاب وبعد موت ابن سندر أقطعها عبدالعزيز بن مروان لابنه الأصبغ وقد كان أصحاب الإقطاعات والأرض الموات لايدفعون خراجاً عن أرضهم بل كانوا يدفعون العشر زكاة لها كما يزكى المسلم عن أنواع الأموال الأخرى .

وكانت هناك بعض ضرائب بسيطة أخرى وتكاليف فرضها العرب على أهل مصر بعد الفتح مثل المكوث التى أصبحوا يفرضونها على التجار وحق الضيافة ثلاثة أيام للعرب الذين ينزلون على أهالى البلاد .

خفة الضرائب :

ويشهد لينبول بأن الضرائب التى فرضها العرب على أهل مصر كانت

---

(١) حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٦٧ .

(٢) حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٦٦ .

خفيفة ويقول إنها كانت أخف حملا من مثيلاتها فى عهد الرومان الأخير[١] ونحن إذا أخذنا بأقوال المؤرخين المسلمين يتضح لنا صدق قول لينپول فإن عمرو بن العاص طبقاً لأقوالهم جمع من مصر فى السنة الأولى اثنى عشر مليون دينار فى حين أن المقوقس جمع فى السنة السابقة لدخوله عشرين مليوناً[٢] وكذلك جمع عبد الله بن سعد بن أبى السرح الذى ولى مصر بعد عمرو أربعة عشر مليوناً[٣] .

سبب النزاع بين عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص :

والتاريخ يذكر أن عمر بن الخطاب لم يرض عن عمرو بن العاص لقلة الأموال التى جباها من مصر . وربما ظن البعض[٤] أن عمر بن الخطاب كان لا يهمه إلا زيادة الدخل ولو كان ذلك على حساب أهل البلاد المفتوحة بدليل غضبه على عمرو بن العاص لقلة الخراج فى عهده . ولكن هذا الظن فى غير محله . لأن عمر بن الخطاب عرف طول مدة خلافته بتحرى العدل بين الناس جميعاً وبالعطف على رعيته وبالزهد فى الدنيا ومتاعها وقد أثر عنه أنه فى زيارة له فى بلاد الشام رأى شيخاً يهودياً يتسول وعرف أنه يفعل ذلك ليجمع الجزية المفروضة عليه فلم يمنعه ميله إلى المحافظة على أموال المسلمين من العطف على هذا اليهودى الشيخ وأمر بإعفائه من الجزية هو وأمثاله من العاجزين الفقراء . ويبدو أن عمر بن الخطاب فى موقفه إزاء عمرو بن العاص كان يرمى إلى ضبط النظام وكان يخشى أن يأخذ الولاة الأموال لأنفسهم ويغتنوا على حساب بيت المال . ولذلك نجده يستعمل نظام المقاسمة مع الولاة فيبعث إليهم من يقتسم معهم ما جمعوه أثناء ولايتهم أو يأخذه كله .

---

(١) Lane-Poole: *A History of Egypt in the Middle Ages*, p. 18.

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٦٤ .

(٣) شرحه ص ٦٥ .

(٤) بطلر : فتح العرب لمصر ص ٣٣٧ .

وقد فعل هذا مع عمرو بن العاص كما فعله مع أبي هريرة عامل البحرين ومع خالد بن الوليد أثناء وجوده فى الشام [١] .

## رأى بطلر فى النظام المالى الإسلامى وتفنيده :

وبطلر يخالفنا فى الحكم على النظام المالى الإسلامى فى مصر بعد الفتح العربى ، ويذكر فى كتابه [٢] أن حنا النقيوسى المؤرخ القبطى عند ما يصف الأيام الأخيرة من حياة المقوقس يقول : « إن عمراً لم تكن فى قلبه رحمة بالمصريين ولم يرع العهد الذى عقده معهم إذ كان رجلا من الهمج » ويذكر أيضاً أن حنا النقيوسى عندما يذكر ثلاثة من الروم اعتنقوا الإسلام وأقرهم العرب فى مناصبهم وهم ميناس الذى أقره العرب حاكما لمصر السفلى كما كان فى عهد هرقل وسنودة ( سنيوتيوس ) الذى أقروه على حكم الريف وفيلو خينوس الذى أقروه على حكم الفيوم يقول إنهم « كانوا يكرهون المسيحيين ويوالون أعداءهم ويثقلون كاهلهم بالأحمال الباهظة » . وفضلا عن ذلك فإن بطلر يقول « وكان القبط يكرهون على أن يحملوا للعرب مؤونة لدوابهم وطعاماً لأنفسهم كثيراً من اللبن والعسل والفاكهة والخضر وسوى ذلك من الأشياء فوق ما كانوا يؤدونه من الطعام المعتاد وهو الضريبة التى كانوا يأخذونها من ثمار الأرض ، وكان القبط يؤدون كل ذلك تحت ظل خوف لا اطمئنان معه » .

ومن رأينا أن بطلر يبالغ فى ذكر سوء معاملة العرب للقبط ويجارى حنا النقيوسى فى تشنيعه على العرب مع أن موقف حنا النقيوسى لا يعدو أن يكون موقف الوطنى الذى احتل الفاتحون بلاده فهو غير راض عنهم وهو معذور إذا كال لهم الشتائم ووصفهم بكل قبيح . أما قول بطلر إن

---

(١) بطلر : فتح العرب لمصر ص ٣٣٧ .

(٢) فتح العرب لمصر ص ٢٦٦ .

العرب كانوا يحصلون من القبط على مئونة لدوابهم وطعام لأنفسهم فربما كانت فيه إشارة إلى بعض شروط الصلح التى تعطى الحق فى النزول والضيافة عند القبط ثلاثة أيام . وبذلك لا يكون فى هذا الأمر ظلم أو خروج على العهد أو همجية . وقد ذكر بطلر ما يخالف رأيه هذا بعد ذلك حين قال[1] : « فليس ثمة من سبب يحدو بنا إلى تكذيب ما ذكره مؤرخو المسلمين من خفة وطأة الضرائب على المصريين بعد فتح العرب . هذا إلى أن العرب أزالوا ما كان مقرراً من التفريق بين الناس فى جباية الضرائب وإعفاء بعضهم منها » .

*هل كانت مصر مجرد مزرعة للقمح فى عهد العرب ؟*

وقد جاء فى كتاب مصر فى فجر الإسلام[2] أن مصر عقب الفتح مباشرة بدأت « ترسل القمح إلى المدينة كما كانت ترسله لروما ومن بعدها لبيزنطة وهذا مما حدا الأب لا مانس على القول بأنه لم تكن لمصر سوى أهمية اقتصادية إذ كانت تنتج الحبوب وتدفع الضرائب » . ولعل فى هذا القول اتهاماً للعرب بأنهم كانوا يرمون إلى استنزاف موارد مصر وخيراتها وكانوا يبعثون بحاصلاتها من الحبوب إلى مقر خلافتهم . وهو اتهام جائر مردود بما ذكرناه من أن الضرائب التى فرضها العرب على أهل مصر كانت خفيفة ومردود أيضاً بما نذكره من أن العرب كانوا حريصين كل الحرص على أن ينفق جزء كبير من حصيلة تلك الضريبة فى أعمال الإصلاح فى مصر ذاتها مثل حفر الترع والخلجان وتقوية الجسور إلى غير ذلك وما يبقى بعد ذلك وهو قليل يرسل إلى مقر الخلافة سواء أكان أموالا أم محاصيل .

وقد جاء فى كتاب مصر فى فجر الإسلام نفسه[3] أن ساويرس صاحب كتاب سير الآباء البطاركة[4] ذكر « أن ما كان يحمل إلى بيت المال

---

(١) فتح العرب لمصر ص ٣٣٣ .

(٢) سيدة الكاشف : مصر فى فجر الإسلام ص ٥١ .

(٣) سيدة الكاشف : مصر فى فجر الإسلام ص ٥١ .

(٤) ص ١٨٩ Patrologia Orientalis, Vol. V.

مائتا ألف دينار بعد النفقة على الأجناد وما تحتاج إليه البلاد » . ولا يمكن طبعا أن يكون ساويرس متحيزاً للعرب المسلمين . أضف إلى ذلك ما جاء فى كتاب حسن المحاضرة[1] وهو « كان ديوان مصر فى زمن معاوية أربعين ألفاً وكان منهم أربعة آلاف فى مائتين مائتين فأعطى مسلمة بن مخلد أهل الديوان عطياتهم وعطيات عيالهم وأرزاقهم ونوائبهم ونوائب البلاد من الجسور وأرزاق الكتبة وحملان القمح إلى الحجاز وبعث إلى معاوية بستمائة ألف دينار فضلت » . فإن فى هذا القول دليلا على أن العرب وإن أرسلوا قمحاً من مصر إلى الحجاز إلا أن هذا القمح لم يكن كثيراً كما أن مصالح مصر لم تكن مهملة ولم تكن الضرائب تفقر الناس ولا تترك لهم شيئا يساعدهم على الحياة كما كان الحال فى أواخر العهد البيزنطى .

### التعسف أحيانا فى فرض الضرائب :

على أن ما ذكرناه لا ينفى أن بعض الحكام العرب وبخاصة بعد ضعف الخلافة العباسية بدأوا يتعسفون فى فرض الضرائب فى مصر . ومن هؤلاء أحمد بن محمد بن مدبر الذى ولى خراج مصر سنة ٢٤٧ هـ . وكما يقول المقريزى[2] : ابتدع فى مصر بدعا صارت مستمرة من بعده فأحاط بالنطرون وحجر عليه بعد ما كان مباحاً لجميع الناس وقرر على الكلأ الذى ترعاه البهائم مالا سماه المراعى وقرر على ما يطعم الله من البحر مالا سماه المصايد إلى غير ذلك » ، وقد ألغى أحمد بن طولون هذه الضرائب المبتدعة عند ما ولى أمر مصر سنة ٢٥٤ هـ على ما سنذكره فيما بعد .

### طرق جباية الضرائب :

وقد اختلفت طريقة جمع الضرائب فى مصر الإسلامية من وقت لآخر

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٦٥ .

(٢) الخطط جـ ١ ص ١٠٣ و ١٠٧ — ١٠٩ و جـ ٢ ص ٢٦٧ .

فمن أول الفتح حتى آخر العصر الأموى تقريباً كان أهالى كل قرية هم الذين يقدرون ضرائبها تحت إشراف صاحب الكوره ويراعون فى ذلك حالة العمران والخراب كما كانوا يجمعون تلك الضرائب وكان صاحب الكورة مسئولا عن تأدية ضرائب كورته أمام الوالى . ويتضح هذا الأمر مما ذكره السيوطى[1] نقلا عن ابن عبد الحكم فقد قال « قال ابن عبد الحكم وكان عمرو بن العاص لما استوثق له الأمر أقر قبطها على جباية الروم وكانت جبايتهم بالتعديل إذا عمرت القرية وكثر أهلها زيد عليهم وإن قل أهلها وخربت نقصوا ، فيجتمع عرفاء كل قرية ورؤساؤها فيتناظرون فى العمارة والخراب حتى إذا أقروا من القسم بالزيادة انصرفوا بتلك القسمة إلى الكور ثم اجتمعوا هم ورؤساء القرى[2] فوزعوا ذلك على احتمال القرى وسعة المزارع » .

ومنذ أوائل العصر العباسى تقريباً اتبعت طريقة قبالات الأراضى وتشبه نظام الالتزام وبمقتضاها كان يقام فى جامع عمرو مزاد لتقبل الأرض أو ضمان خراجها وكان التقبل لأربع سنوات تفادياً لما يحدث من قلة المياه فى سنة من السنين وضعف المحصول تبعاً لذلك كما كان يخصم من المبلغ الذى يقرر على المتقبل ما ينفقه فى كرى الترع وعمارة الجسور وحفر الخلجان الخ[3] .

وفى العصر العباسى أيضاً اتبعت طريقة أخرى فى بعض الأحيان وهى طريقة ضمان الوالى أو عامل الخراج لخراج مصر كله . ويقال إن أول من فكر فى ذلك الخليفة أبو جعفر المنصور حين عرض ضمان خراج مصر

(١) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٦٣ .

(٢) لابد أنها الكور .

(٣) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٨٢ .

على واليها محمد بن الأشعث (١٤١—١٤٣ هـ) ولكنه رفض[١] .

ويلاحظ أن نظام قبالات الأراضى ونظام الضمان لم يكن شيئاً جديداً فى مصر بل إن جذوره تمتد إلى عهد البطالمة حين كان يعرض حق جباية مختلف الضرائب فى المزاد كل عام ويعطى لمن يتقدم بالعطاء الأكبر[٢] .

(١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٠٦ .

(٢) آيدرس بل : مصر من الاسكندر حتى الفتح العربى ص ٩٧ .

# الفصل الثانى

## الحالة السياسية فى فترة حكم الولاة

### (١) ولاة مصر

**عمرو بن العاص :**

حكم مصر فى الفترة من الفتح العربى حتى قيام الدولة الطولونية — تلك الفترة التى تزيد على مائتى سنة حوالى مائة والى . وكان معظمهم لا أهمية لهم لأن مدد حكمهم كانت قصيرة . على أن من هؤلاء الولاة جماعة اشتهروا بالعدل والحزم وحسن السياسة . ومن هؤلاء أولهم وهو عمرو بن العاص فاتح مصر . وقد ولى مصر مرتين الأولى تبلغ خمس سنوات تقريباً ( ٢٠ — ٢٥ هـ ) ، وقد ظل معظم هذه المدة صاحب النفوذ المطلق فى مصر فكانت إليه صلاتها وخراجها . على أن الحال لم يستمر على هذا طويلا ولم يلبث عمر بن الخطاب أن ظن فى عمرو الظنون ودارت بينهما مكاتبات طويلة انتهت بأن قسم عمر بن الخطاب مصر قسمين وجعل عمرو على أحدهما وهو الدلتا وجعل عبد الله بن سعد بن أبى سرح أحد اتباعه على القسم الثانى وهو الصعيد . ولأهمية هذا الخلاف وما ترتب عليه من عزل عمرو عن مصر فى النهاية لانرى بأساً عن الكلام عليه هنا طبقاً لما جاء فى حسن المحاضرة للسيوطى[١] ، فإن الخليفة عمر بن الخطاب عندما رأى أن عمرو بن العاص جبى من مصر اثنى عشر مليون دينار فى حين أن المقوقس جبى منها قبله عشرين مليون دينار كتب إلى عمرو يقول « بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص سلام عليك فإنى

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٦٤ — ٦٥ .

أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو . أما بعد فإنى فكرت فى أمرك والذى أنت عليه فإذا أرضك أرض واسعة عريضة رفيعة قد أعطى الله أهلها عدداً وجلداً وقوة فى بر وبحر وأنها قد عالجتها الفراعنة وعملوا فيها عملا محكماً مع شدة عتوهم وكفرهم . فعجب من ذلك وأعجب مما عجبت أنها لا تؤدى نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك على غير قحوط ولا جدوب ولقد أكثرت فى مكاتبتك فى الذى على أرضك من الخراج وظننت أن ذلك سيأتينا على غير تراث (ربما تريث) ورجوت أن تفيق فترفع إلى ذلك فإذا أنت تأتينى بمعاريض تغتالها لا توافق الذى فى نفسى ولست قابلا منك دون الذى كانت تؤخذبه من الخراج قبل ذلك . ما الذى أنفرك من كتابى وقبضك فلئن كنت مجرباً كافياً صحيحاً إن البراءة لنافعة ولئن كنت مضيعاً نطعاً[1] إن الأمر لعلى غير ما تحدث به نفسك . وقد تركت أن أبتغى ذلك منك فى العام الماضى فى رجاء أن تفيق فترفع إلى ذلك . وقد علمت أنه لم يمنعك من ذلك إلا عمالك عمال السوء وما تواليت عليه وتلفف الجدول كهفا[2] وعندى بإذن الله دواء فيه شفاء عما أسألك عنه . فلا تجزع أبا عبد الله أن يؤخذ منك الحق وتعطاه فإن النهر يخرج الدر والحق أبلج ودعنى وما عنه تتلجلج فإنه قد برح الخفاء والسلام » . فكتب إليه عمرو بن العاص كتاباً فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم لعبد الله عمر أمير المؤمنين من عمرو بن العاص سلام عليك فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو أما بعد فقد بلغنى كتاب أمير المؤمنين فى الذى استبطأنى فيه من الخراج والذى ذكر فيها من عمل الفراعنة قبلى وإعجابه من خراجها على أيديهم ونقص ذلك منها منذ كان الإسلام . ولعمرى الخراج يومئذ أوفر وأكثر والأرض أعمر لأنهم كانوا

---

(١) نطعاً : متشدقاً .

(٢) ذكرها المقريزى « وما توالس عليك وتلفف اتخذوك كهفاً » . وهو الصحيح فيما يبدو . توالس : تناصر فى خب وخديعة ؛ تلفف : اجتمع حولك .

على كفرهم وعتوهم أرغب فى عمارة أرضهم منا منذ كان الإسلام . وذكرت بأن النهر يخرج الدر لحلبتها حلباً قطع ذلك درها وأكثرت فى كتابك وأنبت وعرضت ونزيت[١] وعلمت أن ذلك عن شىء تخفيه على غير خبير فجئت لعمرى بالمفظعات[٢] المقذعات[٣] ولقد كان لك فيه من الصواب رصين صارم بليغ صادق . وقد عملنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن بعده فكنا بحمد الله مؤدين لأماناتنا حافظين لما عظم الله من حق أئمتنا نرى غير ذلك قبيحاً والعمل به سيئاً فيعرف لنا ويصدق فيه قبلنا . معاذ الله من تلك الطعم[٤] ومن شر الشيم والاجتراء فى كل مأثم فاقبض عملك فإن الله قد نزهنى من تلك الطعم الدنية والرغبة فيها بعد كتابك الذى لم تستبق فيه عرضاً تكرم فيه أخاً والله يا ابن الخطاب لا ناحين يراد ذلك منى أشد لنفسى غضباً ولها إنزاهاً وإكراماً . وما علمت من عمل أرى على فيه متعلقاً ولكنى حفظت ما لم تحفظ ، ولو كنت من يهود يثرب ما زدت يغفر الله لك ولنا وسكت عن أشياء كنت بها عالماً وكان اللسان بها منى زلولا[٥] ولكنى الله عظم من حقك مالا يجهل والسلام » . فكتب إليه عمر بن الخطاب كتاباً آخر يقول فيه : « من عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص سلام عليك فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو أما بعد فقد عجبت من كثرة كتبى إليك فى إبطائك بالخراج وكتابك إلى ببنات الطرق . وقد علمت أنى لست أرضى منك إلا بالحق البين ولم أقدمك مصر أجعلها لك طعمة ولا لقومك ولكنى وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج وحسن سياستك فإذا أتاك كتابى

---

(١) نزّى : وثب : هاجم .

(٢) من فَظُع الأمر : اشتدت شناعته ( ومعناها بالأمور الفظيعة ) .

(٣) من قاذع ، شتائم .

(٤) جمع طُعمة وهى وجه المكسب .

(٥) زلول : زلق فى المنطق .

هذا فاحمل الخراج . فإنما هو فىء المسلمين وعندى من تعلم قوم محصورون[1] والسلام » . فكتب إليه عمرو بن العاص يقول : « بسم الله الرحمن الرحيم لعمر بن الخطاب من عمرو بن العاص سلام عليك فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو أما بعد فقد أتانى كتاب أمير المؤمنين يستبطئنى فى الخراج ويزعم أنى أعند عن الحق وأنكب عن الطريق وإنى والله ما أرغب عن صالح ما تعلم ولكن أهل الأرض استنظرونى إلى أن تدرك غلتهم فنظرت للمسلمين فكان الرفق بهم خيراً من أن يخرق بهم فنصير إلى ما لا غنى بهم عنه والسلام » . ولما استبطأ الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه الخراج كتب إلى عمرو بن العاص يطلب منه أن يبعث إليه رجلا من أهل مصر فبعث إليه رجلا من القبط فسأله الخليفة عن مصر وخراجها قبل الاسلام فقال : يا أمير المؤمنين كان لايؤخذ منها شىء قبل عمارتها . وعاملك لا ينظر إلى العمارة وإنما يأخذ ما ظهر له كأنه لايريدها إلا لعام واحد . فعرف عمر ما قال وقبل من عمرو ما كان يعتذر به . هذا ما ذكره السيوطى عن هذا الخلاف وواضح منه أن عمر بن الخطاب كان يخشى أن يستغل عمرو بن العاص دخل مصر لنفسه ولأهله ولذلك قال له إنه لم يوله على مصر لتكون له ولأهله طعمة ولكنه وجهه إليها ليحسن سياستها ويوفر خراجها. وواضح منه أيضاً أن عمرو بن العاص كان يرى الترفق بأهل الخراج . على أن العجيب أن يقول القبطى الذى بعثه عمرو بن العاص إلى الخليفة عمر إن عامله لاينظر إلى العمارة ولكنه يأخذ كل ما يظهر له كأنه يشكو من شدته فى جمع الضرائب . وإذا كان السيوطى يختم هذا النزاع بالتفاهم بين الخليفة والوالى فإن غيره من المؤرخين كما سبق أن ذكرنا يقول إن الخليفة بعث بمن اقتسم مع عمرو بن العاص أمواله وقد انتهى الأمر بتقسيم مصر بين عمرو وبين عبد الله بن سعد بن أبى سرح .

---

(١) فى ضيق .

وقد أراد عمرو بن العاص عند اعتلاء عثمان بن عفان عرش الخلافة أن يولى على مصر كلها ولكنه فقدها كلها وأعطاها عثمان لعبد الله بن سعد بن أبي سرح أخيه من الرضاعة . وكان هذا سبباً فى إثارة عمرو الناس ضد عثمان ويقول السيوطى[1] إنه بعد توليه عبد الله بن سعد على مصر ، انتقل عمرو ابن العاص إلى المدينة وفى نفسه من عثمان أمر كبير وجعل عمرو بن العاص يؤلب الناس على عثمان » . وقد كان عمل عمرو بن العاص هذا من ضمن الأمور التى أدت إلى إثارة الفتنة التى قامت ضد عثمان وانتهت بقتله .

والمدة الثانية التى حكمها عمرو بن العاص فى مصر كانت نتيجة لتعاونه مع معاوية ابن أبى سفيان ضد على بن أبى طالب ، وقد دامت حوالى خمس سنوات أيضاً (٣٨ — ٤٣ هـ) وكانت فيها مصر طعمة لعمرو أى خالصة له يستولى على خراجها ولا يبعث بشيء منه إلى بيت المال .

خلفاء عمرو :

ومن ولاة هذه الفترة المصلحين أيضاً مسلمة بن مخلد وقد حكم مصر حوالى اثنتى عشرة سنة ( ٥٠ — ٦٢ هـ ) فى عهد معاوية أول الخلفاء الأمويين[2] وعبد العزيز بن مروان . وقد حكمها حوالى إحدى وعشرين سنة (٦٥—٨٦) وكذلك موسى بن عيسى وقد حكم فى مصر ثلاث مرات فى سنى ١٧١ و ١٧٥ و ١٧٩ هـ فى العهد العباسى . وكذلك عبد الله بن طاهر الذى حكم حوالى ثلاث سنوات ( ٢١١ — ٢١٣ هـ ) فى عهد المأمون . واشناس الذى حكم حوالى عشر سنوات ( ٢١٩ — ٢٢٩ هـ ) فى عهد المعتصم . وإيتاخ الذى حكم خمس سنوات ( ٢٣٠ — ٢٣٥ هـ ) فى عهد الواثق . وكذلك عنبسة ابن إسحاق الذى حكم نحو أربع سنوات ( ٢٣٨ — ٢٤٢ هـ ) فى عهد

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢ .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٥ — ٦ .

المتوكل . وقد كان عنبسة آخر من ولى مصر من العرب وكان تقياً ورعاً شديد البأس له هيبة فى نفوس مرءوسيه . ويقال إنه كان يذهب ماشياً على قدميه من مقر الحكم فى العسكر حتى المسجد كما كان يخطب الناس بنفسه وكان آخر من أم الناس فى الصلاة من الولاة[١] وبعده ولى مصر عدد من الأتراك اشتهرت أيامهم بتحيزهم ضد العرب وميلهم إلى القبط وقد أعادوا إلى القبط الكثير من الأراضى والممتلكات التى كانت قد نزعت منهم وسمحوا لهم بإعادة بناء كنائسهم وقد قاسى المسلمون الكثير من جراء شذوذهم[٢] .

## ( ٢ ) عواصم مصر

### الفسطاط

كانت لمصر فى تلك الفترة عدة عواصم أهمها الفسطاط . وقد بناها عمرو بن العاص بعد الفتح العربى للاسكندرية فى المرة الأولى سنة ٢١ هـ ( ٦٤١/٢ م ) مباشرة[٣] . واتخذها فى موضع متوسط بين النيل وجبل المقطم والمزارع سهل الإتصال ببلاد العرب لا يفصله عن تلك البلاد فاصل من ماء طبقاً لرغبة الخليفة عمر بن الخطاب . فقد قيل[٤] إن عمرو بن العاص أراد أن يتخذ الاسكندرية عاصمة له « فكتب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يستأذنه فى ذلك فسأل عمر الرسول هل يحول بينى وبين المسلمين ماء ؟ قال نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل ، فكتب عمر إلى عمرو إنى لا أحب أن تنزل المسلمين منزلا يحول الماء بينى وبينهم فى شتاء ولا صيف، فتحول عمرو بن العاص من الاسكندرية إلى الفسطاط » . وقيل أيضاً[٥] : « إن عمر

---

(١) Lane-Poole: *A History of Egypt in the Middle Ages*, p. 40.

(٢) *Ibid.*, p. 42.

(٣) بطلر : فتح العرب لمصر ص ٢٤٩ .

(٤) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٥٧ .

(٥) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٥٧ .

ابن الخطاب كتب إلى سعد بن أبي وقاص وهو نازل مدائن كسرى وإلى عامله بالبصرة وإلى عمرو بن العاص وهو نازل بالاسكندرية أن لا تجعلوا بيني وبينكم ماء متى أردت أن أركب إليكم راحلتي حتى أقدم عليكم قدمت . فتحول سعد من مدائن كسرى إلى الكوفة وتحول صاحب البصرة من المكان الذى كان فيه فنزل البصرة وتحول عمرو بن العاص من الاسكندرية إلى الفسطاط » .

ويقال إن سبب تسميتها بالفسطاط أن عمرو بن العاص كان قد أقام فسطاطه إلى الشمال من حصن بابليون عند الحصار . وبعد أن سلمت حامية الحصن وأراد السير إلى الاسكندرية أمر بتقويض فسطاطه ولكنه علم أن يمامة قد باضت عليه ويقال وأفرخت صغاراً فلم يرد أن يزعجها وأمر بأن يبقى الفسطاط كما هو وقال : لقد تحرمت بجوارنا ، وسار إلى الاسكندرية وبعد فتحها فكر فى اتخاذ عاصمة له فى مصر واختار مكان الفسطاط موضعاً للعاصمة الجديدة وسميت لذلك الفسطاط[1] . وقد ذكر بطلر[2] تلك الرواية وقال عنها «وإنا لنتبين فى تلك الرواية صورة الحقيقة والصدق فقد كان الجوار والاعتصام به مقدساً عند المسلمين ولو كان المستجير عدواً » .

ويقول ابن قتيبة إن العرب تقول لكل مدينة فسطاط ولذلك قيل لمصر فسطاط[3] .

وهناك من يذكر أن فسطاط مأخوذة من كلمة Fossatum اللاتينية المأخوذة عن كلمة أخرى يونانية قريبة منها . إذ أن العرب سمعوا تلك الكلمة عند اتصالهم بالروم فى بلاد الشام لأن هؤلاء كانوا قد أطلقوها على عدة مدن هناك . ولا يبعد أن يكون الروم الذين كانوا فى حصن بابليون

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ١ ص ٥٧ .

(٢) فتح العرب لمصر ص ٢٠٨ .

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٥٧ .

قد أطلقوا هذا اللفظ على المكان الذى كان يعسكر فيه العرب أمام الحصن[١] .

وقد بنيت الفسطاط فى الفضاء الواقع شمال حصن بابليون وكان عبارة عن صحراء وحقول منزرعة تمتد من النيل حتى جبل المقطم ولم يكن فيها أبنية اللهم إلا القلعة التى تسمى قصر الشمع والمعلقة ، وكان من عادة حاكم مصر فى عهد القياصرة أن يقيم هناك عند مجيئه من الاسكندرية[٢] .

ومن أتم المبانى التى أقيمت فى الفسطاط مسجد عمرو بن العاص المشهور والذى كان يسمى المسجد العتيق وتاج الجوامع[٣] . وكان فى بادىء الأمر عبارة عن بناء بسيط لا يزيد طول قاعدته على خمسين ذراعاً ولا يزيد عرضها على ثلاثين ذراعاً وكان سقفه منخفضاً ولم يكن له صحن ولا محراب مجوف . وقد قيل [٤] إن عمرو بن العاص اتخذ به منبراً ولكن « عمر بن الخطاب لما علم بذلك كتب إلى عمرو : أما بعد فإنه بلغنى أنك اتخذت منبراً ترقى به على رقاب المسلمين أما حسبك أن تقوم قائماً والمسلمون تحت عقبيك فعزمت عليك إلا ما كسرته » . وقد طرأت على هذا الجامع تغييرات كثيرة إذ هدمه مسلمة بن مخلد سنة ٥٣ هـ ( ٦٧٣ م ) وبناه من جديد وبنى له منارة وكتب عليها اسمه كما أن عبد العزيز بن مروان هدمه سنة ٧٧ هـ وبناه ووسعه من ناحية الغرب وأضاف إليه رحبة فسيحة من ناحية الشمال[٥] . وبعد ذلك أمر الوليد بن عبد الملك واليه على مصر قرة بن شريك سنة ٩٢ هـ ( ٧١١م) فهدمه كله وبناه من جديد[٦] . وبعد ذلك تتابعت التغييرات على هذا الجامع فزاد فى مؤخرته موسى بن عيسى سنة ١٧٥ هـ وزاد فى عرضه عبد الله

---

(١) بطلر : فتح العرب لمصر ص ٢٤٩ — ٢٥٠ .

(٢) Lane-Poole: *A History of Egypt in the Middle Ages*, p. 17.

(٣) ابن دقاق : الانتصار جـ ٤ ص ٥٩ .

(٤) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٥٨ .

(٥) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٥٨ .

(٦) بطلر : فتح العرب لمصر ص ٢٥٢ .

ابن طاهر سنة ٢١٣ هـ بأمر المأمون وأدخل فيه دوراً[١] . وبذلك أصبح هذا الجامع وليس فيه من أصله القديم شيء اللهم إلا اسمه .

وقد اختط الناس حول المسجد الدور وأخذت الفسطاط تتسع ويعظم شأنها ويزداد عمرانها بسرعة غريبة . وقد قيل إن الفسطاط فى عهد عمرو ابن العاص نفسه بنيت فيها دور ضخمة يشتمل بعضها على أربع طبقات أو خمس وكان يسكن فى بعضها نحو مائتى فرد وقد جعل خارجة بن حذافة لداره مشربة ولكن عمر بن الخطاب أمر بإزالتها لأنها تساعد صاحبها على كشف عورات جيرانه . وكذلك أقيمت فى الفسطاط حمامات ولكنها كانت ضئيلة بالنسبة للحمامات الضخمة الرومانية وأقيمت بها أيضاً مقبرة دفن فيها فيما بعد عمرو بن العاص وأربعة من الصحابة[٢] .

بعض العواصم فى وجود الفسطاط :

وظلت الفسطاط عاصمة لمصر فى معظم فترة حكم الولاة وحتى بنيت القاهرة فى عهد الفاطميين فيما بعد . وبعد هذا ظلت مركزاً تجارياً هاماً حتى أحرقت عند غزو الملك الصليبى أملريك سنة ١١٦٨ م[٣] . ولكن الولاة تركوا الفسطاط أحياناً وأخذوا مراكز حكومتهم فى غيرها . ويقال إن بعض الولاة فى العهد الأموى اتخذوا الاسكندرية عاصمة لهم وتركوا نواباً عنهم فى الفسطاط كما يقال إن عبد العزيز بن مروان مرض بالجذام فترك الفسطاط بنصيحة أطبائه وذهب إلى حلوان ونقل إليها بيت الامارة ثم وصل إليها الماء على قنطرة معلقة من العيون القريبة من المقطم وزرع بها النخيل وبنى المبانى الفخمة . وهناك من يقول[٤] إن عبد العزيز ترك

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٥٨ .

(٢) بطلر : فتح العرب لمصر ص ٢٥٣ .

(٣) Lane-Poole: *A History of Egypt in the Middle Ages*, p. 17.

(٤) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٦ .

الفسطاط عند ما وقع بها الطاعون . وبعد زوال الدولة الأموية ومجىء صالح بن على العباسى مقتفياً أثر مروان الثانى عسكر صالح إلى الشمال من الفسطاط فى مكان يطلق عليه اسم الحمراء القصوى وبعده بنى أبو عون مدينة العسكر ثم فى عهد الفضل بن صالح بنى مسجد العسكر سنة ١٦٩ هـ . وأخذت العسكر تتسع شيئاً فشيئاً وبنى الولاة قصراً على المقطم يسمى قبة الهواء كان فى سطح الجرف الذى عليه قلعة الجبل[١] وكانوا يتوجهون إليه ليتمتعوا بطيب الهواء .

## (٣) العلاقات الخارجية

مع بلاد المغرب :

حرص ولاة مصر فى تلك الفترة مثل غيرهم ممن حكموا مصر من قديم الزمن على تأمينها من جميع النواحى . ولذلك نجدهم منذ عهد عمرو بن العاص يفتحون برقة ( انطابلس ) وطرابلس الغرب . وقد قيل[٢] إن لواته كانت تسكن انطابلس وأن عمرو بن العاص صالحهم على ثلاثة عشر ألف دينار يؤدونها إليه جزية « على أن يبيعوا من أحبوا من أبنائهم فى جزيتهم » كما قيل إن العرب فتحوا أيضاً طرابلس بعد حصار دام عدة أسابيع ثم فتحوا بعد ذلك مدينة سبرة وهى الآن تسمى زرارة ونهبوها وأن عمرو بن العاص بعد أن تلقى خضوع قبيلة لواتة فى برقة رجع إلى مصر ومعه عدد عظيم من الأسرى ومقدار كبير من الغنائم[٣] وقيل أيضاً[٤] إن عمرو بن العاص وجه عقبة بن نافع « حتى بلغ زويلة فصار ما بين برقة وزويلة للمسلمين » .

---

(١) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٨ هامش ٢ .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٦٣ ؛ وبطلر : فتح العرب لمصر ص ٣١٤ .

(٣) بطلر : فتح العرب لمصر ص ٣١٤ — ٣١٥ .

(٤) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٦٣ .

مع بلاد النوبة :

وقد اهتموا أيضاً منذ عهد عمرو بن العاص ببلاد النوبة فى الجنوب . ومع أن عمرو بن العاص لم يستطع أن يفعل شيئاً إزاء مقاومة النوبة فإن خليفته عبد الله بن سعد بن أبى سرح غزا النوبة فى خلافة عثمان سنة ٣١ هـ (٦٥٢ م) ووصل إلى دنقلة ، وعقد هدنة مع ملك النوبة المسمى على بابا عرفت باسم البقط وكانت أشبه ما تكون بمعاهدة سياسية تجارية فى رمضان سنة ٣١ هـ (مايو — يونيه سنه ٦٥٢) ويتعهد فيها الطرفان بألا يذهب منهم أحد إلى بلد الآخر بقصد الاستقرار وبالمحافظة على من يذهب لأغراض أخرى وبرد العبيد الفارين وعدم السماح للأعداء بالبقاء وعدم التعدى بعضهم على بعض وتعهد أهل النوبة بتقديم ثلثمائة وستين عبداً متوسطى السن خالين من العيوب نساءاً ورجالا كل سنة إلى حاكم أسوان المسلم[١] وأن تؤدى مصر إلى النوبة قدراً معيناً من القمح والشعير والعدس والثياب وغيرها من منتجات مصر . وقد ظلت هذه الجزية من العبيد تدفع إلى حكام مصر حتى عهد المماليك . وقد اختلف المؤرخون فى تحديد معنى البقط فالمقريزى فى الخطط يقول : « إن البقط ما يقبض من سبى النوبة كل عام ويحمل إلى مصر ضريبة عليهم » ويذكر أن معنى بقط فى العربية بعض الشىء أو قطعة منه وما سقط من التمر إذا قطع . وتقول سيدة الكاشف[٢] إن الأرجح أن تكون كلمة بقط مأخوذة من كلمة Pactum اللاتينية ومعناها عقد أو اتفاق . وقد قيل إنها مصرية قديمة بمعنى عبد . وربما قوى هذا الرأى أن البيزنطيين كانوا يحكمون مصر قبل العرب وكانوا يجاورون بلاد النوبة ويبرمون معها المعاهدات ولا يبعد أن يكون العرب قد استعملوا

---

(١) Lane-Poole: *A History of Egypt in the Middle Ages.*, pp. 21-23.
والسيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٦٢ .

(٢) سيدة الكاشف : مصر فى فجر الإسلام ص ١٥ — ١٦ .

هذه الكلمة طبقاً لما كان متبعاً من قبل مع البيزنطيين ولكن بعد التحريف الواضح .

مع الروم :

وقد تعرضت مصر من ناحية الشمال لغارات الروم المتوالية : ولذلك اهتم الولاة فى تلك الفترة بتأمينها من هذه الناحية ووضعوا حامية قوية فى الاسكندرية وجروا منذ عهد عمر على سنة تغيير أفراد تلك الحامية كل ستة شهور حتى لا يتطرق الملل أو الكسل إلى نفوس أفرادها . وقد حدث فى ولاية عبد الله بن سعد بن أبى سرح أن أتى أسطول تبلغ سفنه حوالى سبعمائة سفينة وقيل ألف سفينة وهدد مصر من ناحية الشمال ولكن أسطول والى مصر وكان يبلغ حوالى مائتى سفينة استطاع أن يلتقى به فى مياه البحر الأبيض سنة ٣٥ هـ ( ٦٥٥ م ) وأن يهزمه فى موقعة ذات الصوارى التى سميت بذلك لكثرة صوارى السفن التى اشتركت فيها[١] . ويقال إن سفن المسلمين التحمت بالأسطول المعادى وبعد تلاحم بالسهام والحجارة اقتربت السفن بعضها من بعض ودارت بين الطرفين معركة حامية بالسيوف واضطر الرومان أن يفروا[٢] . ويختلف المؤرخون فى تحديد المكان الذى وقعت فيه هذه الموقعة البحرية فسيدة الكاشف ترى أنها وقعت بالقرب من ثغر فونيكة غربى الاسكندرية ولذلك سميت فى الكتب الأوربية موقعة Phoenicus فى حين يرى بعض المستشرقين أنها حدثت جنوبى آسيا الصغرى بجوار ثغر Phoenix[٣] .

وقد نزل الروم بالبرلس سنة ٥٣ هـ فى إمرة مسلمة بن مخلد . وخرج

---

(١) ابن عبد الحكم فتوح مصر ( طبعة تورى ) ص ١٨٩ — ١٩٠ والكندى ، الولاة والقضاة ص ١٣ .

(٢) المقريزى ، الخطط ج ١ ص ١٦٩ .

و Lane-Poole: *A History of Egypt in the Middle Ages*, p. 23.

(٣) سيدة الكاشف ، مصر فى فجر الإسلام ص ٦٤ .

المسلمون إليهم براً وبحراً واستشهد فى تلك الغزوة وردان مولى عمرو بن العاص[١]. ثم نزل الروم بدمياط سنة ٩٠هـ[٢] ونزلوا بتنيس سنة ١٠١هـ[٣] ونزلوا بدمياط مرة أخرى سنة ١٢١ هـ فى ثلثمائة وستين مركباً وقتلوا وسبوا[٤] وفى ولاية عنبسة بن إسحق على مصر ( ٢٣٨ — ٢٤٢ هـ ) أقبل الروم من البحر فى ثلاثمائة سفينة وكبسوا دمياط وسبوا وأحرقوا وأسرعوا فى الإنسحاب حتى أن عنبسة عند ما سار لصدهم لم يجدهم ، ويقال إنهم سبوا ستمائة امرأة وأخذوا من الأمتعة والأسلحة شيئاً كثيراً . وقد فر الناس منهم فى كل جهة فكان من غرق فى بحيرة تنيس أكثر ممن أسر[٥] ؛ وعلى أثر تلك الغارة بنيت الحصون فى دمياط وتنيس والفرما بأمر الخليفة المتوكل وأنفقت فى ذلك الأموال العظيمة[٦] .

(١) الكندى ، الولاة والقضاة ص ٣٨ .

(٢) المقريزى ، الخطط جـ ٢ ص ٢١٤ .

(٣) الكندى ، الولاة والقضاة ص ٧٠ .

(٤) المقريزى ، الخطط جـ ١ ص ٢١٤ .

(٥) السيوطى جـ ٢ ص ١٤٨ .

(٦) الكندى ، الولاة والقضاة ص ٢٠١ — ٢٠٢ .

# الفصل الثالث

## الحالة الاقتصادية

## فى فترة حكم الولاة

لم يهمل ولاة مصر فى ذلك الوقت شئون مصر الاقتصادية على اختلافها على الرغم من حداثة الحكم العربى وما نعرفه عن العرب من احتقار للحرف والصناعات .

### ١ — الزراعة :

ونحن نجد أن العرب عنوا بالزراعة منذ قيام حكومتهم فى مصر واهتموا بشئون الرى . وهذا عمرو بن العاص يؤلف فرقة من المصريين عددها مائة وعشرون ألف عامل مهمتها الأولى العمل فى حفر القنوات وإقامة الجسور والقناطر(١) . ويقيم أيضاً مقاييس النيل بحلوان وأسوان ودندرة لتكون معياراً صادقاً للزراعة والرى والضرائب فى كل عام .

وبعد عمرو بن العاص سار الولاة على نهجه فى تشجيع الزراعة والعناية بشئون الرى وهذا مسلمة بن مخلد ومن بعده عبد العزيز بن مروان ثم موسى ابن عيسى كل منهم قد حذا حذو عمرو بن العاص وفعل مثل فعله . فمسلمة ابن مخلد أقام مقياساً فى جزيرة الروضة وعبد العزيز بن مروان بنى مقياساً صغيراً بحلوان التى اتخذها عاصمة للديار المصرية وأسامة بن زيد التنوخى عامل الخراج بمصر فى خلافة الوليد بن عبد الملك أقام مقياساً كبيراً

---

(١) السيوطى ، حسن المحاضرة جـ ١ ص ٦٣ .
و Lane-Poole: *A History of Egypt in the Middle Ages*, p. 20.

بالروضة سنة ٩٧ هـ[١] .

ولم تهمل حكومة مصر فى ذلك العهد العمل على تشجيع زراعة الأرض وتحسين إنتاجها ، ويدل على ذلك أننا نرى فى عقود إيجار الأراضى فى ذلك العهد أن المؤجر يشترط على المستأجر شرطاً هذا نصه « وما بورت فعليك خراجه »[٢] .

ومن أهم محصولات مصر فى ذلك العهد الحبوب وبخاصة القمح والخضروات والفاكهة والكتان وقصب السكر ويعزى إلى الإمام الشافعى الذى عاش فى مصر فى أواخر القرن الثانى للهجرة أنه قال « لولا قصب السكر ما أقمت بمصر »[٣] .

٢ — الصناعة :

وقد كانت الصناعة أيضاً محل عناية الولاة العرب فى مصر على اختلاف فروعها . فصناعة البناء العريقة فى مصر لم تحرم من عناية العرب . وقد كان لإقامتهم بعض المنشآت أثر فى تقدمها وصبغها بصبغة إسلامية جديدة . ومن هذه المنشآت بعض القصور التى شيدوها فى الفسطاط مثل قصر الجن الذى بناه عبد الله بن سعد فى خلافة عثمان[٤] ومثل الدار البيضاء التى أقامها الخليفة مروان بن الحكم عند وجوده فى مصر[٥] ومثل الدار المذهبة التى بناها عبد العزيز بن مروان سنة ٦٧ هـ غربى المسجد الجامع وكانت تدعى لعظمتها وفخامتها المدينة[٦] . هذا إلى الاهتمام بعمارة جامع عمرو بن العاص

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ص ١٥ .

(٢) سيدة الكاشف ، مصر فى فجر الإسلام ص ٢٧١ .

(٣) السيوطى ، حسن المحاضرة جـ ٢ فصل ذكر الفواكه .

(٤) ابن عبد الحكم ، طبعة تورى ص ١١٠ .

(٥) الكندى ، الولاة والقضاة ص ٤٥ .

(٦) شرحه ص ٤٩ .

طوال هذه الفترة وبناء المساجد والدور فى حلوان عند ما اتخذها عبد العزيز ابن مروان عاصمة له[١] وقد اختط العباسيون مدينة العسكر وبنوا فيها الجامع أيضاً على ما بينا فيما سبق عند الكلام على العواصم . ولم يقف العمران فى المدن المصرية الأصلية مثل الاسكندرية ورشيد ودمياط وتنيس ويدل على ازدياد عمران تلك المدن ما ذكر عن تنيس إذ قيل إنها « كان لا يزال بها إلى القرن العاشر [ الميلادى طبعاً وهو يقابل الرابع الهجرى ] آثار قديمة سوى ما كان بها من المساجد وعدتها مائة وستون تزين كلا منها مئذنة عالية ثم ما كان بها من الكنائس وعدتها اثنتان وسبعون كنيسة . وكان بها من الحمامات ستة وثلاثون وكانت لها أسوار حصينة فيها تسعة عشر باباً مصفحة بالحديد الثقيل ... »[٢] .

وظلت صناعة المنسوجات فى هذه الفترة من الحكم العربى على ما كانت عليه فى مصر قبل الفتح العربى . وكانت مصر مشهورة بنسج الكتان لوفرة زراعته . وكذلك كانت تصنع فيها المنسوجات الصوفية والقطنية والحريرية وكانت المنسوجات الصوفية كثيرة فى مصر مثل المنسوجات الكتانية . ومن أشهر مراكز صناعة المنسوجات فى مصر فى هذا العهد تنيس ودميرة ودبيق وشطا ودمياط والاسكندرية وهى فى مصر السفلى وأهناس ومدينة البهنسا والأشمونين وأسيوط وإخميم وهى فى الوجه القبلى . وقد بلغت تلك المنسوجات حداً كبيراً من الدقة والجودة ويدل على ذلك أن تنيس ودمياط كانتا تستطيعان أن تخرجا أثواباً من الكتان النقى يبلغ ثمن الثوب منها مائة دينار أى خمسين جنيهاً مصرياً تقريباً[٣] . وكان الخلفاء يشجعون المنسوجات المصرية وكثيراً ما يستعملونها لملابسهم أو للخلع التى كانوا

---

(١) سعيد بن البطريق ، التاريخ المجموع جـ ٢ ص ٤٠ .

(٢) بطلر ، فتح العرب لمصر ص ٢٥٨ .

(٣) شرحه ص ٢٥٨ .

يخلعونها على كبار رجال دولتهم . وقد ذكر المؤرخون أن معاوية بن أبي سفيان لما كبرت سنه كان لا يدفأ فاتفقوا أنه لا يدفئه إلا الأكسية التي تعمل بمصر من صوفها المرعز فعمل له منها عدد فما احتاج منها إلا إلى واحد[1] وكذلك كان الخلفاء يتخذون كسوة الكعبة من المنسوجات الفاخرة التي كانت تصنع في مصر وقد قيل[2] إن عمر بن الخطاب كسا الكعبة القباطي من بيت المال وكان يكتب إلى مصر لتصنع له فيها وكذلك فعل عثمان من بعده . ولما كان عهد معاوية بن أبي سفيان كساها كسوتين كسوة عمر القباطي وكسوة ديباج فكانت تكسى الديباج يوم عاشوراء وتكسى القباطي في آخر شهر رمضان . وقد كانت هذه المنسوجات وبخاصة التي تصنع للخلفاء عظيمة القيمة ويدل على ذلك ما ذكره المسعودي في تاريخه من أن ثوباً صنع في أحد مراكز صناعة المنسوجات بمصر وكان هذا الثوب من عرض واحد ومع ذلك بلغ ثمنه ألف دينار لأنه كان منسوجاً من خيوط الذهب مخلوطة باليسير من دقيق الكتان[3] .

وكانت مصر طوال فترة حكم الولاة تقريباً تكاد تحتكر صناعة الورق المتخذ من البردي الذي كان يكثر بها وخاصة في مستنقعات الدلتا والفيوم وكانت مراكز هذه الصناعة قرب دمياط ورشيد . ويذكر ابن الفقيه[4] في أواخر القرن الثالث الهجري أن لأهل مصر القراطيس التي لا يشركهم فيها أحد ويذكر اليعقوبي[5] أن القراطيس كانت تصنع في بورة وهي حصن على ساحل البحر من عمل دمياط وفي مدينة أخنيو وهي على ساحل البحر غربي فرع رشيد ويقال لها وسيمة .

(١) المقريزي ، الخطط ج ١ ص ٢٠٤ .

(٢) الأزرقي ، أخبار مكة ج ١ ص ١٦٨ و ١٦٩ .

(٣) بطلر ، فتح العرب لمصر ص ٢٥٨ .

(٤) مختصر كتاب البلدان ص ٦٦ .

(٥) البلدان ص ٣٣٨ .

ومن أهم الصناعات التي لقيت الكثير من تشجيع العرب صناعة السفن ويقال إن مسلمة بن مخلد أقام في جزيرة الروضة بجانب المقياس الذي أقامه داراً للصناعة كانت تصنع بها السفن الحربية . وقد أظهرت أوراق البردي العربية التي ترجع إلى عصر الوليد بن عبد الملك أن صناعة السفن كانت زاهرة بوادي النيل في جزيرة الروضة وفي القلزم وفي الاسكندرية[١] . وكذلك ظلت صناعة السفن الحربية في مصر زاهرة في العصر العباسي ويدل على ذلك ما ذكره المقريزي[٢] من أنه بعد أن نزل الروم دمياط في سنة ٢٣٨ هـ في ولاية عنبسة بن اسحق على مصر « وقع الاهتمام في ذلك الوقت بأمر الأسطول وأنشئت الشواني برسم الأسطول وجعلت الأرزاق لغزاة البحر كما هي لغزاة البر وانتدب الأمراء له الرماة فاجتهد الناس بمصر في تعليم أولادهم الرماية وجميع أنواع المحاربة ، وانتخب له القواد العارفون بمحاربة العدو ، وكان لا ينزل في رجال الأسطول غشيم ولا جاهل بأمور الحرب . هذا وللناس إذ ذاك رغبة في جهاد أعداء الله وإقامة دينه . لا جرم أنه كان لخدام الأسطول حرمة ومكانة . ولكل واحد من الناس رغبة في أنه يعد في جملتهم فيسعى بالوسائل حتى يستقر فيه وكان من غزو الأسطول بلاد العدو ما قد شحنت به كتب التاريخ . فكانت الحرب بين المسلمين والروم سجالا ينال المسلمون من العدو وينال العدو منهم ويأسر بعضهم بعضاً لكثرة هجوم أساطيل الإسلام بلاد العدو فإنها كانت تسير من مصر والشام ومن إفريقية » . ولابد أن المصريين كانوا يصنعون سفناً نيلية تجارية وسفناً بحرية معدة للتجارة الخارجية لأن الحكومة التي كانت تعني بغرس أشجار السنط في مختلف أنحاء البلاد لصناعة السفن الحربية كانت تبيع قرظ السنط وتصنع من ثمنه مراكب تباع للناس[٣] .

(١) Bell: *Der Islam,* vol. II, pp. 277, 280, vol. IV, p. 92.

(٢) المقريزي ، الخطط ج ٢ ص ١٩١ .

(٣) شرحه ج ١ ص ١١٠ — ١١١ .

ويلاحظ أن الصناعات على اختلافها فى مصر فى فترة حكم الولاة كان يقوم بها أولا القبط ثم أصبح أغلب الذين يقومون بها من أهل مصر الذين بقوا على دينهم والذين أسلموا لأن العرب كانوا فى بادىء الأمر بيدهم السياسة والحكم والحرب . وحتى بعد أن بدأ العرب يختلطون بالأهالى ، ويملكون الأراضى ويشتغلون بالزراعة منذ أوائل القرن الثانى الهجرى لم يصبحوا الأغلبية بين الصناع فى مصر ولا شك أن كثيراً منهم اشتغلوا بالصناعة وخاصة بعد أن أمر الخليفة المعتصم بإسقاطهم من الديوان ولكن المصريين كان لهم الغلبة والكثرة العددية على إخوانهم من العرب[1] » .

٣ — التجارة :

لقيت التجارة أيضاً فى مصر فى فترة حكم الولاة العناية اللازمة وأهم ما قاموا به فى هذه الناحية تجديد حفر القناة التى كانت توصل بين النيل والبحر الأحمر ، والتى سميت خليج أمير المؤمنين وقيل إنها حفرت برأى وأمر عمر بن الخطاب على أثر الشدة التى قاساها أهل الحجاز فى عام الرمادة ، وقد تم حفرها فى ستة أشهر وقيل فيما لا يتجاوز السنة وذلك سنة ٢٣ هـ ( ٦٤١ — ٢ م ) فى ولاية عمرو بن العاص ، وكانت تخرج من النيل إلى شمال بابليون بقليل وتمر بمدينة عين شمس ثم تسير فى وادى الطميلات إلى موضع القنطرة حتى تتصل بالبحر الأحمر عند القلزم وكان طول مجراها تسعين ميلا . وقد حققت الغرض المقصود منها وسارت فيها الميرة إلى الحجاز[2] . ولا شك أن حفر هذه القناة سهل النقل بين مصر وغيرها من أقاليم شرق إفريقية والأقاليم الأسيوية وبذلك

---

(١) سيدة الكاشف ، مصر فى فجر الإسلام ص ٢٧٣ .

(٢) السيوطى ، حسن المحاضرة جـ ١ ص ٦٨ وبطلر ، فتح العرب لمصر ص ٢٥٤ و ٢٥٥ .

استفادت التجارة فائدة كبيرة وقد قيل إن السفن كانت تسير فى هذه القناة إلى البحر الأحمر وتمر إلى الحجاز واليمن والهند[١] ، ويقال إن هذه القناة أهملت بعد عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز فغلب عليها الرمل وصار منتهاها عند ذنب بحيرة التمساح[٢] ؛ كما يقال إن الخليفة المنصور العباسى عندما ثار عليه محمد النفس الزكية فى الحجاز أمر بردمها حتى لا تحمل فيها الميرة من مصر إلى المدينة[٣] .

ومما يدل على اهتمام المسلمين بشئون التجارة أنهم فكروا فيما سمى بعد ذلك قناة السويس وقد قيل إن عمرو بن العاص ومن بعده هرون الرشيد فكرا فى توصيل البحر الأحمر بالبحر الأبيض بقناة ولكن عمر بن الخطاب لم يوافق عمرو على ذلك لأنه يمكن الروم من قطع الحج كما أن يحيى بن خالد البرمكى أقنع الرشيد بالعدول عن هذه الفكرة حتى لا تكون المدينة المنورة تحت رحمة الفرنجة[٤] .

وقد تقدمت التجارة من جراء هذا الاهتمام تقدماً عظيما ويدل على ذلك ما يقال من أن تجارة تنيس مع العراق وحده بلغت من عشرين ألف دينار إلى ثلاثين ألفاً فى السنة الواحدة[٥] . وحتى بعد أن أهملت القناة كانت التجارة تمر بمصر أيضاً فكان التجار ينزلون فى الفرما ويسيرون إلى القلزم ثم ينزلون فى البحر الأحمر . ولم يكونوا يذهبون بكثرة عن طريق النيل حتى يصلوا قوص ثم يعبروا الصحراء الشرقية إلى عيذاب الواقعة على البحر الأحمر والتى كانت ميناء تجارياً هاماً[٦] . وقد كانت الاسكندرية

---

(١) المقريزى ، الخطط ج ٢ ص ١٤٣ .

(٢) السيوطى ، حسن المحاضرة ج ١ ص ٦٨ .

(٣) المقريزى ، الخطط ج ٢ ص ١٣٩ .

(٤) المسعودى ، مروج الذهب طبعة أوربا ج ٤ ص ٥٨ — ٩٩ وبطلر فتح العرب لمصر ص ٢٥٥ .

(٥) بطلر ، فتح العرب لمصر ص ٢٥٨ .

(٦) اليعقوبى ، كتاب البلدان ص ٣٣٥ والخطط ج ١ ص ٢٠٢ .

لا تزال فى هذه الفترة تحتفظ بأهميتها التجارية وكانت على اتصال بأوروبا[١].
وكذلك كانت هناك علاقات تجارية بين مصر وبلاد النوبة والحبشة وأواسط
إفريقية وكانت تصل حاصلات تلك البلاد إلى مصر عن طريق النيل أو عن
طريق البحر الأحمر[٢].

وبما يدل على أن العرب كانوا يشجعون التجارة أنهم لم يسرفوا فى فرض
الضرائب على التجار. وقد أثر عن زريق بن حيان الذى كان على مكس
مصر زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز أنه قال: «إن الخليفة كتب إليه أن
يراقب من مر عليه من المسلمين فيأخذ مما ظهر من أموالهم وما ظهر له من
التجارات من كل أربعين ديناراً ديناراً وما نقص بحسابه حتى تبلغ عشرين
ديناراً فإن نقصت عن ذلك تركها ولا يأخذ منها شيئاً وإذا مر عليه أهل
الذمة أخذ منهم من كل عشرين ديناراً ديناراً وما نقص فبحسابه ذلك حتى
تبلغ تجاراتهم عشرة دنانير فإن نقصت عن ذلك لا يأخذ منها شيئاً. وألا
يأخذ من التجار مرة أخرى قبل انقضاء العام. وأن يكتب لهم كتاباً بما
أخذ منهم»[٣]. وهذه معاملة سخية تفضل كثيراً معاملة الحكومات للتجار
فى زمننا.

ويلاحظ أن العملة التى كانت مستعملة فى مصر منذ الفتح حتى قيام
الدولة الطولونية كانت هى العملة المستعملة فى الدولة الإسلامية عامة. وقد
كانت فى بادىء الأمر هى العملة الأجنبية ومنها الدينار الرومى Solidi
والدرهم الفضى الفارسى وبجانبها العملة الإسلامية. وتذكر كتب التاريخ أن
عمر بن الخطاب ضرب الدراهم على نقش الفارسية وشكلها غير أنه زاد فى
بعضها «الحمد لله» وفى بعضها «محمد رسول الله» وفى بعضها «لا إله إلا الله

---

(١) Heyd: *Histoire du Commerce*, Tome I, p. 41.

(٢) سيدة الكاشف، مصر فى فجر الإسلام ص ٢١٢.

(٣) المقريزى، الخطط ج ٢ ص ١٢٢.

وحده ، وأن عثمان بن عفان ضرب دراهم ونقش عليها « الله أكبر » وأن معاوية سك دراهم ودنانير وأن عبد الله بن الزبير وأخاه مصعب سكا دراهم مستديرة[١] . على أن ما جاء فى هذه الكتب لا يدل على أن هذه الدراهم والدنانير الإسلامية قد أصبحت تستعمل من دون النقود الأجنبية فى الدولة الإسلامية . وقد حدث التغيير الكبير فى عهد عبد الملك بن مروان سنة ٦٧ هـ إذ أنه وحد العملة فى جميع ولايات الدولة الإسلامية وجعلها على وزن واحد[٢] . كما استغنى عن النقود الأجنبية وذلك بمشورة خالد ابن يزيد بن معاوية .

---

(١) المقريزى ، النقود الإسلامية ص ٤ — ٦ والمقريزى ، إغاثة الأمة ص ٥١ — ٥٣ .

(٢) الأب انستاس الكرملى ، النقود العربية ص ٣٤ — ٣٩ .

# الفصل الرابع

## الحـــالة الإجتماعية

## فى فترة حكم الولادة

نستطيع أن نقول إن سكان مصر فى تلك الفترة كانوا عبارة عن طبقتين متميزتين إحداهما تشمل العرب الفاتحين والأخرى تشمل القبط أصحاب البلاد الأصليين .

### ١ — حالة العرب :

أما العرب فقد أتوا إلى مصر جنوداً فاتحين وكان عددهم قليلا فى بادىء الأمر لا يزيد على بضعة آلاف . وقد أقاموا فى الفسطاط وفى المدن الكبرى الأخرى لحفظ الأمن والنظام فى البلاد . وكانوا يعيشون على العطاء الذى تصرفه الحكومة لهم ، وقد قيل إن عمر بن الخطاب كتب إلى عمرو بن العاص « أنظر من قبلك ممن بايع تحت الشجرة فأتم لهم العطاء مائتين وأتمها لنفسك لامرتك وأتمها لخارجة بن حذافة لشجاعته ولعثمان بن أبى العاص لضيافته »[1] ، وكان العرب فى وقت الربيع فقط ينزلون إلى الريف لترويض خيولهم وإطعامها ثم يعودون بعد ذلك إلى مدنهم « وكان عمرو يقول للناس إذا قفلوا من غزوهم أنه قد حضر الربيع فمن أحب منكم أن يخرج بفرسه يربعه فليفعل ولا أعلمن ما جاء رجل قد أسمن نفسه وأهزل فرسه فإذا حمض اللبن وكثر الذباب وقوى العود فارجعوا إلى قيروانكم »[2] .

---

(١) السيوطى ، حسن المحاضرة جـ ١ ص ٦٥ .

(٢) السيوطى ، حسن المحاضرة جـ ١ ص ٦٧ .

وبالاختصار كان العرب يعيشون كما أشار إلى ذلك عمرو بن العاص فى إحدى خطبه فى رباط . وذلك لأن مصر غنية وغيرها دائماً يطمع فيها ولابد لمن يريد المحافظة عليها أن يحتفظ بجيش قوى يرد عنها العدوان . وقد جاء فى ذلك أن عمرو بن العاص قال فى خطبة له : « واعلموا أنكم فى رباط إلى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم وتشوف قلوبهم إليكم وإلى دياركم معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية حدثنى عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جنداً كثيفاً فذلك الجند خير أجناد الأرض فقال له أبو بكر ولم يارسول الله . قال لأنهم وأزواجهم فى رباط إلى يوم القيامة »[1] .

**ازدياد عدد العرب :**

وقد أخذ العرب يزدادون شيئاً فشيئاً . وفى عهد معاوية كان عددهم حوالى أربعين ألفاً[2] . وكانت حامية الإسكندرية وحدها فى عهد معاوية تبلغ سبعة وعشرين ألفاً[3] فقد ذكر : « أن عتبة بن أبى سفيان عقد لعلقمة بن يزيد الغطيفى على الاسكندرية وبعث معه اثنى عشر ألفاً فكتب علقمة إلى معاوية يشكو عتبة حين غدر به وبمن معه فكتب إليه معاوية إنى قد أمددتك بعشرة آلاف من أهل الشام وبخمسة آلاف من أهل المدينة فكان فيها سبعة وعشرون ألفاً » . وفى عهد هشام بن عبد الملك جاءت عدة بيوت من قبيلة قيس وأنزلها عبيد الله بن الحبحاب عامل الخراج فى منطقة الحوف الشرقى إلى الشمال الشرقى من الفسطاط . وأخذ هؤلاء يشتغلون بالزراعة ويربون الخيل ويتاجرون فيها . وبذلك بدأ العرب يشتغلون بغير

---

(١) السيوطى ، حسن المحاضرة جـ ١ ص ٦٧ .

(٢) شرحه ص ٦٥ .

(٣) شرحه ص ٧١ .

أعمال الحرب ويقتربون من المصريين وأخذوا يتزوجون منهم . وفى القرن الثالث الهجرى ( التاسع الميلادى ) جاءت قبيلة الكنز وهى إحدى بطون ربيعه ونزلت بالصعيد . ويلاحظ أيضاً أن الولاة العديدين الذين كانوا يفدون إلى مصر كانت تصاحبهم حاميات كبيرة بلغت أحياناً ستة آلاف وأحياناً عشرة آلاف بل وعشرين ألفاً وكان بعض أفراد هذه الحاميات يبقون فى مصر بعد عزل الولاة وبذلك كثر العرب إلى حد كبير(١).

وبعد أن أمر المعتصم سنة ٢١٨ هـ واليه على مصر كيدر بن نصر بن عبد الله بإسقاط العرب من ديوان العطاء وقطع أرزاقهم وأمر بقيد الترك فى مكانهم اضطر العرب نهائياً أن يشتغلوا بالمهن التى كانوا يحتقرونها أولا مثل الزراعة والصناعة وزاد تغلغلهم بين الأهلين وعاشوا فى القرى بعد أن كانوا يعيشون فى المعسكرات وفى المدن الكبرى فقط .

اشتراك العرب فى الحوادث السياسية :

وقد اشترك العرب النازلون فى مصر فى كثير من الحوادث السياسية الإسلامية العامة فكان لهم أثر كبير فى فتنة عثمان وما تبعها من الحوادث . وقد ذهب وفد منهم يتألف من ستمائة إلى المدينة المنورة ، وكان على رأسه عبد الرحمن بن عديس البلوى واشترك مع الوفود الأخرى التى حاصرت عثمان فى داره وينسب إلى أحدهم أمر قتله . وبعد ذلك لم يرجع هذا الوفد إلى مصر إلا بعد أن نفذ رغبته فى اختيار على بن أبى طالب للخلافة . وقد قام بعد ذلك نزاع فى مصر بين الثوار وعلى رأسهم محمد بن أبى حذيفة بن عتبة بن ربيعة وبين شيعة عثمان وعلى رأسهم معاوية بن حديج . ومع أن شيعة عثمان انتصروا مرتين على قوات ابن أبى حذيفة مرة فى إحدى قرى

---

(١) Lane-Poole: *A History of Egypt in the Middle Ages*, pp. 28-29.

البهنسا بالصعيد والأخرى فى خربتا بالبحيرة[١]. ومع أن الهيبة كانت تحف بهم بعد ذلك فلم يرد قيس بن سعد بن عبادة ، والى الخليفة على بن أبى طالب بمصر ، حربهم واضطر بعده محمد بن أبى بكر إلى مصالحتهم فإن هؤلاء العثمانية لم يستطيعوا أن يستقروا بمصر وخرجوا منها جميعاً أو بعضهم وانضموا إلى معاوية بن أبى سفيان بالشام[٢] . وقد دخل عمرو بن العاص مصر من قبل معاوية بعد ذلك سنة ٣٨ هـ فى فترة انتظار اجتماع الحكمين وحارب شيعة على وهزمهم بالمُسناة ( بين أم دنين وعين شمس )[٣] وقضى على محمد بن أبى بكر[٤] . وهكذا كانت مصر مسرحاً لكثير من الحوادث بين العثمانية والعلوية من العرب وكانت الأمور فيها صدى لما يدور من نزاع حول الخلافة فى ذلك الوقت .

وعند ما قامت فتنة عبد الله بن الزبير فى الحجاز وانتشرت إلى العراق لم تسلم منها مصر بل ظهر فيها حزب قوى من العرب يشايع عبد الله بن الزبير استطاع أن يعاون الوالى الذى جاء من قبله واسمه عبد الرحمن بن عتبة بن جحدم الفهرى وناصره فى حربه ضد مروان بن الحكم حين قدم مصر لتخليصها ، وكانت بينهما واقعة مشهورة فى الفسطاط تسمى واقعة الخندق[٥] .

وفى أواخر العصر الأموى حين اشتدت روح العصبية القبلية بين اليمنية والمضرية فى الدولة الإسلامية بصفة عامة لم تسلم مصر من ظهور هذه الروح وقد اضطر اليمنية فى مصر الذين كانوا يعادون مروان الثانى آخر الأمويين حسان بن عتاهية الوالى من قبل هذا الخليفة وهو من المضرية إلى الخروج

---

(١) الكندى ، الولاة والقضاة ص١٨ — ١٩ ؛ والمقريزى ، الخطط جـ ٢ ص٣٣٥ — ٣٣٦ .

(٢) الكندى ، الولاة والقضاة ص ٢٦ — ٢٨ ؛ والمقريزى ، الخطط جـ ٢ ص٣٣٧ .

(٣) الكندى ، الولاة والقضاة ص ٢٩ .

(٤) المقريزى ، الخطط جـ ٢ ص ٣٣٧ .

(٥) الكندى ، الولاة والقضاة ص٤٠ — ٤٥ ؛ والمقريزى ، الخطط جـ ٢ ص٣٣٧ — ٣٣٨ .

من مصر ولم يقبلوا تولية حنظلة بن صفوان الكلبي عليهم وجعلوا حفص بن الوليد اليمنى فى ولاية مصر . وظل الحال على ذلك حتى ولى مصر من قبل مروان حوثرة بن سهيل الباهلى فقضى على اليمنية وزعيمهم حفص بن الوليد سنة ١٢٨ هـ[١] .

وكذلك ظهرت فى مصر فى ولاية حوثرة حركة للخوارج أنصار الخارجى الحجازى يحى طالب الحق الذى أزعج مروان مدة من الزمن ، ولكن حوثرة أخمدها[٢] .

وكذلك ثار بعض الأمويين على مروان الثانى كما حدث فى الشام والجزيرة . وممن ثاروا ضده فى مصر عمرو بن سهيل بن عبد العزيز بن مروان . وقد انضم إليه فى ثورته جماعة من قيس على رأسهم الدماحس بن عبد العزيز الكنانى ولكن ثورته فشلت وحبسه والى مروان فى مصر فى ذلك الوقت واسمه عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير فى الفسطاط[٣] .

أما الدعوة العباسية فكانت قد وصلت إلى مصر وانتشرت فيها ، ويدل على ذلك أن مروان الثانى حين وصل مصر بعد هزيمته فى الزاب وجد أن أهل الحوف الشرقى قد أصبحوا من أنصار العباسيين كما وجد أنصاراً لهم فى الإسكندرية وفى أسوان أيضاً[٤] . وقد استطاع مروان أن يخضع أنصار العباسيين هؤلاء كما استطاع ولاته من قبل أن يقضوا على حركات اليمنية والخوارج والأمويين العاصين فى مصر ، ولكنه حين قدمت مصر الجيوش العباسية التى كانت تطارده بعد هزيمته وعلى رأسها صالح بن على بن عبد الله بن العباس وأبو عون بعد وصوله بشهر أو شهرين لم يستطع

---

(١) الكندى ، الولاة والقضاة ص ٨٥ — ٩١ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٣٠١ — ٣٠٥ .

(٢) الكندى ، الولاة والقضاة ص ٩٢ ؛ والمقريزى ، الخطط جـ ٢ ص ٣٣٨ .

(٣) الكندى ، ص ٩٤ ؛ وأبو المحاسن جـ ١ ص ٣١٦ .

(٤) الكندى ، الولاة والقضاة ص ٩٥ .

مقاومتها . وقد أحرق الفسطاط وعبر إلى شاطىء الجيزة ، ولكن القوات العباسية هذه تبعته إلى الشاطىء الغربى وهزمته واضطرته إلى الفرار حتى وصل إلى بوصير . وقد لحقه صالح بن على العباسى وقتله فى ذى الحجة سنة ١٣٢ هـ[١] . والعجيب أن مصر ظلت مدة من الزمن مسرحاً للصراع بين الأمويين والعباسيين إذ أن نفوذ بنى أمية لم ينته فى مصر بقتل مروان الثانى بل إن أحد الأمويين واسمه دحية بن مصعب بن الأصبغ بن عبدالعزيز ابن مروان نشر نفوذه فى الصعيد واستطاع أن يقاوم الولاة العباسيين طوال عهد المهدى وجزءاً من عهدالهادى حتى تم القضاء عليه فىسنة ١٦٩ هـ فى خلافة الهادى ، وذلك عند ما كان الفضل بن صالح بن على العباسى والياً على مصر[٢] .

وفى العصر العباسى عند ما قامت فتنة النفس الزكية ( محمد بن عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ) فى الحجاز فى عهد أبى جعفر المنصور وذهب إخوته إلى البلاد الإسلامية المختلفة أتى إلى مصر ابنه على ووجد له أنصاراً من عرب مصر ، وقام بذلك فى مصر حزب شيعى . وقد ضعف هذا الحزب عند ما وصلت إليه أخبار مقتل النفس الزكية فى الحجاز وأخيه إبراهيم فى العراق[٣] .

وعند ما عزل الأمين أخاه المأمون من ولاية العهد وولى ابنه موسى وقامت الفتنة بين الأمين والمأمون لم تسلم مصر من آثارها . وقد انقسم العرب فيها إلى فريقين فريق يناصر المأمون ومن أكبر زعمائه عباد بن محمد ابن حيان الذى كان وكيلا على ضياع هرثمة بن أعين قائد المأمون والسرى ابن الحكم بن يوسف وعبد العزيز بن الوزير الجروى . وقد استطاع هذا

---

(١) الكندى ، ص ٩٦ — ٩٧ ؛ وأبو المحاسن جـ ١ ص ٣١٧ .

(٢) الكندى ، الولاة والقضاة ص ١٢٤ ، ١٢٩ — ١٣٠ ؛ وأبو المحاسن جـ ٢ ص ٤٩ ، ٥٧ ، ٦٠ — ٦١ .

(٣) الكندى ، الولاة والقضاة ص ١١١ — ١١٤ ؛ المقريزى ، الخطط جـ ٢ ص ٣٣٨ .

الفريق أن يخرج من مصر واليها من قبل الأمين واسمه جابر بن الأشعث الطائى فى جمادى الآخرة سنة ١٩٦ ﻫ وولى على البلاد عباد بن محمد بن حيان [١] والفريق الثانى كان يناصر الأمين وكان يضم قبيلة قيس فى الحوف الشرقى وزعيمها ربيعة بن قيس ، وقد استطاع أن يشن الحرب على الفريق الأول وهاجمه فى الفسطاط مرتين ، كما استطاع أن يصد هجماته أيضاً ولكنه ضعف وتفرق بعد قتل الأمين فى المحرم سنة ١٩٨ ﻫ [٢] .

وفى فترة الفوضى التى انتشرت فى بغداد فى أول عهد المأمون بسبب إقامة هذا الخليفة فى خراسان وجعله على الرضا بن موسى الكاظم ولياً للعهد وأمره بلبس الخضرة شعار العلويين بدل السواد شعار العباسيين والتى كان من نتيجتها قيام حزب مناوىء للمأمون اختار ابراهيم بن المهدى عم المأمون خليفة فى مكانه : فى هذه الفترة اضطربت الأمور فى مصر أيضاً فقام بها بعض الأشخاص الطامحين يعملون لنشر نفوذهم على حساب الخلافة المضطربة ومن بينهم بعض من سمعنا عنهم من قبل مثل عبد العزيز بن الوزير الجروى والسرى بن الحكم . وقد استطاع الجروى أن ينشر نفوذه فى تنيس وفى شرقى الدلتا واستطاع أن يخرج من مصر سنة ٢٠٠ ﻫ المطلب ابن عبد الله الخزاعى الوالى الذى كان المأمون قد عزله من قبل ولكنه ظل فى الولاية مدة من الزمن لأن الجند العرب فى الفسطاط رغبوا فى بقائه [٣] . ثم انضم الجروى بعد ذلك إلى حركة ابراهيم بن المهدى ضد المأمون وظل على عدائه للمأمون حتى مات سنة ٢٠٥ ﻫ [٤] أما السرى ابن الحكم فإنه أصبح والياً فى الفسطاط سنة ٢٠٠ ﻫ بفضل مساعدة الجروى

---

(١) الكندى ، الولاة والقضاة ص ١٤٧ — ١٤٩ .

(٢) شرحه ص ١٤٩ — ١٥٢ .

(٣) الكندى ، ص ١٥٣ — ٤ ، ص ١٥٧ — ١٦١ .

(٤) الكندى ، ص ١٦٨ — ١٧١ .

له[١] ، ولكنه بعد ذلك أحس بمطامع الجروى وأخذ يقاومه وبخاصة بعد أن اعترف به المأمون والياً على مصر[٢] . وقد استطاع أن يهاجم تنيس فى غيبة الجروى كما استطاع أن يهزم أحد أنصار الجروى فى الصعيد ممن كانوا يعاونون حركة ابراهيم بن المهدى[٣] ، ولكنه مات سنة ٢٠٦ هـ أيضاً بعد الجروى بثلاثة شهور . أضف إلى ذلك أن منطقة الإسكندرية خرجت على سلطة المطلب بن عبد الله الخزاعى وقامت بها شبه جمهورية مستقلة من الأندلسيين الذين كانوا قد نزلوا بها بعد أن طردهم من الأندلس الحكم بن هشام الأموى على أثر وقعة الربض بقرطبة سنة ١٩٨ هـ[٤] . وقد انضموا أولا إلى طائفة الصوفية الذين كانوا قد ظهروا فى الإسكندرية يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر برياسة أبى عبد الرحمن الصوفى واستعانوا باللخميين أقوى العناصر فى الإسكندرية وبعد ذلك هزموا اللخميين وتخلوا عن الصوفية وولوا عليهم رجلا منهم يعرف بالكنانى[٥] ، ودانوا بالطاعة للجروى ثم بعد ذلك عندما رأوا الجروى ينضم إلى حركة ابراهيم بن المهدى أخرجوا عامله من الإسكندرية وقاوموه حين حاصرهم أربع مرات مقاومة ناجحة ، وقد مات الجروى وهو يحاصرهم[٦] .

ولم يتم الأمر للمأمون فى مصر بموت الجروى والسرى لأن أبناء السرى سيطروا على الفسطاط والصعيد وغربى الدلتا فى حين سيطر على بن عبد العزيز الجروى على بقية الوجه البحرى بما فى ذلك الحوف الشرقى[٧] ، وكان

(١) الكندى ، ص ١٥٩ — ١٦١ .

(٢) شرحه ص ١٦٧ .

(٣) شرحه ص ١٧١ .

(٤) إبن الأثير ، الكامل فى التاريخ ج ٦ ص ٢٠٩ — ٢١٠ ؛ وأبو المحاسن ج ٢ ص ١٥٨ .

(٥) الكندى ، ص ١٦٢ — ١٦٤ .

(٦) شرحه ص ١٧٠ — ١٧١ .

(٧) شرحه ص ١٧٢ — ١٧٣ .

الأندلسيون فى الاسكندرية . وقد ظل الأمر على ذلك حتى أتى إلى مصر عبد الله بن طاهر والياً من قبل المأمون سنة ٢١١ هـ ، فانضم إليه على بن الجروى وقضى على أسرة السرى[١] ، بعد أن حكمت فى مصر حوالى عشر سنوات ، كما أخرج الأندلسيين من الاسكندرية سنة ٢١٢ هـ ، فذهبوا إلى جزيرة إقريطش وامتلكوها وزالت جمهوريتهم التى دامت حوالى عشر سنوات بالإسكندرية[٢] .

هذا ويلاحظ أن الحزب الشيعى فى مصر الذى ضعف أمره فى عهد المنصور العباسى بعد القضاء على حركة محمد النفس الزكية لقى كثيراً من الشدائد والمحن وبخاصة فى عهد الخليفة المتوكل ولكنه ظل قائماً واشترك فى الثورات التى كانت تقوم ضد العباسيين بعد ذلك . وقد انضم أحد العلويين ويقال له ابن الأرقط إلى ثورة قامت فى مصر فى عهد الخليفة المعتز سنة ٢٥٢ هـ وكان على رأسها جابر بن الوليد المدلجى . وكذلك ثار أحد العلويين ويقال له بغا الأكبر فى الصعيد سنة ٢٥٤ هـ ، كما ثار علوى آخر اسمه بغا الأصغر سنة ٢٥٥ هـ ، فى عهد المعتز أيضاً . وقد قضى على هاتين الثورتين أحمد بن طولون كما سنرى فيما بعد .

٢ — حالة القبط :

أما القبط فإنهم فى فترة حكم الولاة عاشوا حياة سهلة بعيدة عن الاضطهاد بصفة عامة . وقد عاملهم العرب من أول الأمر معاملة طيبة وحمدوا لهم مساعدتهم لهم ضد الروم . ولم يخرجو على شروط الصلح طبقاً لمن يقول إن مصر فتحت صلحاً أو عاملوهم طبقاً لشروط الصلح وإن كانت بلادهم قد فتحت عنوة طبقاً لمن يقول إنها فتحت عنوة .

حسن معاملة العرب للقبط :

ويبدو لين العرب وعطفهم على القبط فى أقوال عمرو بن العاص وفى

---

(١) الكندى ، ص ١٨٠ — ١٨٢ .

(٢) الكندى ، ص ١٨٣ — ١٨٤ ؛ والمقريزى ، الخطط جـ ١ ص ١٧٣ .

أفعاله وقد جاء فى حسن المحاضرة(١) أن عمرو بن العاص فى خطبة له بعد أن دعا الجند إلى الذهاب إلى الريف قال : « واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيراً ، حدثنا عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيراً فإن لكم منهم صهراً وذمة فعفوا أيديكم وفروجكم وغضوا أبصاركم . . . » كما أن من الثابت أن عمرو بن العاص أعاد البطرك بنيامين إلى كرسيه بالإسكندرية بعد أن ظل مبعداً عنه ثلاث عشرة سنة كما سبق أن ذكرنا ، كما أنه أحسن استقبال رهبان أديرة وادى النطرون ومنحهم أماناً لأنفسهم وأديرتهم(٢) . ولم يعتد على الكنائس وخير شاهد على ذلك ما يقوله حنا النقيوسى الذى يصف الإسلام بأشنع الأوصاف ، ويتهم من دخلوا فيه بأشد التهم ، ويهاجم عمرو بن العاص فى كثير من الأحيان ولكنه يقول عن عمرو بن العاص فى هذا الصدد : « قد تشدد فى جباية الضرائب التى وقع الاتفاق عليها ولكنه لم يضع يده على شىء من ملك الكنائس ولم يرتكب شيئاً من النهب أو الغصب بل إنه حفظ الكنائس وحماها إلى آخر مدة حياته »(٣) .

ويبدو لين العرب أيضاً وحسن معاملتهم للقبط فى سيرة الولاة الذين ولوا مصر بعد عمرو فإنهم بوجه عام ساروا على منهجه ولم يتدخلوا فى انتخاب البطاركة فى مصر تدخلا جدياً وتركوا الأمر للأساقفة ليقوموا به طبقاً للقوانين الكنسية(٤) . وقد كانوا يشجعون فى أغلب الأحيان المذهب اليعقوبى الذى كان يدين به المصريون(٥) . ولكنهم كانوا فى أغلب الأحيان

---

(١) السيوطى ، حسن المحاضرة جـ ١ ص ٦٧ .

(٢) المقريزى ، جـ ١ ص ١٨٦ .

Lane-Poole: *A History of Egypt in the Middle Ages*, p. 26.

(٣) بتلر ، فتح العرب لمصر ص ٣٢٦ — ٣٢٧ .

(٤) سيدة الكاشف ، مصر فى فجر الإسلام ص ١٩١ .

(٥) سعيد بن البطريق : التاريخ المجموع على التحقيق جـ ٢ ص ٤٥ — ٤٦ وابن العميد تاريخ المسلمين ص ٨٣ — ٨٤ .

يعطفون على الملكانيين[١] . وقد قال بطلر[٢] عند كلامه على معاملة عمرو ابن العاص لأتباع المذهبين اليعقوبى والملكانى : « لا بد لنا أن نقول إن المذهبين كليهما قد بقيا جنباً إن جنب فى مصر يظلهما الفاتحون بذمتهم ويحمونهما جميعاً بحمايتهم » . أضف إلى ذلك أن هؤلاء الولاة على الرغم من شروط الصلح التى كانت لا تبيح إقامة كنائس جديدة ، كانوا يشجعون البطاركة على تجديد الكنائس القديمة وتشييد كنائس جديدة والتاريخ يذكر أن مسلمة بن مخلد سمح للقبط ببناء كنيسة فى الفسطاط على الرغم من معارضة الجند . وقد ذكر السيوطى[٣] فى ذلك « وأول كنيسة بنيت فى فسطاط مصر الكنيسة التى خلف القنطرة أيام مسلمة بن مخلد فأنكر ذلك الجند على مسلمة وقالوا له أتقر لهم أن يبنوا الكنائس حتى كاد يقع بينهم وبينه شر فاحتج عليهم مسلمة يومئذ فقال إنها ليست فى قيروانكم وإنما هى خارجة فى أرضهم فسكتوا عند ذلك » . وكذلك سمح موسى بن عيسى للقبط ببناء كنائسهم وأيده فى ذلك قاضياه الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة بحجة أن بناء الكنائس من عمارة البلاد[٤] . هذا عدا كنائس أخرى كثيرة بنيت فى تلك الفترة منها كنيسة القديس مرقص بالاسكندرية وكنائس مار جرجس وأبو قير فى داخل قصر الشمع ( حصن بابليون ) وكنائس عديدة فى حلوان بنيت فى ولاية عبد العزيز بن مروان[٥] ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إن ولاة مصر فى تلك الفترة كانوا يسمحون للقبط بالاحتفال بأعيادهم

---

(١) ساويرس (Patr. Orient.) ص ٥ — ٦ ؛ سعيد بن البطريق ص ٤٥ — ٤٦ وابن العميد ص ٨٣ — ٨٤ وابن أبى أصيبعة ، طبقات الأطباء جـ ١ ص ٨٣ :
و Wiet: *Histoire de la nation égyptienne*, t. IV, p. 58.

(٢) فتح العرب لمصر ص ٣٢٩ .

(٣) حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٥ .

(٤) الكندى ، الولاة والقضاة ص ١٣٢ .

(٥) سعيد بن البطريق ، التاريخ المجموع جـ ٢ ص ٤١ ؛ وساويرس T.V. ص ٢٤ ، ٤٢ .

الدينية كما كانوا يشاركونهم على ما يبدو فى الاحتفال بعيد وفاء النيل وهو العيد الذى لا زلنا نحتفل به حتى يومنا هذا لاتصاله بالنيل صاحب الفضل الكبير على المصريين جميعاً[١] .

وتبدو حسن معاملة العرب للقبط بوضوح فى استعانتهم بهم فى إدارة شئون مصر وإسناد المناصب الإدارية المختلفة إليهم . وقد بلغ من تسامح العرب أنهم مع احتفاظهم لأنفسهم بالجيش ألفوا من القبط فرقاً من المتطوعة كانت بمثابة قوات مساعدة تستخدم فى أوقات الضرورة القصوى وتقيم على الحدود بصفة حراس مع بعض العرب وتأخذ مرتبات من الصدقات[٢] . كما أنهم أحلوا القبط محل الروم الذين غادروا مصر وكانوا يشغلون كثيراً من الأعمال فيها[٣] . ومن أهم المناصب التى أسندت إليهم منصب الكاتبين اللذين كانا يقيمان فى دار الأمارة مع الوالى ويعاونانه فى تصريف شئون البلاد ومناصب رؤساء الكور ورؤساء المالية وجباة الضرائب[٤] . وقد حاول الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز إحلال العرب محل القبط حتى فى أصغر الوظائف مثل وظيفة موازيت القرى ، ولكن لم تنجح محاولته هذه كل النجاح فيما يبدو بدليل أن كثيراً من الأقباط ظلوا يشغلون كثيراً من مناصب الدولة ، وظل بعض الموازيت منهم حتى سنة ١٧١ هـ[٥] .

وكذلك تبدو حسن معاملة العرب للقبط فى تشجيعهم للغة القبطية مدة من الزمن بحكم اعتمادهم على القبط فى إدارة شئون البلاد . ويقال إن الدروس الدينية التى كانت تقرأ باليونانية وتشرح باللغة القبطية فى أواخر

---

(١) سيدة الكاشف ، مصر فى فجر الإسلام ص ١٩٣ ، ١٩٦ .

(٢) شرحه ص ٧٨ — ٧٩ .

(٣) شرحه ص ١٨٩ .

(٤) شرحه ص ١٨٩ — ١٩٠ و ٢٢٦ — ٢٢٧ .

(٥) ساويرس .T.V ص ٧١ — ٧٢ ؛ والكندى ، ص ٦٩ ؛ وسيدة الكاشف ، مصر فى فجر الإسلام ص ٢٠٠ — ٢٠١ .

العهد الرومانى أصبحت فى هـذا العهد العربى لا تقرأ إلا باللغة القبطية . وكذلك أصبحت البلاد والأقاليم تعرف بأسمائها القبطية المستمدة من الأسماء المصرية القديمة بعد أن كانت تعرف فى العهد الرومانى بالأسماء اليونانية[١].

ولا ينكر الباحث المنصف حسن معاملة العرب للقبط عند الفتح وبعده بل إن من المسيحيين فى البلاد المفتوحة من أشادوا بعدل العرب وحسن معاملتهم . وقد قيل إن أحد الأساقفة النسطوريين بعد بدء الفتوحات العربية بنحو خمسة عشر عاما كتب يقول : « إن العرب الذين وهبهم الله السيادة فى أيامنا قد أصبحوا سادة لنا ولكنهم لا يحاربون الدين المسيحى قط بل يحافظون على ديننا ويحترمون الأساقفة والقديسين ويقدمون هدايا لكنائسنا وأديرتنا[٢] .

*مناقشة بعض الروايات التى تتهم العرب بسوء معاملة القبط :*

ويذكر الأستاذ لينبول بعض أمثلة لاضطهاد وقع على القبط منها حادثة عذراء راهبة اسمها فبرونيا Febronia أراد الجند العرب أن يعتدوا عليها ولكنها تخلصت منهم بحيلة وقتلت بسيف أحدهم بعد أن دهنت عنقها بزيت وقالت إن هذا الزيت يحميها من القتل وضربها عربى ليرى صدق ما تقول . على أنه مما يقلل من أهمية هذه الحادثة أن الأستاذ لينبول يقول بعد ذلك إن موت هذه العذراء كان سبباً فى حزن العرب وتوبتهم ورجوعهم عن التعرض لزميلاتها[٣] . وحادثة أخرى ذكرها لينبول هى أن أحد البطاركة المصريين حبسه الوالى العربى وأدى هذا إلى ثورة القبط وإعداد ملك النوبة المسيحى العدة لغزو مصر وتخليص البطرك ، ولم يرجعه عن ذلك إلا إطلاق سراح البطرك وإرساله يطلب من الملك عدم المجىء إلى مصر[٤] . وفى ذكر هذه

---

(١) سيدة الكاشف ، مصر فى فجر الإسلام ص ١٩٠ — ١٩١ .

(٢) Wiet: *Précis de l'Histoire*, T. II, p. 131.

(٣) Lane-Poole: *A History of Egypt in the Middle Ages*, p. 28.

(٤) *Ibid.*, p. 27.

الحادثة ما يدل على أنه إذا كان سوء التفاهم كان يحدث أحياناً بين القبط والعرب فإنه سرعان ما كان يزول وكانت المياه تعود إلى مجاريها .

وفى كتاب فتوح مصر لابن عبد الحكم عدة روايات عن معاملة العرب لقبط مصر قد تشعر بأنهم أساءوا معاملتهم . ومنها رواية[١] تقول « إن عمرو ابن العاص لما فتح مصر قال لقبط مصر إن من كتمنى كنزاً عنده فقدرت عليه قتلته وأن قبطياً من أهل الصعيد يقال له بطرس ذكر لعمرو أن عنده كنزاً فأرسل إليه فسأله فأنكر وجحد فحبسه فى السجن . وعمرو يسأل عنه هل يسمعونه يسأل عن أحد فقالوا لا إنما سمعناه يسأل عن راهب فى الطور . فأرسل عمرو إلى بطرس فنزع خاتمه من يده ثم كتب إلى ذلك الراهب أن ابعث إلىّ بما عندك وختمه بخاتمه فجاء رسوله بقلة شامية مختومة بالرصاص ففتحها عمرو فوجد فيها صحيفة مكتوب فيها ما لكم تحت الفسقية الكبيرة ، فأرسل عمرو إلى الفسقية فحبس عنها الماء ثم قلع البلاط الذى تحتها فوجد فيها اثنين وخمسين أردباً ذهباً مضروبة فضرب عمرو رأسه عند باب المسجد ، وأخرج القبط كنوزهم خوفاً من القتل . ولو صحت هذه الرواية لكان معناها أن عمرو اتخذ التهديد وسيلة لابتزاز أموال القبط بغير حق ، ولكن ابن عبد الحكم نفسه يشكك فى صدق هذه الرواية إذ يذكر رواية أخرى فى الصفحة نفسها تقول : « إن عمرو بن العاص استحل مال قبطى من قبط مصر لأنه استقر عنده أنه يظهر الروم على عورات المسلمين ويكتب إليهم بذلك فاستخرج منه بضعة وخمسين أردباً دنانير » فهذه الرواية الثانية فيما يبدو تشير إلى حادثة بطرس لأنها ذكرت أن المبلغ الذى استخرج منه هو بضعة وخمسون أردباً دنانير وهو تقريباً ما ذكرته الرواية الأولى التى تقول إن عمرو أخذ من تحت الفسقية اثنين وخمسين أردباً ذهباً مضروبة . وقد ذكرت هذه الرواية الثانية السبب فى سوء معاملة عمرو لبطرس وهو الاتصال بالروم

---

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ص ٧٩ .

أعداء المسلمين وإمدادهم بأخبارهم وهو سبب يستحق بطرس العقاب من أجله بدون شك . ونحن جميعاً نعلم أن الجاسوسية فى زمننا عقابها الاعدام . ومع ذلك فإن بطلر عند كلامه على هذه الرواية يقول عنها إنها غير جديرة بالتصديق ولا تحتمل النقد[١] . ومن هذه الروايات أيضاً رواية أخرى تقول : « خرج أبو سلمة بن عبد الرحمن يريد الاسكندرية فى سفينة فاحتاج إلى رجل يقذف به فسخر رجلا من القبط فكلم فى ذلك فقال إنما هم بمنزلة العبيد إن احتجنا إليهم . »[٢] . وقد يفهم منها أن العرب كانوا يسخرون القبط ويستعبدونهم ولكن فى هذا الفهم مبالغة لأنها حادثة فردية كما أنه لا يمكن الجزم بصحتها . وإن فيما ورد فى كتاب ابن عبد الحكم[٣] عن سؤال عمرو بن العاص للخليفة عمر بن الخطاب فيما يتبع بشأن أموال الرهبان ورد عمر عليه بأن بيت مال المسلمين لا يستحق إلا أموال الرهبان الذين يموتون بدون عقب وكذلك ما ورد بشأن سؤال والى مصر فى عهد عمر ابن عبد العزيز للخليفة عما يتبعه فى شأن الاستيلاء على خشب كان عند القبط ورد الخليفة عليه بأن يأخذها بقيمة عدل وإشارته مع ذلك ، إلى أنه وجد أن أهل مصر ليس لهم عهد ، لتدل دلالة صادقة على أن العرب فى فترة حكمهم الأولى لمصر كانوا يتحرون العدل فى معاملة القبط ويحسنون معاملتهم .

ويذكر بطلر[٤] عند كلامه على حفر قناة أمير المؤمنين فى ولاية عمرو ابن العاص وسرعة حفرها : « على أن مثل ذلك الإسراع لم يكن عجيباً إذ كان يعمل فيها عدد عظيم من أهل البلاد يساقون إلى ذلك كأنهم أرقاء يسوقهم من ورائهم مقدمون وخول على ما جرت به سنة أهل منذ أقدم الأزمان . ويلوح لنا أن العرب لجأوا إلى هذه السخرة بشدة لم تعهد

---

(١) بطلر ، فتح العرب لمصر ص ٣٣٨ — ٣٣٩ .

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ( طبعة هنرى ماسيه ) ص ٨١ .

(٣) شرحه ص ٨١ — ٨٢ .

(٤) بطلر ، فتح العرب لمصر ص ٢٥٥ .

من قبل حتى لقد وصفهم حنا النقيوسى وصفاً شديداً وتناولهم بالقول القاذع فقال : وكان نيرهم على أهل مصر أشد وطأة من نير فرعون على بنى إسرائيل . ولقد انتقم الله منه انتقاماً عادلا بأن أغرقه فى البحر الأحمر بعد أن أرسل صنوف بلائه على الناس والحيوان ونسأل الله إذا ما حل حسابه لهؤلاء المسلمين أن يأخذهم بما أخذ به فرعون من قبل . ولكن الظاهر أن هذه إنما جاءت عفواً فى وقت الفتح ولم تكن صفة ثابتة لحكومة عمرو فى مصر » . وواضح من كلام بطلر أن هذه الشدة إن كانت قد حدثت فإنها تمت طبقاً لما جرت به سنة أهل مصر منذ أقدم الأزمان لا سنة العرب . وواضح أيضاً أنها كانت شدة بمناسبة ظروف الفتح ولم تكن صفة لحكم عمرو بن العاص أو العرب . وليس بعيداً أن يكون المقدمون من المصريين هم الذين أذاقوا إخوانهم العمال المصريين البلاء كما أنه ليس بعيداً أن تكون لهجة حنا النقيوسى وحملته على العرب سببها كراهيته لأعداء بلاده الفاتحين .

**بعض الشدائد التى نزلت بالقبط :**

على أننا يجب أن نلاحظ أن القبط إذا كانوا قد لقوا معاملة حسنة من أول الأمر من العرب بصفة عامة فإنهم أحياناً كانوا يقاسون بعض الشدائد . والتاريخ يذكر أن عبد العزيز بن مروان أثناء ولايته لمصر أساء الظن بالبطرك لإتصاله بملكى الحبشة والنوبة المسيحيين وكان من أثر ذلك أن أمر بكسر جميع الصلبان التى فى مصر وكتب عدة رقاع أمر بوضعها على أبواب الكنائس وفيها محمد رسول الله[1] . وكذلك يذكر التاريخ أنه ألزم أساقفة الكور أن يؤدوا ألفى دينار سنوياً بالإضافة إلى خراج أملاكهم[2] . أضف إلى ذلك أن عبد الله بن عبد الملك وقره بن شريك وكانا يليان مصر فى عهد الوليد بن عبد الملك (٨٦ — ٩٦ هـ) وأسامة بن زيد التنوخى

---

(١) ساويرس .T.V ص ٢٤ — ٢٥ .

(٢) ساويرس .T.V ص ٥٢ .

وكان يليها من قبل سليمان بن عبد الملك ( ٩٦ — ٩٩ هـ ) زادوا فى الخراج وفرضوا ضرائب جديدة وتشددوا فى جمعها مما أدى إلى هرب الأهلين من مناطقهم وإتخاذ إجراءات شديدة للقضاء على حركة الهروب [١] . كما أدى إلى فرض جزية على الرهبان قدرها دينار على الراهب فى ولاية أسامة بن زيد التنوخى [٢] . ونفذ عبد الله بن عبد الملك السياسة الخاصة بتدوين الدواوين باللغة العربية التى بدأت من قبل فى خلافة عبد الملك بن مروان ولا يخفى خطر هذه السياسة على اللغة القبطية وعلى مناصب القبط فى الدولة . ومع أن الخليفة عمر بن عبد العزيز ( ٩٩ — ١٠١ هـ ) أمر بإعفاء الأساقفة والكنائس من الخراج وأبطل الجبايات على ما يقول ساويرس [٣] . إلا أنه فى عهده جعلت جزية موتى القبط فى مصر على أحيائهم [٤] وكذلك أمر الخليفة يزيد بن عبد الملك ( ١٠١ — ١٠٥ هـ ) بكسر الصلبان فى جميع ولايات الدولة الإسلامية سنة ١٠٤ هـ ومحو الصور وإزالة التماثيل من الكنائس [٥] . وكان من أثر هذه الحركة فى مصر أن كسرت التماثيل والصلبان ومحيت الصور [٦] . وقد ساءت هذه الحركة المصريين كثيراً لأنها لاتتفق مع مذهبهم الدينى ويدل على أنها كانت لاتتفق مع مذهبهم أنه حدث بعد ذلك بنحو مائة عام أن احتج بطرك اليعاقبة فى مصر ضد الامبراطور تيوفيل بن ميخائيل ( ٢١٤ — ٢٢٨ هـ : ٨٢٩ — ٨٤٢ م ) فى مشروعه الأيقونى وناظره فيه [٧] وقد أعاد الخليفة يزيد بن عبد الملك أيضاً الخراج

---

(١) ساويرس T.V. ص ٥٤ — ٥٧ ، ٦٤ ، ٧٠ .

(٢) شرحه ص ٦٨ و ٧٠ ؛ المقريزى ، الخطط جـ ٢ ص ٤٩٢ — ٣ .

(٣) سير الآباء البطاركة T.V. ص ٧١ — ٧٢ .

(٤) ابن عبد الحكم ص ١٥٦ ؛ المقريزى ، الخطط ص ٧٧ — ٧٨ .

(٥) الكندى ، ص ٧١ ؛ ساويرس T.V. ص ٧٣ ؛ خطط المقريزى جـ ٢ ص ٤٩٣ .

(٦) الدكتور زكى حسن ، الفنون الإيرانية فى العصر الإسلامى ص ٨٢ : و Wiet: *Hist. de la nation égyptienne*, IV, pp. 55-56.

(٧) خطط المقريزى جـ ٢ ص ٤٩٤ .

الذى كان عمر بن عبد العزيز قد رفعه عن الكنائس والأساقفة [١] . وفى عهد هشام بن عبد الملك ( ١٠٥—١٢٥ ﻫ ) زاد عبيد الله بن الحبحاب الخراج فى مصر وجبى منها أربعة ملايين دينار بعد أن كان خراجها قد أصبح أقل من ثلاثة ملايين دينار [٢] . وفى العهد العباسى ضوعف الخراج فى مصر [٣] .

ومن أهم ما يذكره التاريخ من أمور ضايقت الأقباط كغيرهم من المسيحيين فى غير مصر تلك القرارات التى قيل إنها صدرت فى عهد عمر ابن الخطاب وجددت فى عهد عمر بن عبد العزيز والمتوكل العباسى والتى كانت تضع هؤلاء الناس فى منزلة أدنى من منزلة العرب إذ كانت تحدد لهم زيهم ودواب ركوبهم ومساكنهم وكنائسهم وكانت تحرم عليهم أن يتجروا فى مواد حرمها الإسلام مثل الخمر ولحم الخنزير كما كانت تفرض إظهار الاحترام التام للمسلمين إذا مروا عليهم أو جالسوهم . وقد قيل إن عمر بن الخطاب كتب إلى عمرو بن العاص « أن يختم فى رقاب أهل الذمة بالرصاص وأن يظهروا مناطقهم ويجزوا نواصيهم ويركبوا على الأكف عرضاً ولا يضربوا الجزية إلا على من جرت عليهم المواسى ولا يضربوا على النساء ولا على الولدان ولا يدعوهم يتشبهون بالمسلمين فى ملبوسهم » [٤] كما قيل إن كتاباً كتب إلى عمر بن الخطاب فى نصارى أهل الشام ومصر جاء به على لسان النصارى : « لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا وشرطنا على أنفسنا أن لا نحدث فى مدائننا ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة ولا صومعة راهب ولا

---

(١) ساويرس .T.V ص ٧٢ .

(٢) المقريزى ، الخطط ج ١ ص ٩٨—٩٩ .

(٣) ساويرس .T.V ص ١٨٨—١٨٩ .

(٤) ابن عبد الحكم ، طبعة تورى ص ١٥١ ؛ خطط المقريزى ج ١ ص ٧٦ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ج ١ ص ٦٣ .

نجدد ما خرب منها ولا ما كان فى خطط المسلمين وأن نوسع أبوابها للمارة ولبنى السبيل وأن ينزل من مر بنا من المسلمين ثلاث ليال نطعمهم ولا نأوى فى كنائسنا ولا فى منازلنا جاسوساً ولا نكتم عيناً للمسلمين ولا نعلم أولادنا القرآن ولا نظهر شرعنا ولا ندعو إليه أحداً ولا نمنع أحداً من ذوى قرابتنا الدخول فى دين الإسلام إن أرادوا . وأن نوقر المسلمين ونقوم لهم فى مجالسنا إذا أرادوا الجلوس ولا نتشبه بهم فى شىء من ملابسهم فى قلنسوة ولا عمامة ولا نتسمى بأسمائهم ولا نتكنى بكناهم ولا نركب بالسروج ولا نتقلد السيوف ولا نتخذ شيئاً من السلاح ولا نحمله معنا ولا ننقش على خواتيمنا بالعربية وأن نجز مقادم رءوسنا ونلزم زينا حيث كنا وأن نشد الزنانير على أوساطنا ولا نظهر صلباننا ولا نفتح كنفنا فى طرق المسلمين ولا أسواقهم ولا نضرب بنواقيسنا فى كنائسنا فى شىء من حضرة المسلمين ولا نخرج شعانيننا ولا طاغوتنا ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ولا نوقد النيران فى طرق المسلمين ولا أسواقهم ولا نجاورهم بموتانا ولا نتخذ من الرقيق ما جرت عليه سهام المسلمين ولا نطلع فى منازلهم ولا تعلو منازلنا منازلهم » . وقد زاد فيه عمر بن الخطاب : « ولا نضرب أحداً من المسلمين . شرطنا ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا وقبلنا عليه الأمان فإن نحن خالفنا فى شىء مما شرطناه لكم علينا وضمناه عن أنفسنا وأهل ملتنا فلا ذمة لنا عليكم . وقد حل بنا ما حل بغيرنا من أهل المعاندة والشقاق »[1] وقيل أيضاً إن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامل له : « أما بعد فلا تدعن صليباً ظاهراً إلا كسر ومحق ولا يركبن يهودى ولا نصرانى على سرج وليركب على إكاف ولا تركبن امرأة من نسائهم على رحالة وليكن ركوبها على إكاف وتقدم فى ذلك تقدماً بليغاً وامنع من قبلك فلا يلبس نصرانى قباء ولا ثوب خز ولا عصب . وقد ذكر لى أن كثيراً ممن قبلك من النصارى قد راجعوا لبس

---

(١) سيدة الكاشف ، مصر فى فجر الإسلام ص ٢٠٦ — ٢٠٧. عن نهاية الأرب للنويرى مخطوط بدار الكتب ج ٩ ص ٣٣٠ أ — ٣٣١ أ .

الكنف : المراحيض ، الطاغوت : الأصنام والصليب وكل ما عبد من دون الله .

العمائم وتركوا المناطق على أوساطهم واتخذوا الجمام والوفر وتركوا التقصيص . ولعمرى لئن كان يصنع ذلك فيما قبلك إن ذلك بك لضعف وعجز ومصانعة . وإنهم حين يراجعون ذلك ليعلمون ما أنت فانظر كل شيء نهيت عنه فاحسم عنه من فعله والسلام »[١] . وقيل كذلك إن الخليفة المتوكل على الله العباسى ( ٢٣٢ — ٢٤٧ هـ ) أمر فى سنة ٢٣٥ هـ[٢] . « بأخذ أهل الذمة بلبس الطيالسة العسلية والزنانير وزكوب السروج بركب الخشب وبكون السروج كهيئة الأكف وعلى رءوسهم القلانس المختلفة الألوان وأن تخيط الرقاع على ظهورهم وصدورهم كل رقعة قدر أربع أصابع ولونها عسلى وأزر نسائهم عسلى وملبس مماليكهم مثلهم ويمنعوا من لبس المناطق وهدم بيعهم المحدثة وأخذ العشر من منازلهم فإن كان الموضع واسعاً صير مسجداً وإن كان لا يصلح أن يكون مسجداً صير فضاءاً وأمر أن تجعل على باب دورهم أساطين وقيل شياطين من خشب مسمورة تفريقاً بين منازلهم ومنازل المسلمين ونهى أن يستعان بهم فى الدواوين وأعمال السلطان التى تخالف أحكامهم فيها أحكام المسلمين ونهى أن يتعلم أولادهم فى كتاتيب المسلمين وأن يعلمهم مسلم ونهى أن يظهروا فى أعيادهم وشعانينهم صليباً وأمر أن تسوى قبورهم بالأرض لئلا تشبه قبور المسلمين وكتب الكتب إلى عماله فى الآفاق بذلك » . وقيل أيضاً إن المتوكل « أمر أهل الذمة فى سنة ٢٣٩ هـ بلبس دراعتين عسليتين على الدراريع والأقبية وبالاقتصار فى مراكبهم على ركوب البغال والحمير دون الخيل والبرازين »[٣] .

ومما يستحق الملاحظة أن هذه القرارات كانت تنفذ فى حين صدورها

---

(١) أبو يوسف ، كتاب الخراج ص ٧٣ .

(٢) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٤ ص ١٧٣ ب — ١٧٤ أ ؛ خطط المقريزى ج ٢ ص ٤٩٤ .

(٣) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٤ ص ١٧٤ أ .

بدقة ولكن التمسك بها كان يقل تدريجياً[1] . وقد رأينا فيما سبق كيف سمح للأقباط بتجديد كنائسهم بل وبإنشاء كنائس جديدة . كما رأينا أن المسلمين كانوا يشاركون الأقباط فى بعض أعيادهم . ومما يشهد بتسامح العرب أننا نقرأ فى كتاب أحد بطاركة بيت المقدس بعد المراسيم التى أصدرها المتوكل بنحو عشرين سنة أى فى سنة ٢٥٥ — ٢٥٦ ﻫ ( ٨٦٩ م ) ما نصه : « إن المسلمين يظهرون كثيراً من العطف نحونا بالسماح لنا ببناء كنائسنا[2] » .

وإذا كان العرب قد حاولوا أن يضعوا أنفسهم فى منزلة أرقى من منزلة أهل البلاد المفتوحة بوضع هذه القرارات فإن هذا الأمر لا يخالف طبيعة الإنسان ، وقد كان المستعمرون فى العصور الحديثة وما زالوا يترفعون عن أهل المستعمرات ويعاملونهم أسوأ معاملة . أما تعطيل هذه القرارات وعدم اتباعها فى أغلب الأحيان فقد كان يرجع بدون شك إلى طبيعة الدين الإسلامى السمحة . ولسنا ننسى قول الله تعالى على لسان نبيه محمد « لكم دينكم ولى دين » . ومع ذلك فإن هذه المضايقات لا يمكن أن نوازنها بأى حال من الأحوال بتلك الاضطهادات التى أنزلها الوثنيون أولا وبخاصة فى عهد دقلديانوس ( ٢٨٤ — ٣٠٥ م ) بالمسيحيين ، ولا بتلك الاضطهادات التى أنزلها المسيحيون الملكانيون وبخاصة فى أيام الإمبراطور هرقل بالمسيحيين اليعقوبيين من أقباط مصر ولا بالمذابح التى ارتكبها الكاثوليك ضد البروتستنت فى فرنسا وفى أسبانيا فى أوائل العصور الحديثة .

### بعض ثورات القبط :

ولكن هذه المضايقات على كل حال وبخاصة ما يتعلق منها بجمع الخراج كانت سبباً فى غضب القبط وقيامهم ببعض الثورات ضد العرب .

---

(١) سيدة الكاشف ، مصر فى فجر الإسلام ص ٢١٣ .

(٢) Wiet: *Hist. de la Nation Egyptienne*, t. IV, p. 25.

ولو أننا تصفحنا كتب التاريخ لوجدنا أمثلة عديدة لهذه الثورات ، منها ثورة القبط فى الوجه البحرى سنة ١٠٧ ﻫ بسبب زيادة الخراج فى عهد عبيد الله ابن الحبحاب التى انتهت بالفشل حين بعث الحر بن يوسف والى مصر فى ذلك الوقت ( ١٠٥—١٠٨ ﻫ ) بجيش قتل منهم عدداً كبيراً[١] ومنها أيضاً ثورتهم فى الصعيد سنة ١٢١ ﻫ بسبب سياسة عبيد الله بن الحبحاب المالية أيضاً التى انتهت بالفشل كذلك لأن حنظلة بن صفوان والى مصر فى ذلك الوقت ( ١١٩ — ١٢٤ ﻫ ) بعث جيشاً لمحاربتهم فانتصر عليهم وقتل منهم عدداً كبيراً أيضاً[٢] . ومنها أيضاً ثوراتهم سنة ١٣٢ ﻫ فى أواخر عهد مروان الثانى آخر الأمويين فى سمنود وفى رشيد وفى البشرود ، وقد أخمدت أيضاً[٣] . ومنها ثوراتهم فى العصر العباسى أيضاً فى سمنود سنة ١٣٥ ﻫ وفى سخا والبشرود وغيرها سنة ١٥٠ ﻫ[٤] . وكانت آخر تلك الثورات الثورة التى قامت سنة ٢١٦ ﻫ أيام الخليفة المأمون وشملت الوجه البحرى كله ولم تخمد إلا بعد حضور المأمون بنفسه إلى مصر[٥] .

على أنه يلاحظ أن القبط إذا كانوا قد ثاروا أحياناً ضد العرب فإنهم

---

(١) الكندى ، الولاة والقضاة ص ٧٣ — ٧٤ ؛ خطط المقريزى ج ١ ص ٧٩ ؛ ساويرس .T.V ص ٧٦ .

(٢) المقريزى ، الخطط ج ١ ص ٧٩ .

(٣) الكندى ص ٩٤ ، ٩٦ ؛ خطط المقريزى ج ١ ص ٧٩ ؛ ساويرس ص ١٥٦ — ١٥٧ و ١٦٢ و ١٨٨ .

(٤) الكندى ، ص ١٠٢ و ١١٦ ؛ خطط المقريزى ج ١ ص ٧٩ ؛ أبو المحاسن ج ١ ص ٣٢٥ — ٣٢٦ .

( البشرود أو البشمور هى المنطقة الرملية الواقعة على ساحل الدلتا بين فرعى رشيد ودمياط وقد عرف أهلها منذ التاريخ القديم بغلظة طباعهم وحبهم للعصيان والثورة وشجعتهم طبيعة المنطقة التى يعيشون فيها على ذلك إذ كانت تحيط بهم المستنقعات والأوحال التى تعيق حركة الجند ساويرس .T.V ص ٤٨٧ و Wiet: *Hist. de la Nat. Egypt.*, t. IV, p. 73. .

(٥) الكندى ، ص ١٩٢ ؛ المقريزى ، الخطط ج ١ ص ٨١ ؛ ساويرس T.X. ص ٤٩٢ — ٤٩٥ .

لم يلبثوا طويلا حتى فقدوا قوة المقاومة واندمجوا فى العرب وأصبحت أغلبيتهم مسلمين كما أصبحت لغتهم هى اللغة العربية .

**انتشار الإسلام فى مصر :**

وقد كان تفشى الإسلام فى القبط أسرع من تغلب اللغة العربية عليهم . وقد رأينا عند كلامنا على الفتح العربى أن بعض القبط اعتنقوا الإسلام وحاربوا فى صفوف العرب ضد إخوانهم السابقين ومن هؤلاء شطا الذى قتل فى الحرب ضد أبو طور حاكم تنيس .

وقد أخذ المصريون يدخلون فى الإسلام بعد ذلك لعدة عوامل منها رغبتهم فى التخلص من دفع الجزية . ويبالغ بطلر [1] فى ذكر أهمية هذا العامل وأثره فى دخول القبط فى الإسلام ويقول « وأصبح عبء الجزية ثقيلا لا ترضاه النفوس وأصبح أصحاب الجزية من اليهود والنصارى بعد حين وقد صاروا فى قلة ظاهرة بسبب من كان يسلم منهم عاماً بعد عام فكان هذا الأمر فاسداً إذ هو بمثابة رشوة لتحريض النصارى على الخروج من ملتهم » . فى حين يستهين لين پول بالضغط المالى على القبط فى دخولهم فى الإسلام فى كتابه قصة القاهرة [2] ونحن لا نستطيع أن نبالغ كما بالغ بطلر ولا أن ننكر أثر الجزية فى دخول القبط فى الإسلام لأن حوادث التاريخ تدل على أن الجزية كانت عاملا من العوامل التى أدت إلى دخول القبط فى الإسلام فقد ذكر أنه فى عهد ولاية عبد العزيز بن مروان على مصر دخل كثير من الرهبان فى الإسلام على أثر فرض جزية عليهم مقدارها دينار [3] بعد أن كانوا من قبل فى العهد البيزنطى لا يدفعون ضرائب بل يأخذون إعانات [4] . وذكر أيضاً أنه فى عهد مروان الثانى آخر الأمويين أعلن

(١) الفتح العربى لمصر ص ٣٤٠ — ٣٤١ .

(٢) شرحه هامش ص ٣٤١ .

(٣) خطط المقريزى ج ٢ ص ٤٩٢ ؛ ساويرس T.V. ص ٥١ .

(٤) Munier: *L'Egypte Byzantine*, p. 77.

واليه على مصر حفص بن الوليد سنة ١٢٧ ﻫ إعفاء كل من يعتنق الإسلام من الجزية فاعتنق نحو أربعة وعشرين ألفاً من الأقباط الدين الإسلامى[١] وكذلك فى عهد السفاح أسلم كثير من المسيحيين أغنياء وفقراء عند ماتقرر إعفاء كل من يعتنق الإسلام من الجزية [٢] . ومما يدل على الارتباط بين حركة انتشار الإسلام والجزية أن الجزية كانت تنقص شيئاً فشيئاً كلما دخل الأقباط فى الإسلام وتؤثر بذلك فى الخراج وقد ذكر اليعقوبى فى كتابه البلدان [٣] أن خراج مصر الذى كان فى عهد عمرو بن العاص اثنى عشر ألف ألف دينار وفى عهد عبد الله بن سعد بن أبى سرح أربعة عشر ألف ألف دينار أصبح فى خلافة معاوية خمسة آلاف ألف وفى خلافة هارون الرشيد أربعة آلاف ألف ثم ثبت بعد ذلك على ثلاثة آلاف ألف فى أواخر القرن الرابع الهجرى . وقد يزول عجبنا من دخول الأقباط فى الإسلام تخلصاً من مبلغ الجزية الضئيل إذا علمنا أن دين الأقباط فى ذلك العهد كان قد أصبح ضعيفاً [٤] . وقد ذكر الأستاذ H.R. Hall فى كتاب تاريخ العالم أن تغيير مصر ديانتها مرة باعتناقها المسيحية سهل عليها تغيير ديانتها مرة أخرى وإعتناق الإسلام « والذى حدث فى الحالين هو أن الإيمان السامى الجارف حطم الدين الأضعف الذى تصدى له . وقد استطاع أتباع النبى المسلم ( كذا ) بعد الفتح العربى أن يغيروا الدين واللغة نهائياً بفضل ما أوتوا من مضاء العزيمة واجتماع الكلمة . ولم يكن فى الإمكان إحداث مثل هذه الإنقلابات فى العصور القديمة بمصر . ولم يتيسر ذلك فى هذا الوقت إلا لأن الحضارة الوطنية كانت قد انحلت » [٥] . ومن العوامل

---

(١) ساويرس ، سير الآباء البطاركة ص ١١٦ — ١١٧ .

(٢) شرحه ص ١٨٩ — ١٩٠ .

(٣) ص ٣٣٩ وبطلر ، فتح العرب لمصر ص ٣٤١ .

(٤) Zaki Hassan: *Les Tulunides*, p. 216.

(٥) تاريخ العالم — المجلد الثانى ص ٣٠٤ « ترجمة وزارة المعارف المصرية » .

التى أدت إلى دخول القبط فى الإسلام أيضاً قرار عمر بن عبد العزيز الخاص بحرمان غير المسلمين من الوظائف[١] . ومنها أيضاً المضايقات التى كانت تنزل بالأقباط من جراء قرارات عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز والمتوكل ، فإن هذه المضايقات كانت لا تستطيع أن تؤثر فى القبط إذا كانوا متمسكين بدينهم أقوياء فى عقيدتهم ، أما وقد رأينا فيما سبق أن دينهم كان ضعيفاً فإننا لا نستبعد أن تكون تلك المضايقات سببا فى اعتناقهم للإسلام .

وفضلا عن ذلك فإن فشل الأقباط فى ثوراتهم لا بد أنه أضعف من روحهم المعنوية وجعلهم يتجهون نحو الإسلام ، والمؤرخون يذكرون أن عدداً كبيراً من القبط أسلموا على أثر إخماد ثورتهم بعد مجىء المأمون إلى مصر[٢] . وربما كان من أهم العوامل التى أدت إلى دخول القبط فى الإسلام اختلاطهم بالعرب بمرور الزمن إذ أن ذلك أدى إلى اندماجهم بهم اندماجاً تدريجياً . ومع أن لين پول[٣] يقول إن القبط ظلوا مدة طويلة متمسكين بدينهم الأصلى وكان عددهم حوالى سنة ٧٢٥ م ( أى فى أوائل القرن الثانى الهجرى ) نحو خمسة ملايين فإن أخبار السنوات التالية لهذا التاريخ تدل على أن العرب اندمجوا بأهالى البلاد من القبط واشتغلوا بأعمالهم التى كانوا يأنفون قبل ذلك من العمل بها ومن ذلك ما نعلمه من أن إسقاط العرب من ديوان العطاء فى عهد المعتصم لم يكن له رد فعل شديد فى مصر ، إذ لو كان العرب لا يزالون حتى ذلك الوقت يعتمدون فى حياتهم على العطاء لأحدث هذا الأمر فيهم هزة شديدة . وفضلا عن ذلك فإن العرب فى مصر فى القرن الثالث الهجرى أصبحوا يكتبون على شواهد قبورهم اسم الجهة أو الإقليم

---

(١) ساويرس *T. V.* ص ٧١ — ٧٢ .

(٢) المقريزى ، الخطط ج ١ ص ٧٩ — ٨٠ .

(٣) Lane-Poole: *A History of Egypt in the Middle Ages*, p. 28.

بعد أن كانوا أولا يكتبون اسم القبيلة[١] . فإن فى هذا الأمر ما يدل على اتجاههم نحو الاستقرار ونسيان حياة البداوة الأولى .

### انتشار اللغة العربية :

أما انتشار اللغة العربية فى مصر فقد بدأ منذ وطئت أقدام العرب أرض مصر لأنهم كانوا السادة الفاتحين . ولكنه لم يتقدم كثيراً إلا بعد أن أصبحت اللغة العربية هى لغة الدواوين الرسمية فى مصر سنة ٨٧ هـ (٧٠٦ م) فى ولاية عبد الله بن عبد الملك ( ٨٦ — ٩٠ هـ ) الذى عنه إنه « أول من نقل الدواوين إلى العربية وإنما كانت بالعجمية »[٢] . وقد جاء عمله هذا تتمة لما بدأه الخليفة عبد الملك بن مروان فى أنحاء الدولة الإسلامية . ولاشك أن هذا العمل أدى إلى تخلى أهلى الذمة عن مناصبهم للعرب أو إلى المصريين الذين كانوا قد تعلموا العربية وربما أدى أيضاً إلى تعلم العربية كى يعودوا ثانية إلى مناصبهم التى فقدوها . وقد كان انتشار اللغة العربية فى مصر أبطأ من انتشار الدين الإسلامى وقد يدل على ذلك أن الشعب المصرى كان معظم أفراده يدينون بالإسلام عندما حضر المأمون إلى مصر ولكنه كان لايزال يتخاطب باللغة القبطية مما اضطر المأمون أن يمشىوالتراجمة بين يديه من كل جنس[٣] . وإذا كان الانجيل وكتب دينية مسيحية قد ترجمت إلى العربية للأصبغ بن عبد العزيز بن مروان فى ولاية أبيه على مصر فإن هذا العمل كان عملا خاصاً قصد به أحد العرب أن يتعرف على ما يمس الدين الإسلامى فى هذه الكتب . أما الكتابة والتأليف باللغة العربية فى مصر فحدث فى القرن الرابع الهجرى إذ كتب البطرك الملكانى سعيد بن البطريق

---

(١) Wiet: *Précis de l'Histoire de l'Egypte*, t. II, pp. 136-137.

(٢) السيوطى ، حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٦ .

(٣) المقريزى ، الخطط جـ ١ ص ٨١ .

كتابه فى التاريخ المعروف باللغة العربية وكتب ساويرس أسقف الأشمونين كتابه الآباء البطاركة بالعربية أيضاً وقام بجمع الوثائق اليونانية والقبطية وترجمها . وهذا يدلنا على أن اللغة العربية أصبحت فى القرن الرابع الهجرى لغة الكلام والتخاطب بين المصريين ولغة الكتابة أيضاً . ولا شك أن من بين العوامل التى أدت إلى انتشار العربية فى مصر الدخول فى الإسلام إذ أن المسلمين كانوا بطبيعة الحال يتعلمون العربية ليقرأوا القرآن ويتثقفوا بالثقافة الإسلامية .

# الفصل الخامس

## الحالة العلميـــة

كانت الحالة العلمية قد ضعفت فى مصر فى أواخر العصر البيزنطى لأن الرهبان كانوا يمقتون الثقافة الإغريقية ولأن السواد الأعظم من أتباع الكنيسة المصرية كانوا على مذهب الطبيعة الواحدة ومعنى ذلك أنهم كانوا يؤازرون الحركة القومية التى كانت تقف موقف العداء من الثقافة السائدة فى عاصمة الإمبراطورية[1] .

ومن الواضح أن الحضارة الهيلينية كانت تحتضر فى القرن السادس ولكن موتها كان بطيئاً لأنها عانت طويلا قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة[2] .

وعندما نبلغ القرن السابع نجد من الأدلة الواضحه ما يثبت أن اللغة الإغريقية وكل ما يتعلق بها كانت تندثر فى البلاد . وقد تزايد استعمال اللغة القبطية فى تحرير العقود القانونية وغيرها من الوثائق بل وجد بين أقطاب الكنيسة من كانوا يجهلون الإغريقيـة مثل إبراهام أسقف هرمونتيس Hermonthis ( أرمنت ) الذى يتبين من وصيته المدونة على بردية مودعة الآن بالمتحف البريطانى أنه أملاها باللغة القبطية لتكتب باللغة الأغريقية ، وأوراق البردى الأدبية التى وصلتنا من ذلك العصر قليلة العدد ومحصورة فى دائرة ضيقة من الكتاب . وكثيراً ما نجد برديات القرن السابع المحتوية على نصوص مسيحية كالتراتيل والأدعية والآيات المقتبسة من الكتاب المقدس ( التى كانت تستعمل كتمائم ) نجدها مضطربة وحافلة بالأخطاء مما يدل على أن

---

(١) بل : مصر من الاسكندر حتى الفتح العربى ص ٢٤٨ .

(٢) شرحه .

كاتبيها كانوا لا يفهمون مايدونونه إلا فهماً سطحياً مهوشاً[١] .

وقد يحاول البعض أن ينسب إلى العرب أنهم قضوا على الثقافة الهيلينية فى مصر باتهامهم بإحراق مكتبة الاسكندرية ولكن من الواضح هنا أنه لم تكن فى مصر عند وصول العرب إليها ثقافة هيلينية ليقضى عليها . أضف إلى ذلك أننا بينا فى هذا الكتاب فيما سبق[٢] أن اتهام عمرو بن العاص بإحراق مكتبة الاسكندرية محض افتراء مدسوس على العرب .

ومما لا شك فيه أنه قامت فى مصر بدخول العرب حركة علمية جديدة ذات صبغة إسلامية كالتى قامت فى غيرها من ولايات الدول الإسلامية . وقام بهذه الحركة فى بادىء الأمر الصحابة الذين اشتركوا فى فتح مصر أو الذين قدموا إليها بعد فتحها وأخذوا يعلمون المسلمين فيها . وكانوا جميعاً من العرب . وكان على رأسهم عبد الله بن عمرو بن العاص الذى كتب كثيراً من الأحاديث التى أخذها عن النبى صلى الله عليه وسلم فى صحيفته « الصادقة » والذى كان يفتى فى مصر كما كان يفتى فى المدينة عبد الله بن عمر وفى مكة عبد الله بن عباس وفى الكوفة عبد الله بن مسعود والذى يقال إنه أسلم قبل أبيه وأخذ عنه أهل مصر أكثر من مائة حديث[٣] .

وبمرور الزمن وجدت فى مصر طبقة من العلماء أخذوا عن الصحابة والتابعين وعن تابعيهم وكانت أغلبية هؤلاء العلماء من غير العرب كما كان الحال فى غير مصر . وقد اشتهر من هؤلاء العلماء عدد كبير فى نواحى العلم المختلفة فكان منهم الفقهاء والمحدثون والقصاص ورجال اللغة والأدب والتاريخ .

### الفقهاء :

أما الفقهاء فقد كان منهم يزيد بن أبى حبيب واسمه أبو رجاء المصرى

---

(١) بل : مصر من الاسكندر حتى الفتح العربى ص ٢٥١ — ٢٥٢ .

(٢) أنظر ص ٢٠ — ٢٧ .

(٣) السيوطى ، حسن المحاضرة جـ ١ ص ٩٠ — ٩١ .

وكان « فقيه مصر وشيخها ومفتيها لقى عبد الله بن الحارث بن جزء وروى عن سالم ونافع وعكرمة وعطاء وخلف وعنه [ أخذ ] ابن لهيعة والليث وآخرون . وقال ابن سعد كان ثقة كثير الحديث . وقال ابن يونس كان مفتى أهل مصر وهو أول من أظهر العلم بمصر والمسائل فى الحلال والحرام ... وهو أحد ثلاثة جعل إليهم عمر بن عبد العزيز الفتيا . وقال الليث هو سيدنا وعالمنا . مات سنة ثمان وعشرين ومائة » . وكان من الفقهاء أيضاً عبد الله ابن لهيعة الذى تولى قضاء مصر عشر سنين ( ١٥٥ — ١٦٤ ﻫ ) وتوفى سنة ١٧٤ ﻫ وقيل سنة ١٧٠ ﻫ وسنة ١٦٤ ﻫ أيضاً[1] . وكذلك كان منهم الليث ابن سعد بن عبد الرحمن الفهمى أبو الحارث المصرى الذى ولد بقرة قشندة سنة ٩٤ ﻫ وقال عنه ابن سعد إنه كان ثقة كثير الحديث صحيحه . وقد اشتغل بالفتوى فى زمانه بمصر « وكان سرياً من الرجال نبيلا سخياً له ضيافة . وقال يحيى بن بكير ما رأيت أحداً أكمل من الليث كان فقيه النفس عربى اللسان يحسن القرآن والنحو ويحفظ الحديث والشعر حسن المذاكرة . وقال الشافعى كان الليث أفقه من مالك إلا أنه ضيعه أصحابه ... وقال الذهبى فى العبر كان نائب مصر وقاضيها من تحت أوامر الليث وكان إذا رابه من أحد شىء كاتب فيه فيعزله . وقد أراد المنصور أن يوليه إمرة مصر فامتنع . مات يوم الجمعة رابع عشر شعبان سنة خمس وسبعين ومائة كذا ذكره غير واحد وقال ابن سعد سنة خمس وستين . وحكى ابن خلكان أنه سمع قائلا يقول يوم مات الليث :

ذهب الليث فلا ليث لكم ... ومضى العلم غريباً وقبر

فالتفتوا فلم يروا أحداً »[2] . هذا عدا جماعة من الفقهاء أدخلوا المذهب المالكى إلى مصر ونشروه فيها وتفقهوا فى أحكامه ومنهم عبد الرحيم بن خالد

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٢٠ .

(٢) السيوطى ، حسن المحاضرة ج ١ ص ١٢٠ — ١٢١ .

ابن يزيد بن يحيى مولى جمح ( + ١٦٣ هـ ) وعثمان بن الحكم الجذامى ( + ١٦٣ ) ، ويقال إنهما أدخلا هذا المذهب إلى مصر . وطليب بن كامل اللخمى ( + ١٧٣ هـ ) وأصله أندلسى سكن الاسكندرية[١] . وسعيد ابن عبد الله بن أسعد المعافرى ( +١٧٣ هـ ) وعبد الرحمن بن القاسم بن خالد ابن جناده ( + ١٩١ هـ ) ويقال إنه نشر هذا المذهب فى مصر . وعبد الله ابن وهب بن مسلم المصرى الفهرى مولاهم أبو محمد ( + ١٩٧ هـ ) الذى تفقه بمالك والليث وجمع بين الفقه والرواية والعبادة على ما يقول ابن يونس ، وله تصانيف كثيرة وكانوا أرادوه على القضاء فتغيب . وقال ابن فرحون قالوا لم يكتب مالك لأحد قط بالفقيه إلا إلى ابن وهب . . . وقال ابن صالح مارأيت أكثر حديثاً منه حدث بمائة ألف حديث . قرىء عليه كتابه فى أهوال القيامة فخر مغشياً عليه فلم يتكلم بكلمة واحدة حتى مات بعد أيام »[٢]. وأشهب بن عبد العزيز بن داود بن ابراهيم القيسى العامرى المصرى ( + ٢٠٤ هـ ) وعبد الله بن عبد الحكم ( + ٢١٥ هـ ) وأبناؤه عبد الحكم ( + ٢٣٧ هـ ) وعبد الرحمن ومحمد ( + ٢٦٨ هـ ) . وقد كان عبد الحكم أكبرهم وأفقههم وأجل أصحاب ابن وهب بمصر و « مات بمصر سنة سبع وثلاثين ومائتين معذباً فى فتنة خلق القرآن . دخن عليه بالكبريت حتى مات[٣] . وكان عبد الرحمن مؤرخاً معروفاً خلف لنا كتابه فتوح مصر . أما محمد فكان من علماء المالكية المعروفين . وكذلك من فقهاء المالكية المعروفين أبو عمرو الحارث بن مسكين المصرى ( + ٢٥٠ هـ ) وأبو الطاهر أحمد بن عمرو بن السرح الأموى بالولاء المصرى ( + ٢٥٠ هـ ) .

ويمكننا أن نعتبر الإمام محمد بن إدريس الشافعى القرشى صاحب المذهب

---

(١) السيوطى ، حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٢١ .

(٢) السيوطى ، حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٢١ .

(٣) شرحه ص ٧٩٠ .

من فقهاء مصر فى تلك الفترة أيضاً . وذلك لأنه على الرغم من أنه ولد بغزة سنة ١٥٠ هـ أو بعسقلان أو اليمن أو منى على اختلاف الأقوال ، ونشأ بمكة وحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين والموطأ وهو ابن عشرة وتفقه على مسلم بن خالد الزنجى مفتى مكة وأذن له فى الإفتاء وعمره خمس عشرة سنة[١] ، إلا أنه قدم إلى مصر سنة ١٩٨ هـ وأقام بها وأخذ عنه علماؤها وصنف بها كتبه وكون مذهبه الجديد ومات بها سنة ٢٠٤ هـ . ومن أشهر كتبه التى ألفها فى مصر الأم والأمالى الكبرى والأملاء الصغير ومختصر البويطى ومختصر المزنى ومختصر الربيع والرسالة والسنن . وقد قال ابن زولاق عنه «صنف الشافعى » نحواً من مائة جزء ولم يزل بها ناشراً للعلم ملازماً للاشتغال بجامع عمرو إلى أن أصابته ضربة شديدة مرض بسببها أياماً ثم مات يوم الجمعة سلخ رجب سنة أربع ومائتين . . . قال الإمام أحمد إن الله تعالى يقيض للناس فى كل رأس مائة سنة من يعلمهم السنن وينفى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الكذب فنظرنا فإذا فى رأس المائة سنة عمر بن عبد العزيز وفى رأس المائتين الشافعى . . . قال الأسنوى الشافعى أول من صنف فى أصول الفقه بالإجماع وأول من قرر ناسخ الحديث من منسوخه وأول من صنف فى أبواب كثيرة من الفقه معروفة[٢] .

وقد اتبع المصريون مذهب الشافعى ولم يمض قرن من الزمان حتى أصبح ينافس مذهب مالك فى مصر . وبرز فى مصر من فقهاء الشافعية عدد ليس بالقليل منهم أبو يعقوب يوسف بن يحيى البويطى الذى جلس فى مجلس الشافعى بعد وفاته وحمل فى عهد الواثق إلى بغداد وامتنع عن القول بخلق القرآن فسجن فى بغداد ومات فى السجن سنة ٢٣١ هـ[٣] ومنهم أيضا

(١) السيوطى ، حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٢١ .

(٢) السيوطى ، حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٢٢ .

(٣) شرحه ص ١٢٣ .

عبد العزيز بن عمران بن أيوب الخزاعى المصرى وكان من أكابر المالكية أولا ولما قدم الشافعى لازمه وتفقه على مذهبه حتى توفى سنة ٢٣٤ هـ . ومنهم أيضاً الربيع بن سليمان بن داود الأزدى الجيزى أبو محمد الذى مات بالجيزة ودفن بها فى ذى الحجة سنة ٢٥٦ هـ[١] وأبو إبراهيم اسماعيل بن يحيي المزنى ( + ٢٦٤ هـ ) وهو « الإمام الجليل ناصر المذهب . قال فيه الشافعى لو ناظر الشيطان لغلبه ، وكان إماماً ورعاً زاهداً مجاب الدعوة متقللا من الدنيا . . . قال الأسنوى صنف كتباً منها المبسوط والمختصر والمنثور والمسائل المعتبرة والترغيب فى العلم وكتاب الوثائق والعقارب سمى بذلك لصعوبته وصنف كتاباً مفرداً على مذهبه لا على مذهب الشافعى . . . وتوفى لست بقين من رمضان سنة أربع وستين ومائتين ودفن قريباً من قبر الشافعى[٢] » . ومنهم أيضا الربيع بن سليمان المرادى أبو محمد المصرى « صاحب الإمام الشافعى وراوى كتبه والمؤذن بجامع الفسطاط ، روى عنه أصحاب السنن الأربعة والطحاوى وأبو زرعه الرازى وغيرهم وأملى الحديث بجامع ابن طولون وهو أول من أملى به ووصله ابن طولون يومئذ بجائزة سنية . ولد سنة أربع وسبعين ومائة ومات يوم الإثنين لعشر بقين من شوال سنة سبعين ومائتين[٣] » . ومنهم أيضا قحزم بن عبد الله الأسوانى الذى يكنى بأبى حنيفة ، وكان أصله قبطياً . وكان من أجلة أصحاب الشافعى الآخذين عنه ، وكان مقيما بأسوان يفتى بها على مذهبه مدة سنين توفى بها سنة إحدى وسبعين ومائتين[٤] » .

هذا ولم ينتشر مذهب أبى حنيفة فى مصر ولم يوجد بها علماء على هذا

---

(١) السيوطى ، حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٦٧ .

(٢) السيوطى ، حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٢٣

(٣) شرحه ص ١٤٦ .

(٤) شرحه ص ١٦٧ .

المذهب اللهم إلا القضاة الذين كان يعينهم الخلفاء العباسيون الذين كانوا يتبعون هذا المذهب .

**القصاص :**

ومن قبيل الفقهاء القصاص وهم الوعاظ . وغالباً ما كان القصص يسند إلى القضاة . وقد ذكر أن أول من قص بمصر سليم بن عنزة التجيبى المصرى أبو سلمة وكان ذلك سنة ٣٩ هـ . وقد ولاه معاوية سنة ٤٠ هـ القضاء أيضاً فأقام قاضياً بمصر عشرين سنة وكانت وفاته سنة ٧٥ هـ[١] . وذكر أيضاً أن ثوبة بن نمر بن حرمل الحضرمى أبو محجن المصرى جمع القضاء والقصص بمصر وكانت وفاته سنة ١٢٠ هـ[٢] . كما ذكر أيضاً أن جبر ابن نعيم بن مرة الحضرمى المصرى جمع القضاء والقصص بمصر وكانت وفاته سنة ١٣٧ هـ[٣] . على أن القصص كان يقوم به أحياناً غير القضاة . وقد ذكر أن عمر بن عبد العزيز جعل القصص بالاسكندرية للحلاج أبو كثير الأموى المصرى ( + ١٢٠ هـ ) مولى عبد العزيز بن مروان[٤] . كما ذكر أيضاً أن عقبة بن مسلم التجيبى أبو محمد ( + ١٢٠ هـ ) إمام جامع عمرو كان يتولى القصص[٥] . وذكر أن حسن بن ربيع ابن سليمان تولى القصص فى جامع عمرو سنة ٢٤٠ هـ فى زمن المتوكل[٦] .

**حفاظ الحديث :**

وفضلا عن الفقهاء والقصاص فقد وجد فى مصر فى هذه الفترة أيضاً

---

(١) السيوطى ، حسن المحاضرة جـ ١ ص ١١٨ .

(٢) شرحه ص ١١٩ .

(٣) شرحه ص ١٢٠ .

(٤) السيوطى ، حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٠٨ .

(٥) شرحه ص ١٥٩ .

(٦) السيوطى ، حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٣٦ .

جماعة من أجلة حفاظ الحديث ونقاده نذكر منهم الأعرج عبد الرحمن ابن داود المدنى صاحب أبى هريرة الذى توفى بالاسكندرية سنة ١١٧ ﻫ وأشاد بفضله البخارى فقال أصح أسانيد أبى هريرة ماكان عن طريق أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة(١). ومنهم أيضاً أسد السنة أسد بن موسى ابن ابراهيم بن الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموى المصرى الذى ولد بمصر سنة ١٣٢ ﻫ ومات بها فى المحرم سنة ٢١٢ ﻫ(٢). ومنهم عبد الله بن يوسف التنيسى أبو محمد الدمشقى راوى الموطأ نزيل تنيس وقد قال فيه البخارى إنه كان من أثبت الشاميين وقد مات بمصر سنة ٢١٨ ﻫ عن ثمانين سنة(٣). ومنهم أبو بكر محمد بن عبد الله بن عبد الرحيم البرقى الذى أخذ الحديث عن أسد السنة ثم أخذ عنه أبو داود والنسائى. وقد مات سنة ٢٤٩ ﻫ(٤).

**علماء اللغة والأدب والأخبار :**

وكذلك وجد فى مصر جماعة من علماء اللغة والأدب والأخبار نذكر منهم أبو قبيل المغافرى المصرى حيي بن ناظر (+ ١٢٨ ﻫ) فإنه كان له علم بالملاحم والفتن. وأحمد بن يحيي بن الوزير التجيبى المصرى (+ ٢٠٥ ﻫ) فإنه كان عالماً بالشعر والأدب والأخبار وأيام الناس. ويلاحظ أن المسلمين فى مصر قبل يزيد بن أبى حبيب كانوا يتحدثون فى الملاحم والفتن(٥). وعبد الملك بن هشام بن أيوب المغافرى صاحب السيرة (+ ٢١٨ ﻫ). فإنه «كان إماماً فى اللغة والنحو والعربية أديباً أخبارياً نسابة» وقد سكن

---

(١) السيوطى، حسن المحاضرة ج ١ ص ١٤٥.

(٢) شرحه ص ١٤٥.

(٣) شرحه.

(٤) شرحه ص ١٤٦.

(٥) شرحه ص ١١٧ و ١١٩ — ١٢٠.

مصر ، واجتمع به الشافعى حين وردها وتناشدا من أشعار العرب أشياء كثيرة »[1] .

**الشعراء :**

هذا وقد قدم مصر فى هذه الفترة جماعة من الشعراء العرب المعروفين أمثال جميل بن معمر العذرى ( + ١٢٠ ﻫ ) صاحب بثينة ، وقد قدمها على عبد العزيز بن مروان فأكرمه[2] . ومن أمثال كثير عزة بن عبد الرحمن ابن الأسود بن عامر أبو صخر الخزاعى ( + ١٥٠ ﻫ أو ١٧٠ ﻫ ) . ويقال إنه كان أشعر الإسلاميين . وقد أقام بمصر مدة يمدح عبد العزيز بن مروان وزار قبر صاحبته عزة فى مصر ورثاها . ويقال إن شعره تغير بعدها فقال له قائل ما بال شعرك قد قصرت فيه فقال ماتت عزة فلا أطرب وذهب الشباب فلا أعجب ومات عبد العزيز بن مروان فلا أرغب وإنما الشعر عن هذه الخلال »[3] . ومن أمثال نصيب بن رياح الشاعر أبو محجن مولى عبد العزيز بن مروان وكان بمصر أيام مولاه ومات سنة ١٨٠ ﻫ . ومن أمثال أبو نواس الحسن بن هانىء الشاعر المشهور . وقد أقام بمصر مدة وركب ذات يوم فى النيل لحذر من التمساح فقال :

أضمرت للنيل هجراناً وتقلية إذ قيل لى إنما التمساح فى النيل

وقد مات ببغداد سنة ١٩٥ ﻫ . وأبو تمام حبيب بن أوس الطائى المشهور ملك شعراء العصر . وهو شاعر شامى زار مصر . ويقال إنه كان فى حداثته يسقى الماء فى المسجد الجامع بمصر ثم جالس الأدباء وأخذ عنهم حتى قال الشعر وأجاد وشاع ذكره ، وبلغ خبره المعتصم فاستدعاه إليه فقدم بغداد وعاشر العلماء وتقدم على الشعراء فى زمنه ، وكانت وفاته سنة ٢٢٨ ﻫ بالموصل ، وقيل بعد الثمانين .

---

(١) السيوطى ، حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٢٨ .

(٢) شرحه ص ٢٣٩ .

(٣) السيوطى ، حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٣٩ — ٢٤٠ .

**علماء اشتغلوا بعلوم أخرى :**

وعلى ذلك فإن العلوم التى كانت تدرس فى ذلك الوقت فى مصر وفى العالم الإسلامى كله هى علوم القرآن بما فيها علم القراءات والتفسير وعلم الحديث والنحو والشعر واللغة . على أنه وجد فى ذلك العصر أيضاً علماء اشتغلوا العلوم الأخرى ، ومن هؤلاء ذو النون ثوبان بن ابراهيم أبو الفيض أحد مشايخ الطريق المذكورين فى رسالة القشيرى ، وهو أول من عبر عن علوم المنازلات . وأنكر عليه أهل مصر وقالوا أحدث علماً لم تتكلم فيه الصحابة وسعوا به إلى الخليفة المتوكل ورموه عنده بالزندقة وأحضره من مصر على البريد فلما دخل سر من رأى وعظه فبكى المتوكل ورده مكرماً ، وكان مولده بإخميم ، وحدث عن مالك والليث وابن لهيعة وروى عنه الجنيد وآخرون وكان أوحد وقته علماً وورعاً وحالا وأدباً ومات فى ذى القعدة سنة خمس وأربعين ومائتين وقد قارب التسعين[1] . ويقال إن ذا النون اشتغل بالكيميا ( علم الصنعة ) ووضع كثيراً من تعاليم الصوفية .

**جامع عمرو ، مركز الحركة العلمية :**

وكان مركز الحركة العلمية فى مصر فى تلك الفترة هو جامع عمرو ابن العاص الذى كان « ملتقى العلماء والفقهاء والأئمة وإليه يلجأ الناس للاستفتاء وإليه يفد الطلاب لتلقى العلوم التى كانت تدرس فى ذلك الحين ومنه يتخرج خيرة العلماء والفقهاء »[2] .

**تأثر المغرب والأندلس بالحركة العلمية فى مصر :**

وكانت الحركة العلمية التى اشتغل بها العرب فى مصر فى ذلك الوقت لها تأثير عظيم فى بلاد المغرب والأندلس إذ كان يفد الطلاب والعلماء من تلك

---

(١) السيوطى ، حسن المحاضرة ج ١ ص ٢١٨ .

(٢) سيدة الكاشف ، مصر فى فجر الإسلام ص ٣٢٨ .

الجهات لتلقى العلم على علماء مصر كما كان بعض هؤلاء العلماء يذهبون إلى تلك البلاد للتعليم فيها . ومن علماء أفريقية الذين تلقوا علمهم فى مصر البهلول ابن راشد ( † ١٨٣ هـ ) ، ومن علماء الأندلس الذين درسوا فى مصر عيسى ابن دينار الذى كان لا يتقدمه أحد من قرطبة فى الفتيا . وقد نشر مذهب مالك فى الأندلس وتوفى سنة ٢١٢ هـ . ومن علماء الأندلس الذين زاروا مصر قاسم بن محمد بن قاسم الأموى بالولاء القرطبي الفقيه المحدث ، وقد قيل إنه زار مصر مرتين وتفقه على الحارث بن مسكين وعبد الله بن عبد الحكم .

### تأثر المشرق بالحركة العلمية فى مصر :

ولم يقتصر التأثير على بلاد المغرب والأندلس بل إن بعض علماء المشرق كانوا يفدون إلى مصر ويتلقون العلم على علمائها . ومن هؤلاء عبدان أبو محمد عبد الله بن محمد بن عيسى المروزى الفقيه الحافظ مفتى مرو وعالمها وزاهدها فإنه أقام بمصر سنتين وقرأ على المزنى والربيع ثم ذهب إلى خراسان ونشر بها مذهب الشافعي . وقد كانت وفاته سنة ٢٩٣ هـ[١] . ومنهم أيضاً محمد بن نصر المروزى الإمام أبو عبد الله أحد أئمة الفقهاء . وقد ولد ببغداد ونشأ بنيسابور وأقام بمصر مدة من الزمن وأخذ الفقه فيها عن محمد بن عبد الله ابن عبد الحكم الذى قال عنه « كان محمد بن نصر عندنا إماماً » . وقد قال فيه العلماء « لم يكن للشافعية فى وقته مثله » ، وقد رجع من مصر واستوطن سمرقند ، وكانت وفاته سنة ٢٩٤ هـ[٢] .

### تشجيع الخلفاء والولاة للحركة العلمية فى مصر :

ويجب أن نلاحظ أن الخلفاء المسلمين والولاة كانوا يشجعون العلم

---

(١) السيوطى ، حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٤٦ .

(٢) شرحه ص ١٢٤ .

والعلماء فى مصر كما كانوا يشجعونها فى غيرها من الولايات . وقد ذكر أن عمر بن الخطاب أرسل حبان بن أبى جبلة إلى أهل مصر يفقهم فى الدين[١] . كما ذكر أيضاً أن عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموى التقى الصالح حفيد عمر بن الخطاب بعث نافع مولى ابن عمر فقيه أهل المدينة إلى مصر ليعلم أهلها السنن فأقام بها مدة وكان موته سنة ١٢٠ هـ . وكذلك أمر عمر بن عبد العزيز جعثل بن عاهان بن سعيد الرعينى القتبانى المصرى أحد القراء والفقهاء بالخروج من مصر إلى المغرب ليقرئهم القرآن . وقد ذهب إلى هناك وولى القضاء فى عهد هشام بن عبد الملك الخليفة الأموى ومات سنة ١١٥ هـ[٢] . أضف إلى ذلك أن عبد العزيز بن مروان والى مصر ، كان يعطى عبد الرحمن بن حجيرة الخولانى أبو عبد الله المصرى قاضى مصر ألف دينار فى السنة ، كما أنه كان يحضر أبا الخير مرثد بن عبد الملك اليزنى الحميرى (+ ٩٠ هـ) مفتى أهل مصر فى زمنه ويجلسه للفتيا[٣] » .

(١) السيوطى ، حسن المحاضرة ج ١ ص ٨١ .

(٢) شرحه ص ١١٩ .

(٣) شرحه ص ١١٨ .

# الباب الثالث

## الدولة الطولونية

( ٢٥٤ — ٢٩٢ هـ = ٨٦٨ — ٩٠٥ م )

---

# الفصل الأول

## موجز عن الأمراء الطولونيين

أحمد بن طولون :

حكمت الدولة الطولونية فى مصر حوالى ثمانية وثلاثين سنة . وهى تنسب إلى طولون والد أحمد بن طولون مؤسس هذه الدولة . وقد كان طولون مملوكا تركياً أهداه مع جماعة من الأتراك نوح بن أسد السامانى عامل بخارى إلى المأمون فى سنة ٢٠٠ هـ ويقال إلى الرشيد سنة ١٩٠ هـ[١] . وقد نشأ طولون فى البلاط العباسى وتدرج فيه وولد له أحمد سنة ٢١٤ هـ وقيل سنة ٢٢٠ هـ من جارية تركية اسمها قاسم أو هاشم . وقد « حكى ابن عساكر عن بعض مشايخ مصر أن طولون لم يكن أبا أحمد وإنما تبناه »[٢] وقد تربى أحمد كما كان يتربى أولاد الأتراك فى ذلك الوقت . ويقال إنه تعلم علوم اللغة العربية والدين الإسلامى وتفقه على مذهب الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان[٣]. كما تعلم العلوم العسكرية فى سامرا . ثم بعد ذلك

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٩ ، وابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١٥٦ .

(٢) شرحه .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٤ .

تردد على علماء طرسوس وأخذ عنهم العلوم والمعارف وبخاصة الحديث[١].
ثم تنقلت به الأحوال إلى أن ولى إمرة الثغور وإمرة دمشق[٢].

وقد جاء أحمد بن طولون إلى مصر سنة ٢٥٤ هـ نائباً عن واليها التركى باكباك (تذكر فى بعض الكتب بقبق) الذى كان قد تزوج من والدته بعد وفاة أبيه. ويلاحظ أن مجيء أحمد بن طولون إلى مصر نائبا عن والى تركى لم يكن شيئاً جديداً. إذ أن الخلفاء منذ المعتصم (٢١٨ – ٢٢٧ هـ) أخذوا يعينون ولاة من الأتراك فى ولايات الدولة. وقد سبق أن أشرنا إلى أن المعتصم عين فى مصر آشناس (٢١٩ – ٢٢٩ هـ) والواثق عين إيتاخ (٢٣٠ – ٢٣٥ هـ). وكان هؤلاء الأتراك يقيمون غالباً فى العاصمة لينعموا بحياة الترف ويحتفظوا بسلطانهم ويرسلون إلى الولايات نواباً عنهم يذكرون اسمهم فى الخطبة بعد اسم الخليفة وعلى السكة ويرسلون إليهم ما يفيض من الأموال.

### بعض الصعوبات التى اعترضت أحمد بن طولون :

على أنه يلاحظ أن نفوذ أحمد بن طولون فى مصر عند مجيئه لم يكن شاملا. إذ كانت الاسكندرية غير خاضعة له وكان واليها اسمه اسحق ابن دينار[٣] كما أنه كان يوجد بمصر عامل للخراج هو أحمد بن محمد بن المدبر وليها قبل مجيء أحمد بن طولون بعدة سنوات وكان له نفوذ كبير فيها حتى يقال إنه كان له حرس خاص يتألف من مائة فارس يتبعونه حيثما ذهب مرتدين الملابس الفاخرة والمزركشة. ولا يخفى أيضاً أن حرمان الوالى من شئون الولاية المالية كان يسلبه معظم السلطة والنفوذ. أضف إلى ذلك أنه كان فى مصر عامل للبريد اسمه شقير انضم إلى ابن المدبر فى العمل ضد أحمد

---

(١) Lane-Poole: *A History of Egypt in the Middle Ages*, pp. 60-61.

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢.

(٣) Zaki Hassan: *Les Tulunides*, p. 47.

ابن طولون ، وكانت توجد فى مصر أيضاً طوائف من الشيعة معادية للدولة العباسية تقتنص الفرص للإنقضاض عليها وكان على أحمد بن طولون أن يقضى على خطرها .

كيف تغلب أحمد بن طولون على الصعوبات :

وقد استطاع أحمد بن طولون أن يتغلب على هذه المصاعب الواحدة بعد الأخرى . أما الاسكندرية فإنها ضمت إليه بعد وفاة باكباك زوج أمه الذى كان ينوب عنه فى مصر . وذلك أن حماه يارجوخ (تذكر يارجوخ وبرقوق أيضاً) ولى مصر من قبل الخليفة العباسى وأرسل إليه يقول « تسلم من نفسك لنفسك » وضم إليه الاسكندرية فخرج إليها وتسلمها وكان ذلك فى ٨ رمضان سنة ٢٥٦ ه[١] .

مشكلة ابن المدبر وشقير :

وأما ابن المدبر ومساعده شقير عامل البريد فإن أحمد بن طولون لم يتغلب عليهما إلا بعد جهود طويلة . ويقال إنهما أخذ يرسلان الرسل إلى عاصمة العباسيين ليفسدا الجو هناك على أحمد بن طولون كما أن شقيرا أرسل كتاباً يقول فيه إن أحمد بن طولون يعمل على الاستقلال بمصر . ولكن يارجوخ كان يساعد أحمد بن طولون فى البلاط العباسى كما أن أحمد ابن طولون كان يرسل رسله بالأموال والهدايا إلى البلاط العباسى ليكسب ود رجاله . وقد نجح فى ذلك فعلا وظلت ريح الخطر راكدة لم تهب عليه من تلك الجهة . وقد حدث مرة أن استدعى أحمد بن طولون إلى بغداد ليسأل عما يفعل على أثر وصول كتاب شقير ولكن أحمد لم يذهب وأرسل كاتبه أبا عبد الله أحمد بن محمد الواسطى بالرشاوى والجزية وبذلك نال

---

(١) الكندى : كتاب الولاة وكتاب القضاة ص ٢١٥ — ٢١٦ ، وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٣ ص ٧ و Lane-Poole: *A History of Egypt*, p. 62.

المحظوة هناك[١] . وقد اضطر ابن المدبر أخيراً أن يفكر فى ترك مصر وعندما عرضت عليه ولاية الخراج بسورية اعتبر الفرصة مواتية للخلاص وقبل هذا العرض . ويقول أبو المحاسن[٢] عن أحمد بن طولون « ثم ورد عليه كتاب المعتمد يستحثه فى جمع الأموال فكتب إليه ابن طولون : لست أطيق ذلك والخراج فى يد غيرى فأرسل المعتمد على الله إليه نفيساً الخادم بتقليده الخراج وبولايته الثغور الشامية . فأقر أحمد بن طولون عند ذلك أبا أيوب أحمد بن محمد بن شجاع على الخراج وعقد لطخشى بن بلبرد على الثغور فخرج إليها فى سنة أربع وستين ومائتين فصار الأمر كله بيد أحمد بن طولون وقويت شوكته بذلك وعظم أمره بديار مصر ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل إن أحمد بن طولون وثب بعد ذلك سنة ٢٦٧ هـ على أحمد بن محمد بن المدبر حين كان متولياً لخراج دمشق والأردن وفلسطين وحبسه وأخذ أمواله ثم صالحه على ستمائة ألف دينار[٣] . أما شقير فإن أحمد بن طولون استدعاه ليسأله عما فعله من إرسال الكتاب الذى قال عنه فيه أنه كان يعمل للاستقلال بأمر مصر . وعندما وصل إليه ضربه رجال الشرطة حتى مات بعد ذلك من أثر الضرب[٤] .

### ثورات الشيعة :

وقد قامت ضد أحمد بن طولون عدة ثورات شيعية ولكنه استطاع التغلب عليها جميعاً . وكانت إحدى هذه الثورات فى مكان يسمى الكنائس بين الاسكندرية وبرقة وكان على رأسها بغا الأصغر وهو أحمد بن محمد بن

---

(١) ابن الداية : سيرة ابن طولون ص ١١ Lane-Poole: *A History of Egypt in the M. Ages*, p. 63.

(٢) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٧ .

(٣) شرحه ص ٤٣ .

(٤) Zaki Hassan: *Les Tulunides*, p. 44.

عبد الله بن طباطبا . وقد قامت فى جمادى الأولى سنة ٢٥٥ هـ وسار بغا الأصغر إلى الصعيد ثم قتل هناك وحمل رأسه إلى مصر فى شعبان من السنة نفسها[١] . وأما الثورة الشيعية الثانية التى واجهها أحمد بن طولون فى مصر فقد قامت فى منطقة إسنا وقد أزكى نارها ابراهيم بن محمد بن يحيى بن عبد الله ابن محمد بن عمر بن على بن أبى طالب المعروف بابن الصوفى وثارت بسببها هناك كثير من الاضطرابات والنهب والقتل . وقد أرسل ابن طولون جيشاً للقضاء عليها ولكنه كسر فى ربيع الأول سنة ٢٥٦ هـ ثم أرسل جيشاً آخر أخمدها فى إخميم وطارد ابن الصوفى إلى الواحات . وقد اختفى بالواحات سنتين ثم هرب إلى أسوان ثم إلى عيذاب على البحر الأحمر ثم إلى مكة . وهناك قبض عليه واليها وأرسله إلى ابن طولون فحبسه مدة ثم أطلقه فذهب إلى المدينة وأقام بها حتى مات[٢] .

وفضلا عن هذا فإن سلطة أحمد بن طولون كانت معرضة للخطر بسبب قيام شخص من نسل عمر بن الخطاب يسمى العمرى بمنطقة أسوان وادعائه أنه يعمل على حماية مصر من خطر النوبة . وقد أرسل أحمد بن طولون إليه بعض القوات ولكنه هزمها وكانت نهايته على يد أحد خدمه إذ أنه قتله وقطع رأسه وأحضرها إلى أحمد بن طولون[٣] .

ثورة العباس :

وقد قامت ثورة أخرى ضد أحمد بن طولون واستمرت ثلاث سنوات ( ٢٦٥ — ٢٦٨ هـ ) وكانت من أقرب الناس إليه وهو ابنه الأكبر العباس . وقد حدثت عندما كان أحمد بن طولون بالشام سنة ٢٦٥ هـ وأقلقته إقلاقاً

---

(١) ابو المحاسن . النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٦ .

(٢) الكندى : كتاب الولاة ص ٢١٣ — ٢١٤ والمقريزى ، الخطط جـ ٢ ص ٢١٩ ، وأبو المحاسن جـ ٣ ص ٦ ، و Lane-Poole: *A Hist. of Egypt*, pp. 62 .

(٣) ابن الداية : سيرة ابن طولون ص ٢٧ .

عظيما واضطرته إلى العودة إلى مصر . ويقول أبو المحاسن فى ذلك[١] أنه فى سنة ٢٦٥ هـ « خرج العباس بن أحمد بن طولون إلى برقة مخالفاً لأبيه . وكان أبوه قد استخلفه على مصر لما توجه إلى حصار سيما الطويل فى أنطاكية . . . » . ويذكر المؤرخون من أسباب هذه الثورة غيرة العباس من الواسطى كاتب أبيه الذى كانت له حظوة كبيرة عند أبيه . وكذلك تقريب العباس لكثير من الأدباء والعلماء فى غيبة أبيه ورغبته فى إسناد بعض الأعمال الإدارية والحربية إليهم ومعارضة الواسطى فى ذلك ووقوف ابن طولون فى صف الواسطى . ومن تلك الأسباب أيضاً إحاطة بعض الناس بالعباس وتحريضهم له ضد أبيه لطمعهم أو لرغبتهم فى التخلص من أحمد ابن طولون وربما كان من هؤلاء المحرضين من كان يعمل لمصلحة أبى أحمد الموفق طلحة أخى الخليفة المعتمد وعدو الطولونيين العتيد . وقد كان خروج العباس من مصر عند اقتراب أبيه عائداً من الشام وقد أخذ معه ثمانمائة فارس وعشرة آلاف من مشاة أبيه السودانيين الأقوياء . كما أخذ مليونى دينار كانت فى بيت المال واقترض من كبار التجار مائتى ألف دينار . ثم سار مع أتباعه إلى الجيزة ومنها سار إلى الاسكندرية ثم إلى برقة وأخذ معه الواسطى مكبلا بالحديد[٢] . وقد أخذ العباس يحلم بتكوين إمبراطورية بشمال إفريقية وحاصر طرابلس ونهب لبده ولكنه لم يوفق فى النهاية لأنه اصطدم بابراهيم ابن الأغلب أمير الأغالبة بشمال إفريقية . ويقال إن قوة من قوات إلياس ابن منصور زعيم البربر فى جبل نفوسه وأخرى من قوات ابراهيم بن الأغلب هزمته واضطرته إلى الوقوف .

وقد رجع أحمد بن طولون من الشام وسار إلى الاسكندرية وفكر فى متابعة السير خلف ابنه العباس ولكن الواسطى كان قد فر من سجن العباس

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٤٠ .

(٢) Zaki Hassan: *Les Tulunides*, pp. 67-69; Lane-Poole: *A Hist. of Egypt*, p. 68.

وقابل أحمد بن طولون فى الإسكندرية وأخبره بخبر العباس وأقنعه بعدم السير بنفسه ضده . وقد حاول أحمد بن طولون استمالة ابنه العباس وإقناعه بالعودة ، وتبودلت بين الاثنين عدة رسائل كما أرسل إليه القاضى بكار بن قتيبة ليقنعه ولكن دون جدوى[١] .

ويقال إن أحمد بن طولون عند ما علم بثورة ابنه أرسل إليه رسالة مع رسول يقول فيها : « يا قرة عينى ، وأقرب الناس إلىّ ، وأبرهم لدىّ ، وأعزهم علىّ ، خفرت ظنى بك ، أقوى ما كان أملى فيك ، وأرجا ما كنت لك . من غير إساءة قدمتها ، ولا خطيئة ركبتها معك . ولم ترع حسن تربيتى لك ، وعظم إشفاقى عليك ، وإنى أحبك لإحياء ذكرى ، وصيانة شملى ، فأرضيت عدوى ، وأسخطت ولىّ . وسبحان الله أما تخاف ثمرة العقوق ؟ فإن رجعت إلىّ فكأنك لم تذهب ، وإن تمادى بك الاغترار شخصت إليك بنفسى ، ولم أك بأول من خسر سعيه وأخلف تقديره »[٢] .

كما يقال إن أحمد بن طولون بعد أن علم بفشل ابنه العباس وعودته إلى برقة مهزوماً أرسل إليه عدة رسائل تفيض سخطا عليه وتأنيباً له . وقد جاء فى أحدها قوله : « إلى الظالم لنفسه . العاصى لربه ، المثلم لدينه ، المنجوس من حظ دنياه وآخرته .. أما بعد فإن مثلك مثل البقرة تثير المدية بقرنيها .. وستعلم هبلتك الهوابل ( فقدتك الثواكل ) أيها الأخرق الجاهل ... أى مورد هلكة سلكت ، إذ على الله جل اسمه تمردت ... وإنا كنا نقربك إلينا وننسبك إلى بيوتنا ... فلما طال فى البغى انهماكك ... لم تكن لهذه النسبة أهلا » . وقد عيره بعـــد ذلك بهزيمته فى لبده ثم قال : « فوالله لأستعملن لعنك فى دبر كل صلاة ، والدعاء عليك فى آناء الليل والنهار ، والغدو والآصال ، ولأكتبن إلى مصر وأجناد الشامات والثغور وقنسرين

---

(١) البلوى ، سيرة ابن طولون ص ٢٦٠ — ٢٦٤ ، ابن عبد ربه ، العقد الفريد ج ٣ ص ٢٢٣ .

(٢) ابن الداية ، سيرة ابن طولون ص ٥٩ .

والعواصم والجزيرة والحجاز ومكة والمدينة كتباً تقرأ على منابرها فيك باللعن لك والبراءة منك والدلالة على عقوقك وقطيعتك يتناقلها آخر عن أول ... وستعلم أيها المخالف ... أى كبيرة أتيت فتندم إن كانت لك روية وفيك فضل إنسانية ، وتود أنك لم تكن ولدت ولا فى الخلق عرفت ، إلا أن ترجع راغباً وتسرع خاضعاً إلى ما قبلنا فنقيم الاستغفار لك مقام اللعن والرقة مقام الغلظة... »[١] .

ويقال إن أتباع العباس أقنعوه بعدم العودة خوفاً على أنفسهم من العقاب . وأخيراً سير أحمد بن طولون قوة صغيرة قضت على جيش العباس وقبضت عليه وعلى أتباعه المقربين واقتادتهم إلى الفسطاط . وقد أمر أحمد بن طولون بمعاقبة أتباع العباس أمام عينيه أو كما يقول البعض أشركه أبوه فى عقاب هؤلاء الأتباع ، ثم انتهى الأمر بضربه مائة سوط وزجه فى السجن حيث بقى حتى قتل عند ارتقاء أخيه خمارويه العرش على أثر وفاة أبيه سنة ٢٧٠ هـ ، إذ قتله حراسه حتى يضمنوا عدم وقوع خلاف بين الأخوين أو لأن العباس امتنع عن مبايعة خمارويه على قول أبى المحاسن[٢] .

### سياسة أحمد بن طولون فى تأليف القلوب :

ويجب ألا ننسى أن أحمد بن طولون فى سبيل تثبيت قواعد حكمه لجأ إلى طريقة تأليف القلوب بالأموال والصدقات ، وقد أثر عنه أنه قال[٣] : « ينبغى للرئيس أن يجعل اقتصاده على نفسه وسماحته على من يقصده ويشتمل

---

(١) القلقشندى ، صبح الأعشى ج ٧ ص ٥ — ١٠ .

(٢) السيوطى ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٠ وأبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٤٩ والمقريزى ، الخطط ج ١ ص ٣١٠ ، و Lane-Poole: *A History of Egypt in the M. Ages*, p. 68-71.

(٣) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٤ .

عليه . فإنه يملكهم ملكا لا يزول به عن قلوبهم » . كما ذكر[١] أنه أنفق الكنز الذى وجده وكان يبلغ ألف ألف دينار فى أبواب البر والصدقات ، « وكان يتصدق فى كل يوم بمائة دينار غير ما كان عليه من الرواتب ، وكان ينفق على مطبخه فى كل يوم ألف دينار ، وكان يبعث بالصدقات إلى دمشق والعراق والجزيرة والثغور وبغداد وسر من رأى والكوفة والبصرة والحرمين وغيرها ، فحسب ذلك فكان ألفى ألف دينار ومائتى ألف دينار » ، كما روى عنه أيضاً[٢] أن وكيله فى الصدقات قال له : « ربما امتدت إلى الكف المطوقة والمعصم فيه السوار والكم الناعم أفأمنع هذه الوظيفة ؟ فقال له : ويحك ! هؤلاء المستورون الذين يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف . احذر أن ترد يداً امتدت إليك » . وذكر أيضاً[٣] أن أحمد ابن طولون لما بنى قصره وميدانه « وعظم أمره زادت صدقاته ورواتبه حتى بلغت صدقاته المرتبة فى الشهر ألفى دينار سوى ما كان يعطى ويطرأ عليه . وكان يقول : هذه صدقات الشكر على تجديد النعم . ثم جعل مطابخ للفقراء والمساكين فى كل يوم ، فكان يذبح فيها البقر والغنم ويفرق للناس فى القدور الفخار والقصع . ولكل قصعة أو قدر أربعة أرغفة : فى اثنين منها فالوذج والإثنان الآخران على القدر أو القصعة . وكان فى الغالب يعمل سماط عظيم وينادى فى مصر : من أحب أن يحضر سماط الأمير فليحضر . ويجلس هو بأعلى القصر ينظر ذلك ويأمر بفتح جميع أبواب الميدان ينظرهم وهم يأكلون ويحملون فيسره ذلك ويحمد الله على نعمته » . ويجب أن لا ننسى ما ذكر عن توزيعه الأموال الكثيرة على أهل دمشق عند زيارته لها وسماعه عن حريق شب بقرب كنيسة مريم فإنه وزع الأموال

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٧ — ٨ .

(٢) شرحه ص ١٢ وابن خلكان ، وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٥٥ .

(٣) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٧ .

على من أصابهم الحريق وعلى غيرهم أيضاً[١] .

وكذلك يجب ألا ننسى أن أحمد بن طولون كان يلجأ أحياناً إلى الشدة للمحافظة على سلطانه . وقد رأينا فيما سبق كيف اشتد فى معاملة شقير الخادم ، ونذكر هنا أنه اتهم بالعسف والشدة وبسفك الدماء حتى قيل « إنه لما ولى مصر والشام ظلم كثيراً وعسف وسفك كثيراً من الدماء »[٢] . كما قيل إنه مات فى حبسه ثمانية عشر ألفاً[٣] .

اعتماد أحمد بن طولون على الجاسوسية :

على أن الوسيلة التى لجأ إليها أحمد بن طولون فى الداخل والخارج للمحافظة على مركزه واعتمد عليها اعتماداً كبيراً هى الجاسوسية . فقد كان له جواسيس فى مصر يأتون بأخبار رجال الدولة ومن يدخل مصر من الأجانب ، كما كان له جواسيس فى العاصمة يبلغونه أخبارها ، وكان على رأسهم طيفور وخادم بن جوادى . هذا فضلا عن صاحب البريد وأعوانه الذين كانوا عينه الساهرة . وقد رأينا من قبل كيف أبلغ إليه أمر الكتاب الذى أرسله عدوه شقير إلى عاصمة الخلافة وكيف اتخذ من الإجراءات ما أزال أثره . ومما تجب ملاحظته أن أحمد بن طولون لجأ إلى هذه الوسيلة لأن أعداءه فى دار الخلافة وعلى رأسهم أبو أحمد الموفق طلحة أخو الخليفة المعتمد لجأوا إليها وكان الموفق كثيراً ما يرسل جواسيس إلى مصر ليأتوا إليه بأخبار أحمد بن طولون[٤] . ولا بد أن هذا كان السبب فى كثرة الاعتقالات فى عهد أحمد بن طولون وفى كثرة ذكر الروايات التى

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٣ — ١٤ .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٣ .

(٣) شرحه وابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١٥٥ — ١٥٦ .

(٤) Zaki Hassan: *Les Tulunides*, pp. 202-203.

تشير إلى ذكائه وفطنته وفراسته ، ومن ذلك الرواية[١] التى تقول عن أحمد ابن طولون : «وكان فيه ذكاء وفطنة وحدس ثاقب . قال محمد بن عبد الملك الهمدانى : إن ابن طولون جلس يأكل فرأى سائلاً فأمر له بدجاجة ورغيف وحلواء ، فجاءه الغلام فقال : ناولته فما هش له . فقال ابن طولون : أحضر لى الكتب التى معك وأصدقنى ، فقد صح عندى أنك صاحب خبر ، وأحضر السياط فاعترف . فقال له بعض من حضر : هذا والله السحر الحلال . قال ابن طولون : ما هو سحر ولكنه قياس صحيح . رأيت سوء حاله فسيرت له طعاماً يشره له الشبعان فما هش له فأحضرته فتلقانى بقوة جأش ، فعلمت أنه صاحب خبر لا فقير فكان ذلك» .

اهتمام أحمد بن طولون بعظائم الأمور :

هذا ولم يهو أحمد بن طولون إلا كل عظيم شأنه فى ذلك شأن مؤسسى الدول وعظماء الرجال . ومن ذلك اهتمامه بسباق الخيل ، وقد قيل إنه أنشأ حلبة كبيرة للسباق أمام قصره كانت تطلق فيها الخيول الأصيلة لتتسابق ويلعب الفرسان على ظهورها لعبة الصوالجة ( البولو ) . وفى أيام الأعياد كانت تزين هذه الحلقة وكانت تقام فيها الألعاب وكان يسمح للشعب بمشاهدتها . وبنى أحمد بن طولون مكاناً يستعرض فيه الخيل سماه المنظر اعتبره المؤرخون من عجائب الإسلام . وقد أشاد المؤرخون بهذه الحفلات الرياضية الطولونية وأعجبهم نظامها وتنسيقها[٢] . ولم يكثر أحمد بن طولون من الجوارى والغلمان فى قصره كما أنه كان يميل إلى الجد وقضاء أوقاته فيما ينفع الناس ، ولذلك قيل أنه كان يخرج للصلاة ، وكان يستمع إلى شكاوى الرعية وتظلماتهم[٣] على أن ذلك لم يحل بينه وبين سماع الأغانى

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٣ .

(٢) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣١٨ ، النجوم الزاهرة ج ١ ص ٦٠ .

(٣) ابن الداية : المكافأة ص ٧ ، ٤٩ — ٥٠ .

فى بعض الأوقات القليلة . وقد قيل إن كثيّراً كان مغنيه الخاص[١] ، وإنه كان يقترح عليه أن يغنى له بعض الأغانى مثل[٢] :

متى تجمع القلب الذكى وصارماً وأنفاً حيياً تجتنبك المظالم
رب من أنضجت غيظا صدره فتمنى لى موتاً لم يطع
طلعت عليك طوالع الوخط فرضيتهن رضا على شرط

خمارويه : لهوه وإسرافه :

وقد ولى أبو الجيش خمارويه بعد أبيه أحمد بن طولون ، إذ اختاره رجال الدولة كما اجتمع الجند على توليته[٣] . ولم يلق خمارويه صعوبة ما فى تثبيت نفوذه فى مصر لأن أباه كان قد وضع الأساس القوى وأزال العقبات من طريقه ، وظل فى الولايه اثنتى عشرة سنة ( ٢٧٠ — ٢٨٢ هـ ) ونحن لا نعجب حين نسمع عنه أنه كان متلافاً محباً للمظاهر فهو لا يعدو أن يكون وارثاً لعرش لم يبذل فى سبيل تدعيمه أى جهد .

وقد ذكرت عنه قصص كثيرة توضح أنه كان يجزل العطاء للشعراء وغيرهم كما كان ينفق الأموال الكثيرة على نفسه وعلى من حوله . ويقال إنه لم يكن يلبس الرداء أكثر من يوم واحد ولم يكن يركب حصاناً إلا مرة واحدة ولم يكن يسكن قصراً إلا سنة واحدة بعد بنائه . وكان يعطى كل هذه الأشياء لرجال دولته والمقربين إليه من رجال حاشيته . ولذلك قيل إن عشرة آلاف رجل كانوا يعملون دون انقطاع فى إعداد ملابسه وملابس نسائه[٤] ، وقد قيل أيضاً إن مصاريف مطبخه فى الشهر كانت تبلغ

(١) ابن الداية : سيرة ابن طولون ص ٤٢ .
(٢) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٢٤٨ .
(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢٠ .
(٤) Zaki Hassan: *Les Tulunides*, p. 131.

ثلاثة وعشرين ألف دينار[١] . أما حبه للمظاهر فأخباره كثيرة ومن ذلك ما جاء فى النجوم الزاهرة[٢] ، « ومن أنه كان إذا ركب ومضى الحجاب بين يديه ومشى موكبه على ترتيبه ومضت أصناف العسكر وطوائفه تلاهم السودان وعدتهم ألف أسود لهم درق من حديد محكمة الصنعة وعليهم أقبية سود وعمائم سود فيخالهم الناظر إليهم بحراً أسود يسير على وجه الأرض لسواد ألوانهم وسواد ثيابهم ، ويصير لبريق درقهم وحلى سيوفهم والخوذ التى على رءوسهم من تحت العمائم زى بهج إلى الغاية . فإذا مضى السودان قدم خمارويه وقد انفرد عن موكبه . . . وخواصه تحف به . . . . » . أما حبه للهو واللعب وقضاء أوقاته فى الترف والنعيم وبذل الأموال على ذلك كله ، فحدث عنه ولا حرج . وقد قيل عنه[٣] إنه : « كان يتقلد فى يوم العيد سيفاً بحمائل ولا يزال يتفرج ويتنزه ويخرج إلى المواضع التى لم يكن أبوه يخرج إليها كالأهرام ومدينة العقاب ونحو ذلك لأجل الصيد . فإنه كان مشغوفاً به لا يكاد يسمع بسبع إلا قصده ومعه رجال عليهم لبود ، فيدخلون إلى الأسد ويتناولونه بأيديهم من غابته عنوة وهو سليم ، فيضعونه فى أقفاص من خشب محكمة الصنعة تسع الواحد من السباع وهو قائم . فإذا قدم خمارويه من الصيد صار القفص وفيه السبع بين يديه . وكانت حلبة السباق فى أيامه تقوم عند الناس مقام الأعياد لكثرة الزينة وركوب سائر الجند والعساكر بالسلاح التام والعدد الكاملة ، ويجلس الناس لرؤية ذلك كما يجلسون فى الأعياد » .
وجاء عنه أيضاً[٤] أنه كان يحب الفن ويشجعه ، وأنه كان يوجد على سفح المقطم دير يسمى دير القصير ، وكانت به لوحة رائعة للمسيح وهو

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٥٩ .

(٢) شرحه ص ٦٠ .

(٣) Lane-Poole: *A Hist. of Egypt*, p. 74.

(٤) Zaki Hassan: *Les Tulunides*, p. 126.

طفل فى يد مريم العذراء وحولها ملائكة وإثنا عشر رسولا وأن خمارويه أعجب بهذه اللوحة فبنيت له منظرة على سطح الدير تطل على جميع الجهات وكان فى أوقات مختلفة يذهب بغتة إلى الدير ليمتع نظره بهذه اللوحة المقدسة . وقد كان طبيعياً أن ينفق خمارويه أمواله على هذه الملاهى وألا يهتم ببناء المساجد أو المنشئات العامة كما كان طبيعياً أيضاً أن تكون وفاته محاطة بالقيل والقال والأخبار البذيئة . وقد نقل أبو المحاسن عن شمس الدين صاحب مرآة الزمان فى موت خمارويه[١] : « كان خمارويه كثير الفساد بالخدم دخل الحمام مع جماعة منهم فطلب من بعضهم الفاحشة فامتنع الخادم حياء من الخدم ، فأمر خمارويه أن يضرب فلم يزل يصيح حتى مات فى الحمام فأبغضه الخدم . وكان قد بنى قصراً بسفح قاسيون أسفل من دير مران يشرب فيه الخمر فدخل تلك الليلة الحمام فذبحه خادمه . وقيل ذبحوه على فراشه وهربوا . وقيل غير ذلك : إن بعض خدمه يولع بجارية له فتهددها خمارويه بالقتل فاتفقت مع الخادم على قتله . وكان ذبحه فى منتصف ذى الحجة وقيل لثلاث خلون منه من سنة اثنين وثمانين ومائتين . وكان الأمير طغج بن جف معه فى القصر فى تلك الليلة فبلغه الخبر فركب فى الحال وتتبع الخدم وكانوا نيفاً وعشرين خادماً فأدركهم وقبض عليهم وذبحهم وصلبهم وحمل أبا الجيش خمارويه فى تابوت من دمشق إلى مصر وصلى عليه ابنه جيش ودفن . ويقال : إنه دفن بالقصر إلى جانب أبى عبيدة البرانى ... » .

أبو العساكر جيش ، سوء سياسته :

وبعد موت خمارويه سنة ٢٨٢ هـ اختار الجند ابناً صغيراً له فى الرابعة عشرة من عمره اسمه أبو العساكر جيش . وقد اضطربت الأمور فى مصر فى عهده . إذ يقال إنه انصرف إلى مسراته وقضى أوقاته فى الصيد وأبعد

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٦٣ — ٦٤ .

رجال السياسة والأدب والدين والحرب الذين كانوا مقربين فى عهد أبيه وجده . وكانت حاشيته من العامة الجهال ، ويقال إنه كان من بين أفراد هذه الحاشية اثنان من المصارعين أحدهما اسمه خضر والثانى اسمه ابن البواش وغلام رومى اسمه بنـدقوش ، ولذلك فإن كثيرين من رجال الدولة فروا من مصر إلى العراق والتجأوا إلى الخليفة المعتضد ، وكان من بينهم على ما يقول أبو المحـاسن محمد بن إسحق وخاقان البلخى وبدر بن جف . وكذلك أساء جيش إلى أفراد الأسرة الطولونية . وكان يعتمد على جماعة من قواد الجيش بسط أيديهم فى الأمور . ولم يطل عهد جيش أكثر من عام واحد إذ ثار ضده أفراد الأسرة الطولونية وأنصارها كما ثار عليه الجند ، وقد أراد جيش أن يخدع الثائرين ودعاهم إلى الهدوء حتى يدبر الأمر ثم قتل فى فترة الانتظار اثنين من أعمامه منهما عمه نصر ورمى برأسيهما إلى الجند . وربما أراد بذلك أن يضعف روح الثوار المعنوية ولـكن الأمر كان على عكس ما أراد إذ قامت الثورة من جديد وازداد أوارها ، وهاجم الثائرون قصره وقتلوه كما قتلوا سكرتيره على بن أحمد المـاذرائى وأمه وأعوانه ونهبوا القصر وأحرقوه كما عاثوا فى العاصمة فساداً بل وتعدوا ذلك إلى الأقاليم حيث نهبوا وسـلبوا وأقاموا هناك ملاكا وتجاراً كباراً ، وقد قيل أيضاً إن الذى قتل أبا العساكر جيش هو أخوه أبو موسى هارون[1] .

### أبو موسى هارون :

وبعد موت جيش اختار الجند أخاه أبا موسى هارون وكان فى الرابعـة عشرة من عمره أيضاً . وقد جعلوا وصياً عليه أبا جعفر محمد بن أبى ( فى بعض المراجع ابن أبالى وابن ظافر ) . ولم تتحسن الأمور فى عهده لوجود قوتين متنافستين إحداهما قوة الوصى والأخرى قوة القواد العسكريين الذين كانوا

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٧٨ و ٩٢ — ٩٥ و Zaki Hassan: *Les Tulunides*, pp. 135-138.

قد بقوا فى مصر ولم يفروا إلى العراق فى عهد جيش وأهمهم بدر الحمامى وفائق وصافى . إذ أن الوصى كان يريد أن يكون صاحب الأمر كما أن القواد كانوا يستقلون بإدارة شئون جنودهم ويستولون على جزء من دخل الدولة ويوزعونه على جنودهم . وقد لجأ الوصى إلى الدس والخديعة وأخذ يوقع بالقواد الواحد بعد الآخر فحرض هارون على قائد منهم اسمه سمجور فقتله وحرض واحداً منهم اسمه برمش ضد بدر الحمامى فدبر مكيدة انتهت بجرح بدر وقتل برمش هذا . وحرض هارون ضد القائد صافى فنقله إلى الرمله[١] وقد أدت هذه السياسة إلى قيام العنصرية فى الجيش الطولونى وضعفه حتى عجز عن صد القرامطة عن الشام[٢] .

نهاية الدولة الطولونية :

وقد انتهى أمر الطولونيين حين سير الخليفة المكتفى الذى ولى الخلافة بعد المعتضد جيشاً بقيادة محمد بن سليمان الكاتب للقضاء على الطولونيين . وقد استطاع هذا القائد أن يسير على رأس قوة برية بحرية ويدخل مصر ويستردها للعباسيين . وقد قتل هارون فى ذلك الوقت على يد رجاله لأنه كما يقول البعض أراد التسليم أو لأنه كما يقول البعض الآخر حاول أن يقضى على فتنة عنصرية فى جيشه فقتل[٣] . وقد ولى أنصار الطولونيين أحد أبناء أحمد بن طولون واسمه شيبان على عرش مصر . وحاول هذا أن يجمع جيشاً لمقاومة محمد بن سليمان ولكنه لم يوفق إذ تخلى عنه رجال الجيش وانضموا إلى عدوه . وأخيراً سلم شيبان وبخاصة بعد أن وجد أن الأسطول العباسى قد سار فى النيل حتى وصل إلى الفسطاط وأحرق جزءاً منها كما أن

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٠٣ — ١٠٤ .

(٢) شرحه ص ١٠٤ — ١٠٦ .

(٣) شرحه ص ١١١ .

محمد بن سليمان الكاتب بعد أن أقام مدة فى العباسة سار نحو الفسطاط ، وقد خرج شيبان واستقبل الفاتح وبذلك لم يحكم إلا بضعة أيام وزالت الدولة الطولونية[١] .

وقد حمل محمد بن سليمان الكاتب ذرية ابن طولون إلى بغداد وحبسهم ويقال إنه استولى على مبالغ كبيرة من المال من رجال الدولة الطولونية على الرغم من أنهم انضموا إليه . ومن ضمن تلك الأموال ٥٠٠ ألف دينار من الوصى بن أبىّ . وقد قال فى ذلك أبو المحاسن[٢] :

« قال صاحب كتاب الذخائر : إن محمد بن سليمان المذكور رجع إلى العراق فى سنة اثنتين وتسعين ومائتين ومعه ذخائر بنى طولون أموال عظيمة . يقال إنه كان معه أكثر من ألف ألف دينار عيناً وإنه حمل إلى الخليفة الإمام المكتفى من الذخائر والحلى والفرش أربعة وعشرين ألف حمل جمل وحمل آل طولون معه إلى بغداد . وأخذ محمد بن سليمان لنفسه وأصحابه غير ذلك ما لا يحصى كثرة . . . » .

وقد كانت مغادرة محمد بن سليمان لمصر بعد أن بقى بها حوالى أربعة شهور وقد عين الخليفة المكتفى على مصر عيسى بن محمد النوشرى وبذلك بدأت فترة جديدة أصبحت فيها مصر خاضعة للدولة العباسية خضوعاً مباشراً ، ويبدو أن الخليفة العباسى جازى محمد بن سليمان الكاتب جزاء سنمار إذ يقال[٣] إنه « لما وصل محمد بن سليمان إلى حلب متوجهاً إلى العراق كتب الخليفة المكتفى إلى وصيف مولى المعتضد أن يتوكل بإشخاص محمد ابن سليمان المذكور فأشخصه وصيف المذكور إلى الحضرة فأخذه المكتفى

---

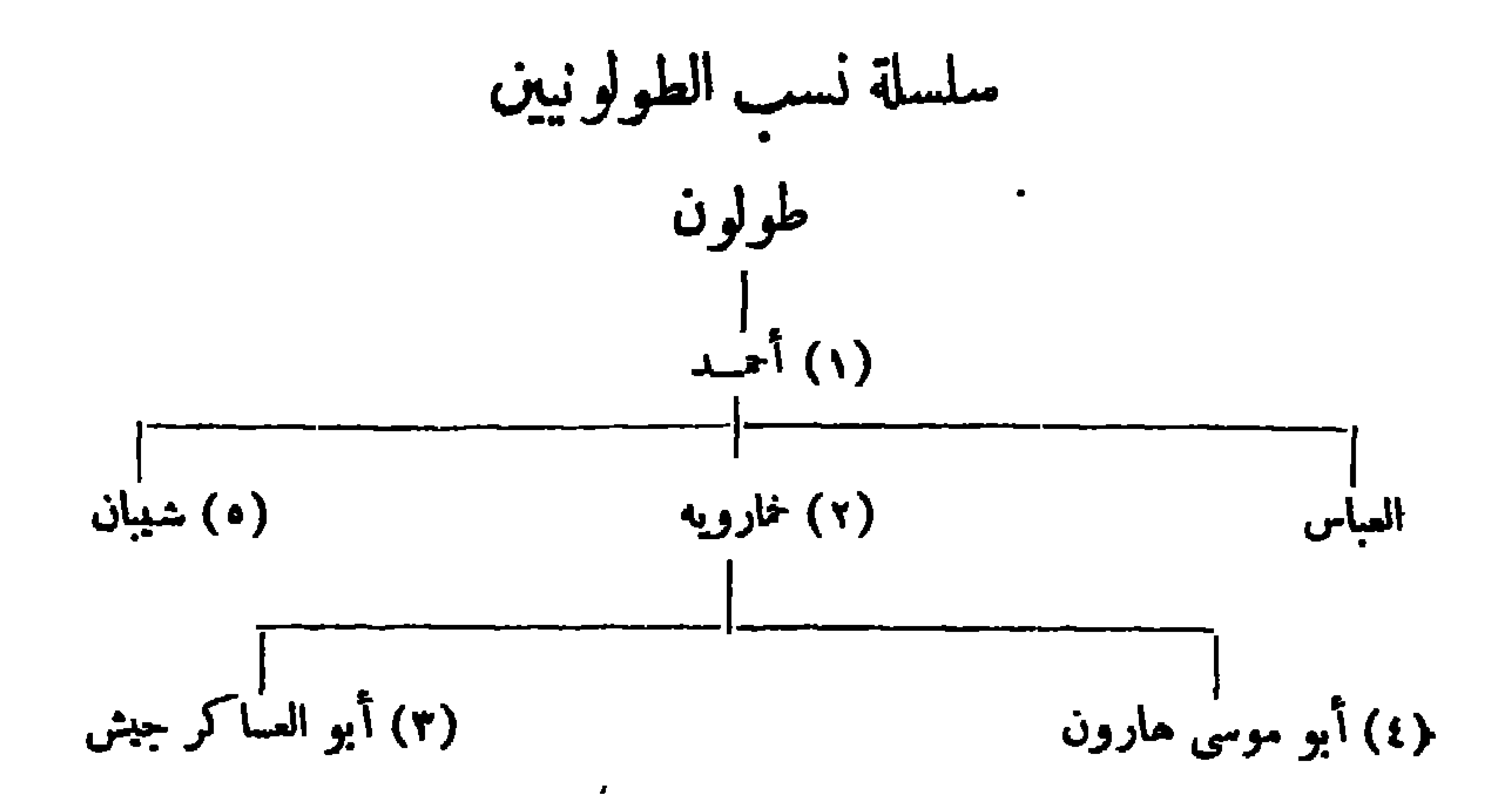
(١) Zaki Hassan: *Les Tulunides*, pp. 139-151.

(٢) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١١٢ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١١٢ — ١١٣ .

وقيده وصادره وطالبه بالأموال التي أخذها من مصر . ولم يزل محمد بن سليمان معتقلا إلى أن نولى ابن الفرات للخليفة المقتدر جعفر فأخرجه إلى قزوين والياً على الضياع والأعشار بها » .

## سلسلة نسب الطولونيين



# الفصل الثانى

## الحالة السياسية

## فى عهد الطولونيين

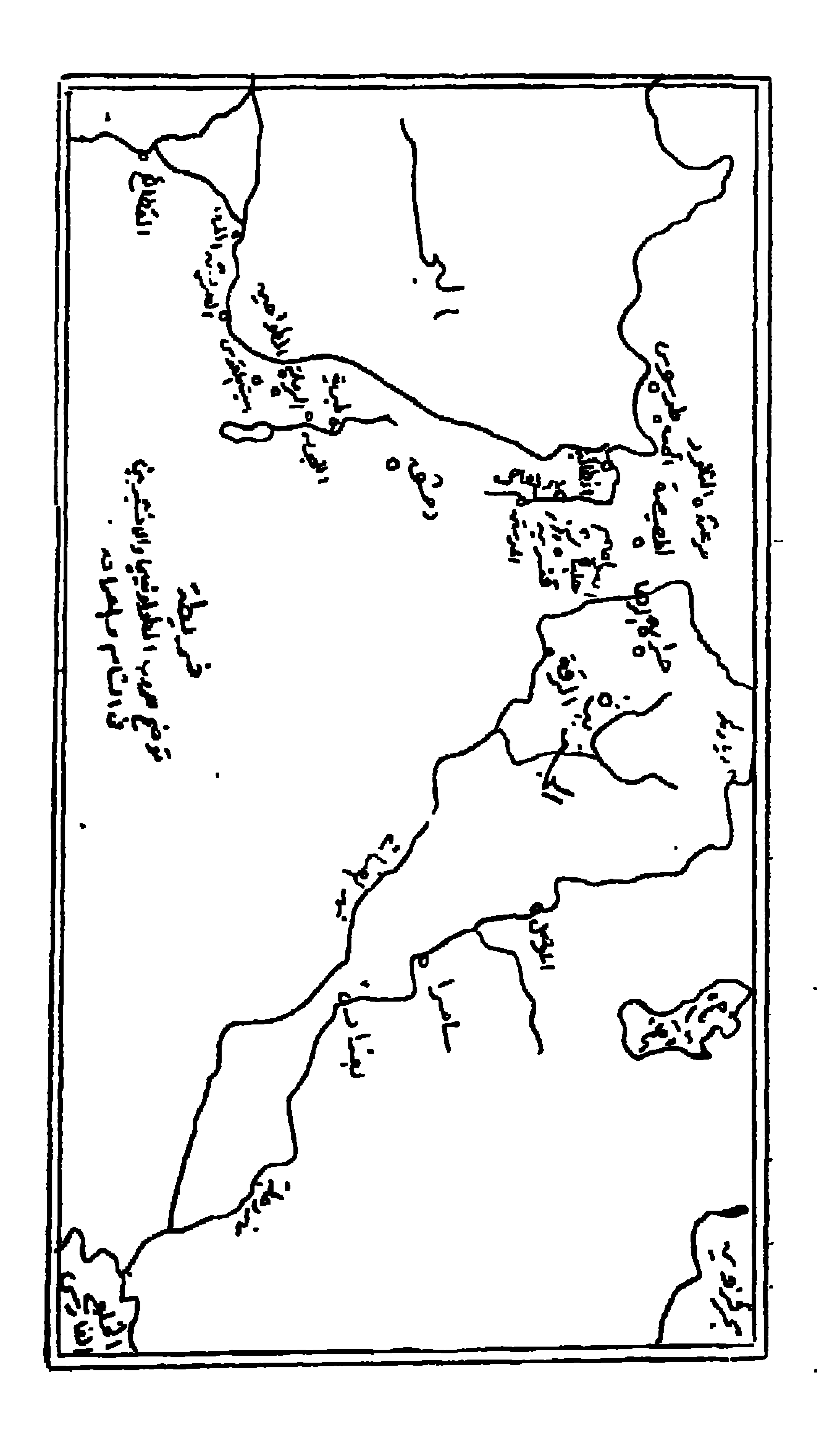
### ١ ـ اتساع نفوذ الطولونيين :

يلاحظ أن سلطة الطولونيين لم تكن قاصرة على مصر وحدها بل إنهم مدوا نفوذهم إلى الشام والثغور الشامية أيضاً . وقد ذهب أحمد بن طولون إلى الشام بأمر الخليفة العباسى المعتمد إذ طلب إليه سنة ٢٦٥ هـ السير لمحاربة البيزنطيين فاستجاب لأمره ونفذ رغبته واضطر البيزنطيون أن يرسلوا إليه الهدايا وما لديهم من أسرى المسلمين وقد قال أبو المحاسن[١] إنه فى سنة ٢٦٥ هـ « بعث ملك الروم بعبد الله بن رشيد بن كاوس الذى كان عامل الثغور وأسره الروم إلى أحمد بن طولون مع عدة أسارى » . كما أنه اقتنص الفرصة ونشر نفوذه فى مدن الشام وفى الثغور الشامية . ويقال[٢] إنه فى ذلك الوقت كان ماجور والى الشام قد مات وعين فى مكانه ابنه فزالت العقبة الكئود التى كان أحمد بن طولون يعمل حسابها وسار إلى دمشق حيث قدم له الموظفون والأهالى الخضوع فى الحال . ومن هناك تقدم فى الشام وسلمت له المدن المهمة حتى طرسوس ولم تقاومه سوى أنطاكية برئاسة سيما الطويل ولكنها ضربت بالمنجنيق وأدت الخيانة فى داخلها إلى فتحها ونهبها . وقد احتل بعد ذلك المصيصه وأضنه وقاومت طرسوس هجومه . وبذلك أصبحت أملاكه تمتد من الفرات وحدود الإمبراطورية البيزنطية إلى برقة

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٤٠ .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٤٠ و
Lane-Poole: *A Hist. of Egypt in the M. Ages*, p. 66.



على البحر الأبيض وأسوان عند الشلال الأول . وقد ترك حاميات فى الرقة وحران ودمشق للمحافظة على أملاكه الجديدة وأخذ ستمائة ألف دينار من عدوه القديم ابن المدبر عامل خراج الشام فى ذلك الوقت وأسرع عائداً إلى مصر بعد أن غاب عنها سنة للبت فى أمر ابنه الأكبر العباس . وبعد عودته أظهر نائبه فى طرسوس خلف الفرغانى التركى نشاطاً كبيراً وحارب البيزنطيين وانتصر عليهم مرتين عاد بعد الأولى بكثير من الغنائم والأسلاب وفى الثانية استطاع أن يهزم البيزنطيين بقرب طرسوس وأن يقتل ستين ألف مسيحى وأن يستولى على أسلاب ثمينة من الذهب والفضة والصلبان المرصعة والأوانى المقدسة والملابس وخمسة عشر ألف حصان[١] . وقد ذهب أحمد بن طولون إلى الشام مرة ثانية سنة ٢٦٩ هـ ، وهناك وجد أن يازمان خادم الفتح بن خاقان قد سيطر على الأمور فى طرسوس وعاونه الجند على طرد خلف الفرغانى عامله منها كما لعنوه هو نفسه على المنابر ، وقد حاصر يازمان فى أضنة مدة من الزمن ولكنه لم ينل منها طائلا وعاد إلى دمشق[٢] .

أما خمارويه فإنه احتفظ بنفوذه فى الشام والثغور الشامية أيضاً واعترف بسلطته يازمان والى طرسوس الذى كان قد خرج على أبيه فى أواخر حياته ويقال إن يازمان دعا له على المنابر بطرسوس بعد أن استماله وتلطف به وبعث له بثلاثين ألف دينار وخمسمائة ثوب وخمسمائة دابة وسلاح كثير[٣].

وفى عهد أبى العساكر جيش ضعف النفوذ الطولونى فى الشام . ويقال إن طغج بن جف حاكم دمشق فى عهد جيش خرج عليه وأراد أن يستقل بالشام كما خرج عليه أيضاً أحمد بن طوغان حاكم منطقة الثغور السورية[٤].

---

(١) Lane-Poole: *A Hist. of Egypt in the M. Ages*, p. 70.

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٤٥ .

(٣) شرحه ص ٧٦ .

(٤) Zaki Hassan *Les Tulunides*, p. 136.

وفى عهد أبى موسى هارون عاد طغج بن جف إلى طاعة الطولونيين بفضل جهود القائد بدر الحمامى . ولكن هذا النفوذ الطولونى ما لبث أن زال من الشام بعد أن فشل طغج بن جف فى صد القرامطة عن الشام كما فشلت القوات الطولونية التى أرسلت من مصر بقيادة بدر الحمامى فى صد هؤلاء القرامطة . ولم ينجح فى صد هؤلاء القرامطة إلا جيش عباسى سيره الخليفة المكتفى بقيادة محمد بن سليمان الكاتب وبذلك زال النفوذ الطولونى من الشام نهائياً بل وتبع ذلك زوال هذا النفوذ من مصر نفسها كما رأينا . ويبدو أن هارون كان قد أحس بضعف مركزه فتنازل من تلقاء نفسه عن منطقة الثغور وفى ذلك يقول أبو المحاسن[1] عند كلامه على سنة ٢٨٦ هـ : « فيها أرسل هارون بن خمارويه صاحب الترجمة إلى الخليفة المعتضد يعلمه أنه نزل عن أعمال قنسرين والعواصم وأنه يحمل إلى المعتضد فى كل سنة أربعمائة ألف دينار وخمسين ألف دينار وسأله تجديد الولاية له على مصر والشام فأجابه المعتضد إلى ذلك وكتب له تقليداً بهما » .

## ٢ — علاقات الطولونيين بالدولة العباسية :

كانت للطولونيين علاقات بالدولة العباسية . على أنه عند الكلام على هذه العلاقات يجب أن نقسمها قسمين الأول يشمل علاقات الطولونيين بأبى أحمد الموفق طلحة أخى الخليفة المعتمد وصاحب الأمر فى دولته والثانى يشمل علاقات الطولونيين بالخلفاء العباسيين .

### العداء بين أحمد بن طولون والموفق :

وقد بدأ العداء بين الطولونيين وأبى أحمد الموفق طلحة منذ أيام أحمد ابن طولون وظل قائماً حتى أيام خمارويه وكان سبب هذا العداء على ما يقول البعض أن أحمد بن طولون بسبب الإصلاات الكثيرة التى كان يقوم بها

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٣ س ١١٨ .

فى مصر وما كانت تتطلبه من أموال كثيرة بعجز عن إرسال الفائض السنوى إلى الموفق أخى الخليفة المعتمد[١] . ويقول البعض الآخر إن أبا أحمد الموفق طلحة كان يدير القسم الشرقى من الدولة العباسية الذى يشمل المشرق والعراق وبغداد والحجاز واليمن وفارس وأصبهان والرى وخراسان وطبرستان وسجستان والسند فى حين كان المفوض جعفر بن المعتمد يدير الجزء الغربى ويشمل المغرب والشام والجزيرة وأرمينية ومصر[٢] . وقد شغل الموفق بحرب ثائر من الثوار يسمى صاحب الزنج قام فى البصرة وما حولها واضطر بسبب ذلك أن يطلب الأموال من أحمد بن طولون على الرغم من أن مصر لا تقع فى القسم الشرقى الخاضع له . وقد أرسل أحمد بن طولون إلى الموفق مع رسوله تحرير مليوناً ومائتى ألف دينار وودع الرسول بنفسه حتى العريش ولكن الموفق استقل هذا المبلغ وأرسل إلى أحمد بن طولون يؤنبه ويقول له إن الحساب يوجب أضعافه وعندئذ كتب إليه ابن طولون يقول : « على أنى لا أعرف السبب الذى يتيح الوحشة ويوقعها ولا الأمر الذى يدعو إليها ويوجبها ، إذ لم يكن بينى وبينه معاملة توجب مشاجرة أو تحدث منافرة ، وكان العمل الذى أنا سبيله ليس له والمكاتبة فى أموره ليست إليه وتقليدى ليس من قبله ولا أنا من ولاته »[٣] . ولذلك فنحن لا نعجب حين نرى الموفق يسير موسى بن بغا على رأس جيوش بلاد الجزيرة للقضاء على أحمد ابن طولون . وقد ثار جنود موسى بن بغا لتأخر أعطياتهم ، واضطر موسى ابن بغا إلى العودة قبل أن يتجاوز الرقة ، وفشلت محاولة الموفق الأولى ضد أحمد بن طولون .

ولم يكتف الموفق بهذا العمل بل إنه اتصل برئيس الحامية المصرية فى

---

(١) Lane-Poole: *A Hist. of Egypt in the Middle Ages*, p. 66.

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٤ ، ٣٣ .

(٣) ابن الداية : سيرة ابن طولون ص ٢٠ ، ٢٤ والمقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٧٨ — ١٧٩ .

الرقة المسمى لؤلؤ واستطاع أن يستميله إليه ويقنعه بالذهاب بالحامية المصرية التى معه والانضمام إليه كما طرد ابن صفوان نائب ابن طولون فى قرقيسياء . أضف إلى ذلك أنه سير جيشاً آخر ضد أحمد بن طولون وجعل على رأسه اسحق بن كنداج عامل الموصل والجزيرة بعد أن ولاه على مصر فى مكان أحمد بن طولون . كما أنه أرسل ابن كنداج فرد المعتمد إلى العاصمة بعد أن خرج منها مستجيباً لدعوة أحمد بن طولون فى الإقامة فى كنفه فى مصر[١] .

وقد أغضب هذا كله أحمد بن طولون فحاول أن يستولى على مكة ولكنه فشل وطرد جنوده ولعن علناً فى المسجد الحرام . كما أنه قطع الخطبة للموفق على المنابر وجمع مجلساً من القضاة والعلماء فى دمشق قرر عزل الموفق عن ولاية العهد بسبب سوء معاملته لأخيه الخليفة المعتمد . ومما يستحق الذكر أن القاضى بكار بن قتيبة لم يرض بالتوقيع على هذا القرار وطالب بإظهار قرار من الخليفة يعزل فيه الموفق من ولاية العهد وكان ذلك سبباً فى أن أحمد ابن طولون زج به فى السجن . كما يقال إن بكاراً وافق على عزل الموفق من ولاية العهد ولكنه لم يوافق على لعنه . وعلى كل حال فإن الموفق رد على عمل ابن طولون بأن طلب من الخليفة المعتمد فأمر بلعن أحمد بن طولون على المنابر فى ولايات الدولة العباسية[٢] . ويرى لين پول أن الشك قليل فى أن الموفق لو أنه لم يكن مشغولا إلى حد بعيد بثورة الزنج لعاقب أحمد ابن طولون عقاباً صارماً على وقاحته[٣] .

---

(١) ابن الداية : سيرة ابن طولون ص ٦٨ و ٦٩ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٤٥ و Lane-Poole: *A Hist. of Egypt*, p. 68.

(٢) على إبراهيم : مصر فى العصور الوسطى ص ١٩٨ و ١٩٩ و Lane-Poole: *A Hist. of Egypt*, pp. 68-69.

(٣) Lane-Poole: *A Hist. of Egypt*, p. 69.

**العداء بين خمارويه والموفق :**

وقد استمر أبو أحمد الموفق طلحة على عدائه للطولونيين بعد موت أحمد ابن طولون . ويقال إنه استند على أن خمارويه لم يأخذ تفويضاً شرعياً بولاية مصر فى حين كان إسحق بن كنداج قد أخذ تفويضاً بحكمها من الخليفة وشن الحرب على خمارويه . وقد اتفق مع ابن كنداج وحليفه محمد بن ديوداد أبى الساج عامل أرمينية والجبال على أن يسيروا قوات ضد خمارويه . وقد سارت جيوش اسحق بن كنداج ومحمد بن أبى الساج فعلا كما سارت قوة أخرى من قبل الموفق وعلى رأسها ابنه أبو العباس أحمد . واحتل هؤلاء جميعاً سورية ودخل أبو العباس أحمد دمشق[١] .

وقد اهتم خمارويه بهذا الخطر المحدق به وأرسل جيشاً تحت قيادة كاتب أبيه أبو عبد الله أحمد بن محمد الواسطى كما أرسل فى البحر أسطولا قوياً ، ولكن الأعداء هزموا الواسطى عند شيزر على نهر العاصى Orontes[٢] وهناك من يقول إن الواسطى كان يخاف أن يقتله خمارويه لأنه أشار عليه بقتل أخيه العباس الذى كان فى سجنه عند ارتقائه العرش ولذلك اتصل بأبى أحمد الموفق ودعاه إلى إرسال جيوش لمحاربة خمارويه[٣] . وعلى كل حال فقد وصلت أخبار الهزيمة إلى خمارويه فسارع بالخروج بنفسه إلى الشام وكان ذلك سنة ٢٧١ هـ . وكان جيشه نحو سبعين ألفاً وجيش ابن الموفق نحو أربعة آلاف[٤] . وعلى الرغم من أن خمارويه فزع عندما التقى جيشه مع جيوش أعدائه عند الطواحين الواقعة بقرب الرملة على نهر أبى فطرس بفلسطين وفر هارباً إلى مصر فإن جزءاً من جيشه تحت قيادة أحد قواده

---

(١) Lane-Poole: *A Hist. of Egypt in the M. Ages*, p. 72.

(٢) شرحه .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٥٠ .

(٤) شرحه ص ٥٠ .

واسمه سعد الأعسر ( يذكر فى النجوم الزاهرة سعد الأيسر ) ثبت للأعداء.
واقتنص فرصة انهماكهم فى جمع الأسلاب وقضى عليهم قضاء تاماً ثم سار
إلى دمشق[١] .

وقد اضطر خمارويه أن يسير بعد ذلك إلى الشام عدة مرات بسبب
خروج سعد الأعسر عليه ومحاولته الاستقلال ببلاد الشام ووفق توفيقاً
عظيماً وأبدى شجاعة نادرة يعجب الإنسان حين يوازنها بما بدر منه فى
موقعة الطواحين . وقد استطاع عند ذهابه إلى الشام سنة ٢٧٣ هـ ( ٨٨٦ م )
أن يقضى على سعد الأعسر وأن يدخل دمشق[٢] . ثم تعددت حملاته على
الشام وأظهر فيها كلها شجاعة نادرة فاستطاع أن يهزم جيوش ابن كنداج
ويضطره إلى التقهقر حتى سامرا وقد عقد صلحاً مع الموفق وأرسل له
تفويض موقع عليه من الخليفة وأخيه الموفق وابنه وولى عهده المفوض
بحكم مصر والشام والثغور لمدة ثلاثين سنة[٣] . وقد قام نزاع بعد ذلك بين
ابن أبى الساج وابن كنداج ودعى خمارويه للتدخل فيه فدخل وانتصر
واستولى على الرقة واعترف به حاكماً على الموصل وبلاد الجزيرة فى الخطبة
وذهب ابن كنداج إلى بلاط خمارويه وأصبح من أتباعه . ثم بعد ذلك
خرج ابن أبى الساج على خمارويه وغزا بلاد الشام ولكن خمارويه خرج
من مصر والتقى به قرب دمشق وهزمه وتبعه حتى بلد الواقعة على نهر دجلة
وهناك أقام عرشاً جلس عليه وعقد صلحاً ثانياً مع الموفق وقعه الموفق
والخليفة المعتمد والمفوض ابن الخليفة وبمقتضاه أعطيت الشام ومصر
ومنطقة الثغور وأرمينية له ولأولاده من بعده لمدة ثلاثين سنة وجعلت
الجزية المقررة على مصر سنوياً ثلثمائة ألف دينار[٤] . وهذه المعاهدة التى

---

(١) Lane-Poole: *A Hist. of Egypt*, p. 72.

(٢) النجوم الزاهرة ج ٣ س ٥١ .

(٣) Lane-Poole: *A Hist. of Egypt*, p. 73.

(٤) Lane-Poole: *A Hist. of Egypt*, p. 73.
Zaki Hassan: *Les Tulunides*, p. 116.

عقدها خمارويه مهمة للغاية لأن حق الطولونيين فى حكم مصر أصبح شرعياً منذ ذلك الوقت . وقد ذهب ابن أبى الساج فى سنة ٢٧٦ ﻫ إلى الموفق هارباً من خمارويه فأكرمه الموفق وخلع عليه وفى سنة ٢٧٥ﻫ ولاه الموفق أرمينية وأذربيجان وكان قد غلب عليهما . ثم توفى ابن أبى الساج بالطاعون سنة ٢٨٨ ﻫ[١] . وبموته طويت صفحة من صفحات العداء والحقد للطولونيين .

علاقات الصداقة بين أحمد بن طولون والخليفة العباسى :

والقسم الثانى من علاقات الطولونيين بالدولة العباسية ، كان يشمل علاقاتهم بالخلفاء كما ذكرنا . ويجب أن نلاحظ هنا أنه على الرغم من العداء الذى كان مستحكما بين الطولونيين وبين صاحب الأمر والنهى فى الدولة العباسية وهو أبو أحمد الموفق طلحة ، فإن علاقات الطولونيين بالخليفة العباسى نفسه كانت على ما يرام . وسبب ذلك أن أحمد بن طولون بحكم تربيته الدينية كان منذ صغره يحترم شخص الخليفة العباسى ولا يتصف بما يتصف به غيره من الأتراك من النظر إلى الخلفاء على أنهم ألاعيب فى أيديهم وقد جاء فى النجوم الزاهرة[٢] أن أحمد بن طولون «كان شديد الأزراء على الترك وأولادهم لما يرتكبونه فى أمر الخلفاء غير راض بذلك ويستقل عقولهم» ويقول : «حرمة الدين عندهم مهتوكة» . وقد حدث أن كان أحمد بن طولون عائداً مرة من طرسوس التى كان يتلقى فيها العلم وهاجم جماعة من البدو القافلة التى كان فيها بقصد الاستيلاء على طرف وثياب ثمينة كانت آتية للخليفة المستعين من القسطنطينية فما كان منه إلا أن حافظ على طرف الخليفة وثيابه ورد هؤلاء البدو عن القافلة ، وقد كان لعمل أحمد بن طولون هذا أجمل الأثر فى قلب الخليفة العباسى المستعين حتى أنه أرسل

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٧٤ و ١١٦ و ١٢٤ .

(٢) شرحه ص ٤ .

إلى أحمد مع الخادم الذى شاهد حسن بلائه فى الدفاع عن القافلة ألف دينار سراً ، وقال له : عرفه أننى أحبه ولولا خوفى عليه قربته »[١]. ويقال[٢] إن ابن طولون كان ، إذا أدخل على المستعين مع الأتراك فى الخدمة أومأ إليه الخليفة بالسلام سراً . واستدام الإحسان إليه ووهب له جارية اسمها مياس فولدت له ابنه خمارويه فى المحرم سنة ٢٥٠ هـ » . أضف إلى ذلك أنه عند عزل الخليفة المستعين وإرساله إلى واسط أرسل الأتراك معه أحمد بن طولون بناء على رغبته فأحسن معاملته . ويقال إن الأتراك كتبوا الى أحمد بن طولون يطلبون منه أن يقتل المستعين ووعدوه إن فعل ذلك بولاية واسط ولكنه كتب إليهم يقول : « لا رآنى الله قتلت خليفة بايعت له أبداً . فبعثوا سعيداً الحاجب فقتل المستعين فوارى أحمد بن طولون جثته »[٣] . وقد رجع أحمد بن طولون بعد ذلك إلى سر من رأى ثم ولى مصر نيابة عن أميرها سنة ٢٥٤ هـ « فلما ولى مصر قال : لقد وعدنى الأتراك إن قتلت المستعين أن يولونى واسط ، فخفت الله ولم أفعل فعوضنى ولاية مصر والشام وسعة الأحوال »[٤] .

وبعد أن ولى أحمد بن طولون مصر ظل على حبه للخلفاء العباسيين ويقال إن الخليفة المعتمد عند ما ضيق عليه أخوه الموفق وسلبه السلطة فكر فى الخلاص ولم يجد أمامه إلا الالتجاء إلى مصر حيث أحمد بن طولون عدو الموفق اللدود . وقد خرج من سامرا فعلا سنة ٢٦٩ هـ كما سبق أن ذكرنا بحجة الصيد ورحب أحمد بن طولون بقدومه لأن فى هذا كما يقول لينبول[٥] فائدة كبيرة له إذ يتخلص من دفع الجزية السنوية ويقوى نفسه

---

(١) أبو المحاسن النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٥ .

(٢) شرحه .

(٣) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٦ وابن الداية : سيرة ابن طولون ص ٧ .

(٤) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٩ .

(٥) Lane-Poole: *A History of Egypt in the Middle Ages*, p. 68.

ضد عدوه الموفق كما يصبح له ولمصر مركز كبير بوجود الخليفة فى مصر . ومن سوء حظ الخليفة المعتمد وابن طولون أيضاً أن الموفق علم بتدبير الخليفة وأرسل إلى ابن كنداج فلحق الخليفة عند الرقة وساقه إلى سامرا .

وقد كنا نشك فى هذا لولا أنه من المعروف جيداً أن الخليفة المعتمد كان قد فقد كل سلطة وساءت حالته إلى حد بعيد جداً وأن أخاه الموفق كان قد ضيق عليه تضييقاً شديداً وغل يده عن أعمال الدولة ، كما حرمه من دخلها إلى حد أنه طلب يوماً ثلثمائة دينار فلم يجدها وقال فى ذلك شعراً منه[1] :

أليس من العجائب أن مثلى يرى ما قل ممتنعاً عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شىء فى يديه
إليه تحمل الأموال طراً ويمنع بعض ما يجبى إليه

ويقال إنه شكا من حالته هذه إلى أحمد بن طولون ، وإن أحمد بن طولون أظهر تألمه لذلك ، وكتب إليه يعرض عليه أن يلتجىء إلى مصر ، ويعده بالدفاع عنه وكان مما كتبه إليه[2] : « قد منعنى الطعام والشرب والنوم خوفى على أمير المؤمنين من مكروه يلحقه فيصبح أصحابه وقد حشوا فى اليمين المؤكدة له فى أعناقهم . وقد اجتمع عندى مائة ألف عنان مؤلفة قلوبهم مجتمعة آراؤهم شديد بأسهم وأنا أرى لسيدى أمير المؤمنين الانحياز إلى مصر فإن أمره يرجع بعد الامتهان إلى نهاية العز ويزول عنه ما يخاف فى كل لحظة » .

---

(١) ابن الأثير ج ٧ ص ١٥٨ والسيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣٦٥ .

(٢) ابن الداية : سيرة ابن طولون ص ٦٨ و ٦٩ والنجوم الزاهرة ج ٣ ص ٤٥ .

زواج الخليفة المعتضد من قطر الندى :

وقد نجح خمارويه أيضاً فى الحصول على رضاء الخليفة المعتضد وهو أبو العباس ابن أبى أحمد الموفق طلحة . وكان أبوه قد حبسه فى حياته لشدة بأسه ، وعند احتضاره أخرجه الجند بغير رضائه . وكان المعتمد عند موت الموفق ظن أنه استراح وأن الأمر قد صار بيده ولكنه كان واهماً لأن أمر المعتضد زاد أضعاف ما كان عليه الموفق « حتى أنه خلع المفوض من ولاية العهد وصار هو ولى عهد عمه المعتمد وتولى الخلافة بعده . . . »[١] فى صبيحة الإثنين ١٩ رجب سنة ٢٧٩ هـ[٢] . وقد حصل خمارويه منه على خلعة وهدايا وعلى تقليد بحكم مصر وسورية وبلاد الجزيرة العليا له ولأبنائه من بعده ثلاثين سنة ، وأراد أن يزداد تقرباً منه فعرض عليه أن يتزوج إبنه على الذى تولى الخلافة فيما بعد باسم المكتفى من ابنته أسماء ( قطر الندى ) ولكن الخليفة وافق على أن يتزوجها هو نفسه[٣] .

وقد أرسل خمارويه إلى الخليفة المعتضد هدايا عظيمة القيمة مع حسين ابن عبد الله المسمى بابن الجصاص قيل إنها كانت تشمل عشرين حملا من أحمال البغال وعشرة من الرقيق وصندوقين كبيرين مملوءين بالثياب الفاخرة وعشرين فارساً ومعهم خيولهم وعليها السروج المحلاة بالفضة وسبع عشرة دابة منها خمسة دواب عليها سروج من ذهب والباقية عليها سروج من فضة ، وكذلك دواباً أخرى وزرافة . كما أنه جهز قطر الندى جهازاً عظيماً لم يسمع بمثله ، ويقال إنه كلفه مليون دينار فى حين لم يدفع الخليفة سوى مليون درهم صداقاً وأرسل فقط هدايا من العطور النادرة الواردة من الهند والصين كما أرسل إلى خمارويه اثنى عشرة خلعة وسيفاً وتاجاً ووشاحاً . وقد جاء

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٧٩ .
(٢) المصدر نفسه ص ٨٠ .
(٣) المصدر نفسه ص ٥٣ .

فى حسن المحاضرة[١] أنه كان من ضمن جهاز قطر الندى ألف تكة بجوهر وعشر صناديق جوهر ومائه هون ذهب ، كما جاء فى النجوم الزاهرة[٢] : « وكان من جملة جهازها دكة أربع قطع من ذهب عليها قبة من ذهب مشبك فى كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة من جوهر لا يعرف لها قيمة ، ومائة هاون من الذهب . وقال الذهبى : وألف هاون من ذهب ... »

وقد يدل على مبالغة خمارويه فى تجهيز ابنته ما ذكره أبو المحاسن بعد ذلك حيث قال[٣] : « ولما دخل إلى خمارويه ابن الجصاص يودعه قال له خمارويه : هل بقى بينى وبينك حساب ؟ قال : لا . فقال خمارويه : انظر حسناً . فقال : كسر بقى من الجهاز . فقال خمارويه أحضروه فأخرج ربع طومار فيه ثبت ذكر نفقة الجهاز فإذا فيه أربعمائة ألف دينار فوهبها له خمارويه . قال محمد بن على الماذرائى : فنظرت فى الطومار فإذا فيه : وألف تكة الثمن عنها عشرة آلاف دينار » . قال القضاعى : « وإنما ذكرت هذا الخبر ليستدل به على أشياء منها سعة نفس أبى الجيش خمارويه ومنها كثرة مال ابن الجصاص حتى أنه قال : كسر بقى من الجهاز وهو أربعمائة ألف دينار لو لم يذكره بذلك لم يذكره ومنها عمارة مصر من ذلك الزمان لما طلب فيها ألف تكة من أثمان عشرة دنانير قدر عليها فى أيسر وقت بأهون سعى . ولو طلب اليوم خمسون لم يقدر عليها . انتهى كلام القضاعى » ولم يكتف خمارويه بكل ذلك بل إنه أعطى ابنته على ما يقال مائة ألف دينار لتشترى بها من العراق ما قد تحتاج إليه مما لا يتهيأ مثله بالديار المصرية[٤] . كما أنه أمر فبنى لها على رأس كل منزلة تنزل فيها قصر فيما بين مصر وبغداد وأخرج معها أخاه خزرج بن أحمد بن طولون فى جماعة مع ابن الجصاص

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٤٨ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٦١ .

(٣) المصدر نفسه ص ٦٢ .

(٤) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٤٨ .

فكانوا يسيرون بها سير الطفل فى المهد ، فكانت إذا وافت المنزلة وجدت قصراً قد فرش فيه جميع ما تحتاج إليه . وقد علقت فيه الستور . وأعد فيه كل ما يصلح لمثلها ، وكانت فى مسيرها من مصر إلى بغداد على بعد الشقة كأنها فى قصر أبيها حتى قدمت بغداد فى أول المحرم سنة اثنتين وثمانين ومائتين وهى سنة قتل فيها خمارويه . . . »[١] وقد « أنزلت فى دار صاعد . وكان المعتضد غائباً بالموصل فلما سمع بقدومها عاد إلى بغداد ودخل بها فى خامس شهر ربيع الأول بعد أن عمل لها مهمًا يتجاوز الوصف»[٢]. وقد قال بعض الشعراء فى هذا الزواج[٣] :

| | |
|---|---|
| يا سيد العرب الذى وردت له | باليمن والبركات سيدة العجم |
| فاسعد بها كسعودها بك إنها | ظفرت بما فوق المطالب والهمم |
| شمس الضحى زفت إلى بدر الدجى | فتكشفت بهما عن الدنيا الظلم |

وقد كان لهذا الزواج أثره السياسى المطلوب إذا زاد عطف الخليفة على حميه خمارويه وولاه على البلاد الممتدة من الفرات حتى برقة ثلاثين سنة « وجعل إليه الصلاة والخراج والقضاء بمصر وجميع الأعمال ، على أن خمارويه يحمل إلى المعتضد فى العام مائتى ألف دينار عما مضى وثلثمائة ألف دينار عن المستقبل »[٤] . على أن هذا الزواج كلف خمارويه كثيراً وتركه فى حالة شديدة من الإفلاس حتى دعا هذا بعض المؤرخين[٥] إلى القول بأن المعتضد أراد بزواج قطر الندى أن يفقر أباها خمارويه فى جهازها . ويقول الدكتور على إبراهيم[٦] إن المصادر العربية تؤكد أن قطر الندى حين وصلت

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٦٢ — ٦٣ .

(٢) شرحه ص ٨٧ .

(٣) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٤٨ — ١٤٩ .

(٤) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٥٣ .

(٥) شرحه ص ٥٣ .

(٦) على ابراهيم : مصر فى العصور الوسطى ص ٥٩ .

إلى بغداد كان خمارويه في هم مقيم وكرب شديد مما دعاه إلى لعن ابن الجصاص الذي تولى أمر الجهاز .

### (٣) حكومة الطولونيين :

#### سلطة الطولونيين الشرعية :

كان الأمراء الطولونيون من الناحية القانونية ولاة من قبل الخلفاء العباسيين ، ولذلك كانوا يذكرون اسمهم في الخطبة ويدعون لهم ، كما كانوا ينقشونه على السكة . وقد قيل إن أحمد بن طولون لم يضع اسمه على السكة مع الخليفة العباسي إلا بعد أن قام بحملته الأولى على بلاد الشام وأصبح له نفوذ عظيم هناك . ومنذ سنة ٢٦٦ ﻫ أصبح على دنانير مصر اسم أحمد بن طولون واسم الخليفة . ويلاحظ أن أحمد بن طولون لم يحذف اسم الخليفة من على عملته أبداً ولكنه لم يضع عليها اسم الموفق . كما كان يفعل غيره من حكام الولايات[١] . وفضلا عن هذا فإن الطولونيين كانوا يدفعون جزية إلى مركز الخلافة العباسية وقد سبق أن أشرنا إلى أن عدم رضاء الموفق عن الأموال التي كان يرسلها أحمد بن طولون كان السبب في عداء شديد بينه وبين ابن طولون كما رأينا أن صلحاً عقده عدة مرات مع خمارويه ، وتحددت فيه الجزية التي تدفعها مصر إلى الخلافة العباسية .

#### سلطة الطولونيين الفعلية :

أما من ناحية الواقع فإن الطولونيين كانوا مستقلين في حكم مصر تقريباً وكانت لهم حاشية تشبه حاشية الملوك كما كانو يتخذون الحجاب والكتاب ويظهرون بمظهر الملوك أيضاً ، فكانت لهم مواكب عظيمة وأسمطة وموائد أشرنا إليها فيما مضى .

---

(١) Lane-Poole: *A Hist. of Egypt in the M. Ages*, p. 67.

الحجاب :

ونحن لا نعلم أنه كان يوجد وزراء للطولونيين وربما كان ذلك لأن أحمد ابن طولون كان واسع النفوذ عظيم السلطان . وكان يستبد بالنظر فى كافة أعمال الدولة ، ولكننا نعلم أنه كان يوجد حجاب فى البلاط الطولونى وكانت لهم أهميتهم إذ كانوا يشبهون الأمناء فى بلاط الملوك فى الأزمنة الحديثة ، ومن الحجاب المشهورين فى أيام أحمد بن طولون نسيم الخادم الذى كان كان يكلف فى كثير من الأحيان بتأدية بعض المهام من مركز الخلافة العباسية[١] .

الكتاب :

وبجانب الحجاب كان يوجد الكتاب ، ويبدو أنهم كانوا على نوعين أحدهما يشمل الكتاب الذين كان يطلق على كل واحد منهم اسم كاتب السر وكان كالسكرتير الخاص للملك أو الأمير فى عصرنا الحاضر ، يحضر مجالسهم ويدون محضراً بما يدور فى تلك المجالس سواء أكان ذلك عند حضور الوفود أو رجال الدولة أو بعض المتظلمين ، وقد كان عمله يستدعى السرعة والدقة بدون شك ولذلك قيل إن هؤلاء الكتاب فيما يظهر كانوا يعلمون نوعاً من الاختزال[٢] أما النوع الثانى من الكتاب فكان يشمل كتاب الإنشاء والمراسلات وكانت مهمتهم تحرير الكتب التى يرسلها الأمراء الطولونيون إلى غيرهم من الملوك والأمراء[٣] .

أصحاب البريد :

أضف إلى ذلك عمال البريد أو أصحاب البريد ، وقد كان لهم أهمية كبيرة فى العصر الطولونى بصفة خاصة لأن الطولونيين كما ذكرنا وبخاصة فى

---

(١) على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ص ٢٩٩ .

(٢) Zaki Hassan: *Les Tulunides*, p. 209.

(٣) على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ص ٢٢٩ .

عهد أحمد بن طولون كانوا يعتمدون على التجسس . ومهمة صاحب البريد في ذلك العصر كانت تقديم التقارير عن كل مايجرى فى البلاد بمساعدة معاونيه الذين كانوا يمثلونه فى الأقاليم . ويظهر أن الناس كانوا ينظرون نظرة ازدراء وكراهية إلى العمل الذى كان يقوم به صاحب البريد وأعوانه ويدل على ذلك أن امرأة استعطفت ابن مهاجر صاحب البريد فى عهد أحمد ابن طولون ليجد لابنها وظيفة ولما رشحه بوظيفة عامل بريد فى قريته بمرتب عشرة دنانير شهرياً رجته الأم أن يعفى ابنها من هذا العمل لأنه عمل يقوم على التجسس وكشف عورات الناس(١) .

رجال الشرطة :

ونحن لاننسى أخيراً ضمن كبار موظفى الحكومة الطولونية أصحاب الشرطة . وقد وجدت فى هذا العهد شرطتان الفوقانية والسفلانية أو الشرطة العليا والشرطة السفلى . ولم تقتصر سلطة صاحب الشرطة على تنفيذ الأوامر والمحافظة على النظام فقط بل كانت له اختصاصات قضائية أيضاً . وكان ذلك الموظف الكبير يعين من قبل الوالى على البلاد ويكون مقره العاصمة ، وكانت الشرطة العليا تختص بالنظر فى أحوال الطبقة العليا من القواد والعلماء والعظماء وأما الشرطة السفلى فكانت خاصة بإقامة العدل وتوطيد الأمن بين العامة وأوساط الناس(٢) .

القضاة :

أما القضاة فى ذلك العهد فلم ترع حرمتهم . ويكفى أن نعلم أن أحمد ابن طولون حبس القاضى بكار بن قتيبة حين رفض الموافقة على لعن الموفق

---

(١) ابن الداية : المكافأة ص ١٥٨ .

(٢) الكندى : الولاة والقضاء ص ٢٢٣ .

على المنابر . وقد كان القضاة في هذا العصر كعهدنا بهم في الفترة السابقة يعينون من قبل الخليفة العباسي في بغداد . ولم يكونوا جميعاً من أتباع مذهب واحد وكان الواحد منهم يحكم وفق عقائد مذهبه . أما الأعمال التي كانت توكل إليهم فكانت كثيرة . ففضلا عن الحكم في قضايا الناس كانوا يشرفون على ديوان الحسبة ونظام الأسواق . على أنه مما يؤسف له أن القضاة في هذا العهد كانوا منصرفين إلى خدمة الولاة وإرضائهم على حساب العدل ولذلك أفاض المؤرخون في التحدث عن بكار الذي عارض أحمد بن طولون ولم يسهبوا في الكلام على القضاة الذين جاءوا بعده (١) .

السجون :

وقد كانت معاملة المسجونين في هذا العهد لا تجرى على وتيرة واحدة إذ كان من المسجونين من يؤمرون بالتزام دورهم فلا يخرجون منها ولا يتصلون بالخارج أي من كانوا يخضعون لما يشبه الاعتقال في أيامنا . وكان منهم من ينقلون إلى السجون عقب الحكم عليهم . على أن هؤلاء لم يكونوا يكلفون بالأشغال الشاقة لحساب الدولة . بل كانوا يقومون بصنع بعض الأشياء على أن تباع لحسابهم الخاص (٢) .

أصحاب الكور :

أما الأقاليم والكور فكانت لها حكوماتها المحلية التي يقوم على رأسها أصحاب الكور . وقد كان الأمراء الطولونيون يشرفون على هؤلاء الحكام المحليين كما كانوا يفتشون عليهم . وقد قدم لنا سمو المغفور له الأمير عمر طوسون خدمة جليلة حين دون أسماء الكور المصرية في دولة الطولونيين

(١) الكندي : الولاة والقضاة ص ٥٠٩ — ٥١٤ .

(٢) Zaki Hassan: *Les Tulunides*, p. 206.

وما يقابلها من الأسماء الحالية على خرائط قيمة لا غنى عنها للباحثين فى تقسيم مصر الإدارى فى عصور مصر المختلفة القديمة والمتوسطه والحديثة[١] .

الجيش :

أما جيشهم فكان جيشاً عظيما اعتمدوا عليه فى القضاء على الثورات والعقبات التى صادفتهم كما اعتمدوا عليه فى التوسع فى الشام والدفاع عن نفوذهم فيه . وقد قيل إن أحمد بن طولون كون جيشاً كبيراً يبلغ حوالى مائة ألف جندى من السودان والإغريق والترك والعرب . وكانت له الفرصة لتكوين هذا الجيش عند ما أمره الخليفة العباسى بمحاربة عيسى بن الشيخ والى الشام الثائر ثم عاد فأعفاه من ذلك[٢] . على أن القول بأن جيش أحمد بن طولون بلغ مائة ألف جندى ليس دقيقاً كل الدقة . ويبدو أن السبب فى هذا القول أن هذا العدد ذكر فى عدة مناسبات إحداها عند ما سار أحمد بن طولون للقضاء على العباس ابنه الثائر ، فقد ورد أن جيوشه كانت تتألف من مائة ألف رجل والأخرى عندما أرسل أحمد بن طولون كتابه المعروف إلى الموفق فإنه هدده بإرسال مائة ألف والثالثة عند ما كتب أحمد بن طولون إلى الخليفة العباسى المعتمد فإنه عرض عليه أن يكون فى حماية مائة ألف رجل . ويتضح أن هذا العدد فيه شىء من المبالغة عند ما نعلم أن الجيوش الطولونية فى عهد أحمد بن طولون كانت تشمل أكثر من أربعة وعشرين ألفاً من الأتراك ، وأربعين ألف زنجى ، وسبعة آلاف حر مرتزق[٣] .

وفى عهد خمارويه أصبح الجيش الطولونى يتألف من أربعمائة ألف

---

(١) على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ص ٢٩٧ — ٢٩٨ .

(٢) Zaki Hassan: *Les Tulunides*, pp. 167-168.

(٣) *Ibid.*, pp. 166-167.

جندى . هذا فضلا عن الحرس الخاص الذى كونه هذا الأخير من عرب الحوف وكان أفراده يسمون المختارة . وكانت له شهرة كبيرة فى الحرب وقد قال عنه أبو المحاسن[١] . « وكان خمارويه قد اتخذ لنفسه من مولدى الحوف وسائر الضياع قوماً معروفين بالشجاعة وشدة البأس ، لهم خلق تام وعظم أجسام وأجرى عليهم الأرزاق ووسع لهم فى العطاء وشغلهم عما كانوا فيه من قطع الطريق وأذية الناس بخدمته وألبسهم الأقبية من الحرير والديباج وصاغ لهم المناطق وقلدهم بالسيوف المحلاة يضعونها على أكتافهم إذا مشوا بين يديه وسماهم المختارة . فكان هؤلاء يقاتلون أمام جند خمارويه أضعاف ما يقاتله الجند » . ويدل على عناية خمارويه بجنوده أنه كان ينفق عليهم فى السنة تسعمائة ألف دينار[٢] .

وقد كان الجند فى الدولة الطولونية يستعملون فى قتالهم المجانيق والسيوف والقنابل الحارقة والنبال والقوس والرمح ، وكانت الفرق المحاربة تصطحب معها الموسيقى فتدق الطبول وتقرع الصنوج لبث الحماسة فى نفوس المقاتلين[٣] وهذا يدل على أن القوات المحاربة فى العصر الطولونى كانت قوات منظمة ومعدة إعداداً حسناً .

**الأسطول :**

ولم يهمل الطولونيون أمر الأسطول أيضاً وقد قيل إن أحمد بن طولون اهتم بدار الصناعة بجزيرة الروضة وبنى مائة ألف سفينة على يد صناع من القبط ، كما حصن عكا وجعلها ميناء بحرياً قوياً على يد جد المقدسى الجغرافى وفى عهد خمارويه سار الأسطول لحماية سواحل الشام . ولكن يجب أن

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٥٩ .

(٢) Lane-Poole: *A Hist. of Egypt*, p. 74.

(٣) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣١٨ ، وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٥ .

نلاحظ أن السيطرة فى البحر الأبيض فى ذلك الوقت لم تكن للطولونيين بل كانت لأسطول الأغالبة الذى انتصر عدة مرات على الأسطول البيزنطى واستولى على صقلية ومالطة ، ونهب سواحل إيطاليا وبلغ روما نفسها . وقد كان لطرسوس أيضاً التابعة للدولة العباسية أسطول عظيم جاء تحت قيادة دميانة ضمن حملة محمد بن سليمان الكاتب ، وحطم الأسطول الطولونى فى تنيس[١] .

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٢٢ والنجوم الزاهرة ج ٢ ص ١١٠ :
Zaki Hassan: *Les Tulunides*, p. 174.

# الفصل الثالث

## الحالة الاقتصادية

كان اهتمام الطولونيين عظيما بترقية موارد مصر الاقتصادية حتى يستطيعوا أن يدافعوا عن أنفسهم ضد أعدائهم وحتى يستطيعوا أن يقوموا بأعمال الإصلاح الكثيرة التي كانت محل اهتمامهم وعنايتهم والتي كانت تتطلب كثيراً من الأموال . ويدل على تقدم الحالة الاقتصادية في عهدهم ما خلفوه من الأموال الكثيرة ، وقد قيل إن أحمد بن طولون ترك في خزانته عشرة مليون دينار ، ومن سبعة آلاف فارس من المماليك إلى عشرة آلاف ، وحرساً من أربعة وعشرين ألف مملوك ، وثلثمائة حصان وآلاف البغال والحمير والجمال ، ومائة سفينة حربية[1] .

### ١ — الزراعة :

وكانت الزراعة تلقى من الطولونيين القدر الأكبر من العناية . ويقال إن أحمد بن طولون طهر الترع وأقام المقاييس واستعمل ماء النيل استغلالا يفوق استغلال من سبقوه ، وإن كنا لا نستبعد أن يكون قد لجأ إلى السخرة في هذا السبيل ، ولدينا دليل على ذلك هو ما قيل عن العجوز التي ذهبت تشكو إلى أحمد بن طولون من عمال الحكومة الذين اغتصبوا جمالها في السخرة[2] كما يقال أيضاً إن أحمد بن طولون لم يثقل كاهل الفلاحين بضرائب جديدة بل وألغى الضرائب التي كان قد فرضها من قبل عامل الخراج ابن المدبر . وليس هذا فحسب بل إن ابن طولون شجع الفلاحين على امتلاك

---

(١) Lane-Poole: *A Hist. of Egypt*, p. 71.

(٢) Zaki Hassan: *Les Tulunides*, p. 336.

و Lane-Poole: *A Hist. of Egypt*, p. 65.

الأرض وطمأنهم على حق الملكية[١] ، ويستدل لينپول[٢] على تقدم الزراعة فى عهد أحمد بن طولون من زيادة الخراج فى عهده حتى بلغ ٤٫٣٠٠٫٠٠٠ ( أربعة مليون وثلثمائة ألف دينار ) بعد أن كان فى عهد ابن المدبر ٨٠٠٫٠٠٠ دينار فقط مع مراعاة أن أحمد بن طولون لم يفرض ضرائب جديدة ، كما يستدل الدكتور حسن إبراهيم حسن على وجود الرخاء والتقدم الزراعى فى مصر فى عهد أحمد بن طولون من رخص الحبوب إلى حد أن كان كل عشرة أرادب من القمح بدينار واحد[٣] ، إذ أن هذا بدون شك يدل على وفرة المحصول فى تلك الأيام . وقد قيل إنه فى عهد خمارويه كان يشترى كل ثلاثة أرادب بدينار وأن السنوات الأخيرة من حكم خمارويه شهدت تدهوراً اقتصادياً[٤] .

٢ — التجارة :

ولم يهمل أحمد بن طولون شئون التجارة وربما كان ذلك لميل فيه إلى المتاجرة فقد قيل : إنه حسن له بعض التجار التجارة ، فدفع له أحمد ابن طولون خمسين ألف دينار يتجر له بها . فرأى ابن طولون بعد ذلك فى منامه كأنه يمشمش عظماً ، فدعا المعبر وقص عليه فقال : قد سمت همتك إلى مكسب لا يشبه خطرك فأرسل ابن طولون فى الحال إلى التاجر وأخذ المال منه فتصدق به[٥] ، ويقال إن أحمد بن طولون طهر قناة الإسكندرية[٦] حتى جعلها صالحة للملاحة . وفى العصر الطولونى

---

(١) Lane-Poole: *A Hist. of Egypt*, p. 71.

(٢) Lane-Poole: *A Hist. of Egypt*, p. 71.

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ٣٧ .

(٤) Zaki Hassan: *Les Tulunides*, p. 247.

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٢ .

(٦) Lane-Poole: *A Hist. of Egypt*, p. 65.

بصفة عامة راجت التجارة الداخلية والخارجية فى مصر ، وكان أكثر التجار من اليهود الذين ساعدهم حذقهم فى اللغات الأجنبية على رواج تجارتهم[١]. ويتضح لنا أن التجارة كانت رائجة فى العصر الطولونى عندما نعلم بوجود أسواق كبيرة كان فيها مكان مخصص لكل نوع من المتاجر . وقد قيل إن أسواق كبيرة للخشب كانت موجودة فى الفسطاط فى أيام الطولونيين وإن تجارة العاج كانت لها أسواقها الهامة[٢] ، ويبدو أن عناية الطولونيين بالعملة كان لها أثرها فى رواج التجارة . وقد ترك لنا الطولونيون مجموعة كبيرة من قطع النقد الجيدة وهى على العكس من قطع النقد الأغلبية ، لا يوجد عليها اسم الموظف الذى كان يقوم بضرب النقود ، ويبدو أن الطولونيين كانوا كغيرهم من الحكام المسلمين يعهدون بمهمة سك النقود إلى الإغريق[٣] .

٣ — الصناعة :

ولقد لقيت الصناعة عناية كبيرة أيضاً فى العصر الطولونى فى مصر ومن أشهر الصناعات التى تقدمت فى ذلك الوقت فى مصر صناعة النسيج اليدوى وقد كانت أهم مراكز صناعة نسج القطن والصوف والكتان فى تنيس ودمياط والاسكندرية والبهنسا والأشمونين وأسيوط وإخميم . أما مراكز نسج الحرير فكانت فى الاسكندرية ودبيق . وكانت هناك مصانع حكومية يطلق عليها اسم دور الطراز تقوم بنسج ثياب الأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة وصنع الخلع التى كان يخلعها الوالى على أفراد الحاشية وذوى الحظوة عنده من رعيته . كما اختصت تلك المصانع الحكومية بصناعة الوشى والديباج وكان لها مديرون فنيون يتقاضون مرتباتهم من الدولة . وقد بلغت صناعة

---

(١) على ابراهيم : مصر فى العصور الوسطى ص ٣٦٦ .

(٢) Zaki Hassan: *Les Tulunides*, pp. 238...240.

(٣) Zaki Hassan: *Les Tulunides*, pp. 210-211.

النسيج فى مصر فى العهد الطولونى حداً كبيراً من الجودة والدقة . ويتضح هذا الأمر من مجموعة قيمة من قطع النسيج عليها أسماء أمراء الدولة الطولونية موجودة فى دار الآثار العربية بالقاهرة . ومن بين هذه القطع قطعة عليها اسم الخليفة المكتفى وهارون بن خمارويه وتاريخها سنة ٢٩١ ﻫ وقطعتان أخريان تاريخهما هذه السنة نفسها . وهناك قطعة عليها اسم الخليفة المهتدى وعامل الخراج محمد بن هلال وهناك قطعة أخرى عليها اسم الخليفة المعتمد وخمارويه[١] . ويبدو أن صناعة النسيج كانت مصدر دخل كبير للطولونيين وذلك لأن دور الطراز كانت تنتج الثياب الفاخرة التى كانت ترسل ضمن الجزية السنوية والهدايا التى كانت ترسل إلى عاصمة الخلافة . كما أنه كانت هناك مصانع حرة تعمل للتجارة والتصدير وكانت تدفع ضرائب كبيرة[٢] . وفضلا عن صناعة النسيج تقدمت فى مصر فى العهد الطولونى صناعة الأسلحة . وقد كانت مصانع الأسلحة الحكومية تصنع الجزء الأكبر من الأسلحة اللازمة لجيش وحرس الطولونيين وليس هناك ما يحول دول القول بأنه كانت هناك مصانع أسلحة خاصة لصناعة الأسلحة التى كانت تباع للناس[٣] وقد تقدمت أيضاً صناعة ورق البردى ، وكانت تشرف عليها الحكومة . وقد تأثرت هذه الصناعة بظهور الورق حوالى النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى ( الثالث الهجرى ) الذى نحن بصدده ، ولكن يظهر أن الورق الذى كان يصنع فى سمرقند كان يستعمل فى الجزء الشرقى من العالم الإسلامى فى حين أن الغرب حتى ما بعد سقوط الطولونيين كان يستورد من مصر لفات ورق البردى[٤] ،

---

(١) Zaki Hassan: *Les Tulunides*, p. 210.

(٢) *Ibid.*, p. 239.

(٣) *Ibid.*, p. 240.

(٤) Zaki Hassan: *Les Tulunides*, p. 240.

وكانت من الصناعات الرائجة أيضاً صناعة الصابون وصناعة السكر وصناعة الزجاج وصناعة المعادن وصناعة الخزف[١] ويمكن القول بأن أكثر الصناع كانوا من المصريين الوطنيين سواء من اعتنق منهم الإسلام أو من بقى على مسيحيته . وكان لتنقل الصناع من مصر إلى الأقطار الإسلامية الأخرى أو من هذه الأقطار إلى مصر أثر فى نقل الفن الفارسى والعراقى والبيزنطى إلى مصر أو نقل الفن القبطى والطولونى إلى هذه الأقطار[٢] .

---

(١) على ابراهيم : مصر فى العصور الوسطى ص ٣٦٥ — ٣٦٦ .

(٢) على ابراهيم : مصر فى العصور الوسطى ص ٣٦٦ .

# الفصل الرابع

## الحالة الاجتماعية فى العصر الطولونى

كان المجتمع المصرى فى العصر الطولونى يشمل عدة طبقات منها الطبقة العليا وطبقة الشعب وطبقة أهل الذمة .

### ١ — الطبقة العليا :

أما الطبقة العليا فكانت تتألف من كبار موظفى الحكومة الطولونية وأعوانها وكانت تشارك بدون شك الأمراء الطولونيين حياة الغنى والترف فى الملبس والمأكل واللهو ، وكانت من غير المصريين فى العادة ، ونقصد بالمصريين من أسلم من أهل مصر ومن أخذ يندمج فى المصريين من العرب . وقد كان أفراد هذه الطبقة يأكلون لحوم الضأن والدجاج والخضروات والأسماك ، كما كانوا يأكلون من الحلوى الفالوذج ( البالوظة ) واللوزينج وهى تشبه القطايف والمأمونية ( العصيدة ) . أضف إلى ذلك أنهم عرفوا اللحوم المبردة والماء المثلج[1] .

### ٢ — طبقة الشعب :

وأما طبقة الشعب فكانت لا أهمية لها ، وإن كنا رأينا فيما سبق أن أحمد أحمد بن طولون كان يعطف عليها عطف السادة ويقيم لها المآدب ويجلس للتفرج عليها . وسنرى فيما بعد أن أحمد بن طولون سيحاول إرضاءها عن طريق استغلال شعورها الدينى وذلك حين يذكر أنه بنى مسجده من كنز

---

(١) ابن الداية : سيرة ابن طولون ص ٧٢ .

وجده أثناء قيامه بالصيد ، لإقناع الناس بالصلاة فيه بعد أن رفضوا ذلك اعتقاداً منهم بأنه بناه من مال حرام ، وحين يطلب الناس تغيير موضع القبلة فى هذا الجامع ويحاول أن يكسب رضاءهم عنها بذكر حلم يقصه عليهم يقول فيه إنه رأى النبي وإن النبي هو الذى خط موضع القبلة ثم أمر هو البنائين بالبناء طبقاً لرغبة النبي . أضف إلى ذلك أن أحمد بن طولون بنى المارستان فى العسكر كما سنذكر عند الكلام على المنشآت وجعل العلاج فيه بالمجان ، كما ألحق به حمامين شعبيين ، وبذلك عمل لمصلحة هذه الطبقة المحرومة .

ومما يدل على أن الشعب كان فى وضع حقير فى ذلك العهد ما يذكره أبو المحاسن عن تلهف الشعب على بقايا مأكولات خدم دار الحرم ، فقد قال بعد كلام على دار الحرم التى بناها خمارويه لنساء أبيه ونسائه المبعدات عنه وأمدها بكل ما تلزمه من الخدم والحاجيات « وكان الخدم الموكلون بالحرم من الطباخين وغيرهم يفضل لكل منهم مع كثرة عددهم الشىء الكثير من الدجاج ولحم الضأن والحلوى والقطع الكبار من الفالوذج والكثير من اللوزينج والقطائف والهبرات من العصيدة التى تعرف اليوم بالمامونية وأشباه ذلك مع الأرغفة الكبار . واشتهر بمصر بيع الخدم لذلك فكان الناس يأتونهم لذلك من البعد ويشترون منهم ما يتفكهون به من الأنواع الغريبة من المآكل . وكان هذا دواماً فى كل وقت بحيث أن الرجل إذا طرقه ضيف خرج من فوره إلى باب دار الحرم فيجد ما يشتريه ليتجمل به لضيفه مما لا يقدر على مثله[1] .

٣ — أهل الذمة :

وأما طبقة أهل الذمة من الأقباط واليهود فإنهم كانوا فى أحسن حال

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٥٨ .

فى العصر الطولونى . وذلك لأن الطولونيين كانوا يعاملون رعيتهم على اختلاف طوائفها من مسلمين وأقباط ويهود على قدم المساواة[١] ؛ ويقول لينبول إن القبط لم يجدوا عصراً نجوا فيه من الاضطهاد مثل عهد أحمد بن طولون[٢] وهو صادق فى هذا كل الصدق ، ويشاركه فى رأيه هذا غيره من المؤرخين ومنهم الدكتور زكى محمد حسن[٣] الذى قال إن الأقباط فى العصر الطولونى كان لا يزال عددهم كبيراً وإن كانت أغلبيتهم قد دخلت فى الإسلام وأنهم تمتعوا بهدوء لم يتمتعوا به من زمن طويل . والواقع أن أحمد بن طولون كثيراً ما أبدى ميولا حسنة نحو الأقباط ومن ذلك كتابته فى أول عهده إلى عامل الخراج ابن المدبر يوصيه بإعفاء رهبان دير القصير الذى كان يتردد عليه من الجزية[٤] وتبرعه بمبلغ ثلاثين ألف دينار لمن أصابهم الحريق بالحى المجاور لكنيسة العذراء مريم وكانت أغلبيتهم من المسيحيين ، وذلك عند ما ذهب إلى دمشق وفى صحبته كاتبه الواسطى وأبو زرعه عبد الرحمن ابن عمرو الدمشقى[٥] . على أن هذا لا يمكن أن يحول دون القول بأن بعض المظالم نزلت بالأقباط على يد أحمد بن طولون . وقد أشار لينبول إلى فرض أحمد بن طولون غرامات كبيرة على البطرك القبطى[٦] ، كما أن الدكتور زكى محمد حسن[٧] ذكر سوء معاملة أحمد بن طولون للبطرك ميخائيل وفرضه عليه الغرامات الكبيرة . فإن أحمد بن طولون كان فى حاجة كبيرة إلى المال لإعداد حملة له إلى الشام ، وتقدم له أسقف حانق على البطرك ميخائيل لأنه كان قد عزله من منصبه وأخبره بأن البطرك يملك ثروة كبيرة فلم يسعه إلا أن

---

(١) Zaki Hassan: *Les Tulunides*, p. 220.

(٢) Lane-Poole: *A Hist. of Egypt in the M. Ages*, p. 66.

(٣) Zaki Hassan: *Les Tulunides*, pp. 216-217.

(٤) ابن الداية : سيرة ابن طولون ص ٧٣ و *Les Tulunides*, p. 218.

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٣ — ١٤ و *Les Tulunides*, p. 218.

(٦) Lane-Poole: *A Hist. of Egypt*, p. 66.

(٧) *Les Tulunides*, pp. 217-218.

طالب البطريك بتقديمها ، ولما أنكر وجودها عنده حبسه ولم يطلقه إلا بعد أن توسط لديه الكاتبان المسيحيان يوحنا وإبراهيم إبنا موسى وبشرط أن يدفع غرامة قدرها عشرون ألف دينار . وقد فرض البطرك ضريبة على المسيحيين وباع كنيسة بقرب حصن بابليون وأملاكا أخرى من أملاك الكنيسة لليهود ومع ذلك فإنه لم يستطع جمع المبلغ كله وزج به أحمد بن طولون من جديد فى السجن حيث ظل به حتى أطلق سراحه خمارويه . أضف إلى ذلك أن الطولونيين لم يولوا كثيراً من القبط فى المناصب الكبرى . فإننا إذا استثنينا المهندس الذى بنى جامع ابن طولون المسمى سعيد بن نورال واسحق ابن نصر العبادى كاتب خمارويه لا نكاد نجد موظفاً كبيراً يسترعى أنظار المؤرخين العرب . وقد يكون السبب فى ذلك طبيعة الأسرة الطولونية وأخلاق مؤسسها وتربيته الدينية ورغبة الطولونيين فى إرضاء رجال الدين المسلمين وفى تملق الرعية ، فإن كل ذلك ربما حتم عليهم أن يولوا المناصب الكبرى لغير الأقباط[١] . ويبدو أن اليهود تمتعوا أيضاً فى العهد الطولونى بالأمن والطمأنينة وكانوا يعتبرون عنصراً هاماً من العناصر المصرية . ويدل على ذلك أنهم كانوا يذكرون جنباً إلى جنب مع الأقباط فى المناسبات ، ومن ذلك ذكرهم مع الأقباط عند الكلام على هدم مقابرهم ومقابر الأقباط على يد أحمد بن طولون وذهابهم مع الأقباط إلى جبل المقطم ليدعوا الله أن يشمل بعنايته ورعايته أحمد بن طولون عندما كان مريضاً . وقد ذكر ابن أبى أصيبعة طبيباً يهودياً اسحق بن سليمان من أصل مصرى ذهب إلى أفريقية وعاش بالقرب من زيادة الله بن الأغلب فى القيروان . أضف إلى ذلك أن حالة اليهود المادية كانت حسنة ، بدليل أنهم اشتروا كنيسة الأقباط من البطرك ميخائيل لكى يدفع الغرامة التى فرضها عليه ابن طولون[٢] .

---

(١) *Les Tulunides*, p. 212.

(٢) *Les Tulunides*, p. 220.

# الفصل الخامس

## المنشآت فى عصر الطولونيين

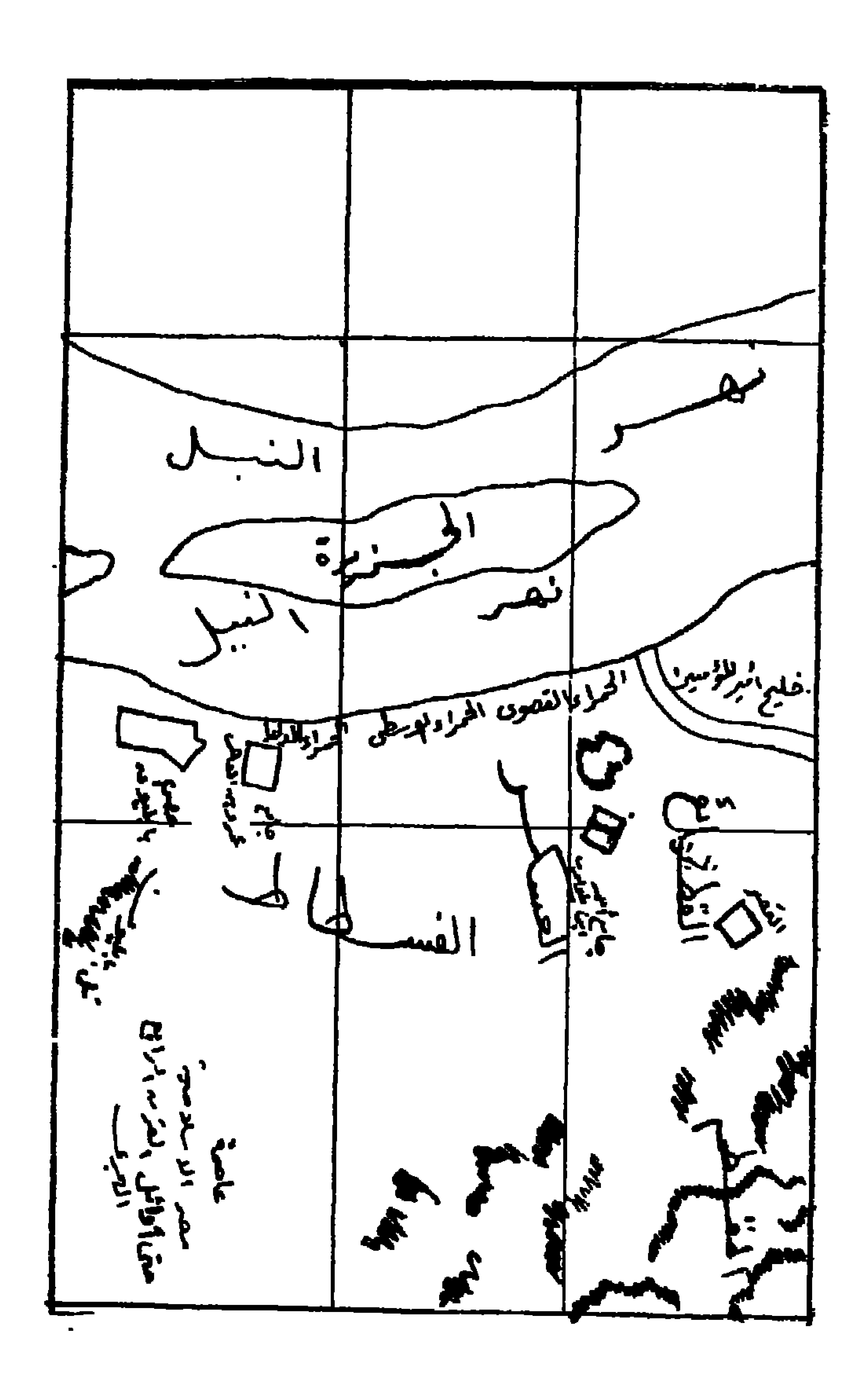
حديث الكنز :

توفرت لدى الطولونيين أموالا طائلة لعنايتهم بالحالة الاقتصادية للبلاد كما سبق أن ذكرنا ومن جراء توفر النظام فى تصريف شئون البلاد . وقد ساعد هذا المال الطولونيين على إقامة الكثير من المنشآت الهامة التى زال أكثرها ولم يبق له أثر الآن وعرفنا وصفه من أقوال المؤرخين وبقى أحدها وهو جامع أحمد بن طولون يشهد بما كانت عليه من عظمة وفخامة . وما دمنا بصدد الكلام عن هذا المال الذى أقيمت به هذه المنشآت فيحسن بنا أن نشير إلى مصدر آخر قيل إنه أمد أحمد بن طولون بمبلغ كبير من المال ساعده على إقامة بعض منشآته وهذا المصدر هو الكنز الذى ورد حديثه فى كثير من كتب التاريخ وقد قال عنه أبو المحاسن[1] : إن أحمد بن طولون « ركب يوماً ليتصيد بمصر فغاصت قوائم فرسه فى الرمل فأمر بكشف ذلك الموضع فظفر بمطلب فيه ألف ألف دينار فأنفقها فى أبواب البر والصدقات » كما ذكر عنه فى موضع آخر رواية طويلة تبين أن عزوف أحمد بن طولون عن ظلم الناس ومصادرة أموالهم كان سبباً فى وجود الكنز وهى كما يلى[2] : وأما أمر الكنز فإنه ذكر غير واحد من المؤرخين أن أحمد بن طولون كان له كاتب يعرف بابن دشومة وكان واسع الحيلة بخيل اليد زاهداً فى شكر الشاكرين لا يهش إلى شىء من أعمال البر وكان ابن طولون من أهل القرآن

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٧ — ٨ .

(٢) شرحه ص ٩ — ١٠ .


نهر
النيل
الجزيرة
نهر
النيل
الحمراء القصوى
الحمراء الوسطى
خليج أمير المؤمنين
الفسطاط

إذا جرت منه إساءة استغفر وتضرع واتفق أن الخليفة المعتمد أمر ابن طولون أن يتسلم الخراج حسبما ذكرناه فامتنع عن المظالم الدينية ثم شاور كاتبه ابن دشومة المذكور فقال ابن دشومة : يؤمنني الأمير لأقول له ما عندى . فقال أحمد بن طولون : قل وأنت آمن . فقال : يعلم الأمير أن الدنيا والآخرة ضرتان والشهم من لم يخلط إحداهما بالأخرى والمفرط من جمع بينهما . وأفعال الأمير أفعال الجبابرة وتوكله توكل الزهاد ، وليس مثله من ركب خطة لم يحكمها . ولو كنا نثق بالنصر وطول العمر لما كان شيء آثر عندنا من التضييق على أنفسنا فى العاجل لعمارة الآجل . ولكن الإنسان قصير العمر كثير المصائب والآفات وهذه المظالم قد اجتمع لك منها فى السنة ما قدره مائة ألف دينار . فبات أحمد ابن طولون ليلته وقد حركه قول ابن دشومة فرأى فيما يرى النائم صديقاً له كان من الزهاد مات لما كان ابن طولون بالثغر قبل دخوله إلى مصر وهو يقول له : بئسما أشار عليك ابن دشومة فى أمر الارتفاق . واعلم أنه من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه . فارجع إلى ربك . وإن كان التكاثر والتفاخر قد شغلاك عنه فى هذه الدنيا ، فامض ما عزمت عليه وأنا ضامن لك من الله تعالى أفضل العوض منه قريباً غير بعيد . فلما أصبح أحمد بن طولون دعا ابن دشومة فأخبره بما رأى فى نومه . فقال له ابن دشومة : أشار عليك رجلان . أحدهما فى اليقظة والآخر فى المنام وأنت لمن فى اليقظة أوجد وبضمانه أوثق . فقال ابن طولون : دعنى من هذا . وأزال جميع المظالم ولم يلتفت إلى كلامه ثم ركب أحمد بن طولون إلى الصيد فلما سار فى البرية انخسفت الأرض برجل فرس بعض أصحابه فى قبر فى وسط الرمل . فوقف أحمد بن طولون عليه وكشفه فوجد مطلباً واسعاً فأمر بحمله فحمل منه من المال ما قيمته ألف ألف دينار فبنى منه هذا الجامع والبئر بالقرافة الكبرى والبيمارستان بمصر ووجوه البر ثم دعا بابن دشومة المقدم ذكره ، وقال والله لولا أنى أمنتك لصلبتك ثم بعد مدة صادره واستصفى أمواله وحبسه حتى مات » . ولسنا نرى أن

مسألة الكنز مسألة حقيقية بل نرى أنها إشاعة من اختراع أحمد بن طولون أشاعها بين الناس لأنهم كانوا يعتقدون أنه ظالم وأن أمواله حرام وأن المنشآت التى يقيمها يجب عليهم ان يقاطعوها ويبتعدوا عنها . وقد وردت عدة روايات تشير إلى هذه الحقيقة منها ما ذكره السيوطى[١] من أن أحمد ابن طولون لما بنى مسجده « أشعر الناس بالصلاة فيه فلم يجتمع فيه أحد وظنوا أنه بناه من مال حرام فخطب فيه وحلف أنه ما بنى هذا المسجد بشىء من ماله وإنما بناه بكنز ظفر به وأن العشار الذى نصبه على منارته وجده فى الكنز فصلى الناس فيه » . ولا أستبعد أن يفعل أحمد بن طولون ذلك وهو الذى عند ما سأله الناس أن يوسع قبلة ذلك الجامع وأراد أن يقضى على معارضتهم قال لهم « إن المهندسين اختلفوا فى تحرير قبلته فرأى فى المنام النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقول يا أحمد ابن قبلة هذا الجامع على هذا الوضع وخط له فى الأرض صورة ما يعمل فلما كان الفجر مضى مسرعاً إلى ذلك الموضع فوجد صورة القبلة فى الأرض مصورة فبنى المحراب عليها ولا يسعه أن يوسع فيه لأجل ذلك . . . . » . فواضح من هذا أن أحمد ابن طولون كان يلجأ إلى الناحية الدينية إذا أراد أن يقنع شعب مصر بأمر يريده وليس هناك ما يحول دون القول بأنه أشاع مسألة الكنز حتى يقبل الناس على الصلاة فى مسجده .

## منشئات أحمد بن طولون

### القطائع :

ومن أهم المنشئات التى أقامها أحمد بن طولون عاصمته التى تسمى القطائع ، وقد كان من عادة ولاة مصر وحكامها منذ الفتح العربى أن يهتموا باتخاذ حاضرة لهم . وقد رأينا كيف اتخذت الفسطاط ثم العسكر حواضر لولاة مصر . وقد رأى أحمد بن طولون أن مدينة العسكر تضيق بزجاله وأحب

---

(١) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٣٦ .

(٢) شرحه .

أن يقوم بإنشاء مدينة جديدة فاختار الفضاء الواقع على جبل يشكر بين المقطم من الشرق وميدان زين العابدين الحالى من الغرب وشارع الصليبة من الشمال وفضاء شمالى الفسطاط من الجنوب . وقد سميت المدينة الجديدة باسم القطائع لأن كل طائفة من رجاله اتخذوا لهم فيها قطيعة من الأرض وعمروها . وكان بدء العمل فى مدينة القطائع سنة ٢٥٦ هـ أى بعد مجىء أحمد بن طولون إلى مصر بسنتين . وقد اشتملت المدينة الجديدة على منازل وأسواق وحمامات ودواوين للحكومة[١] .

القصر :

وكان أهم المنشئات التى أقيمت بداخل القطائع قصر بناه أحمد بن طولون بالقرب من المقطم ويقال إنه بنى فى المنطقة التى تشمل الآن سجن قره ميدان وتمتد حتى جامع السلطان حسن[٢] . وقد ألحق به حديقة واسعة كما حمل إليه الماء من عين فى الصحراء الجنوبية بواسطة قناة معلقة أقامها المهندس القبطى الذى بنى جامعه[٣] .

الميدان :

وقد أقام ابن طولون غربى القصر ميداناً أحاطه بالأسوار التى تتخللها الأبواب الكثيرة . وقيل إنه كان يلعب فى هذا الميدان بالصوالجة .

الجامع :

ولكن أهم المبانى التى أنشأها أحمد بن طولون فى القطائع هو جامعه

---

(١) Lane-Poole: *A Hist. of Egypt*, p. 63. والسيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٥٢ .

(٢) *Les Tulunides*, p. 48.

(٣) Lane-Poole: *A Hist. of Egypt*, p. 65.

العظيم الذى لا يزال قائماً حتى الآن محتفظاً باسمه . وقد بدأ بناؤه سنة ٢٦٣ هـ وتم سنة ٢٦٥ هـ . وأراد به صاحبه أن يكون مصلى لجنده بعد أن ضاق مسجد العسكر بالمصلين وأن يكون مكاناً تذاع منه قرارات الدولة وملجأ وحصناً منيعاً يلجأ إليه إذا دهمه خطر فى الداخل أو من الخارج . ويقال إن الذى بناه مهندس قبطى وإنه كوفئ على عمله بعشرة آلاف دينار ومعاش محترم مدى الحياة كما يقال إن هذا المهندس أنفق فى بنائه مائة وأربعين ألف دينار[1] . ويقال إن أحمد بن طولون قال أريد بناءاً إذا احترقت مصر بقى وإن غرقت بقى فأشاروا عليه باستعمال الآجر الأحمر والجير والرماد ولذلك بنى جامعه من هذه المواد كما يقال أيضاً إن أعمدته اتخذت من الطوب الأحمر وكان هذا لأول مرة بعد أن كانت أعمدة المساجد تؤخذ من قبل من أعمدة الآثار القديمة ومن الكنائس . وقد استعملت فى بنائه طريقة الأقواس المدببة Pointed Arches (الكمرات) قبل أن تستعمل فى انجلترا بقرنين من الزمان[2] . ولهذا الجامع منارة تخالف فى مظهرها منارات المساجد جميعها فى مصر ويقال فى شأنها إن الصناع قالوا لأحمد بن طولون « على أى مثال نصنع المنارة ؟ وما كان يعبث قط فى مجلسه فأخذ درجاً من الكاغد وجعل يعبث به فخرج بعضه وبقى بعضه فى يده . فعجب الحاضرون . فقال أحمد : اصنعوا المنارة على هذا المثال فصنعوها[3] » . ويذكر لين پول أن هناك أثريين يشكون فى قدم المنارة ولا يستبعد أن تكون هذه المنارة قد بنيت على مثال منارة جامع سامرا التى رآها أحمد بن طولون بدون شك فى صغره وهو فى هذا يأخذ بأقوال ابن دقاق والمقريزى[4] وأقيمت فى

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٨ والسيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٣٧ و Lane-Poole: *A Hist. of Egypt*, p. 63.

(٢) زكى حسن : الفن الإسلامى فى مصر ص ٤١ — ٤٢ Lane-Poole: *A Hist. of Egypt*, pp. 63, 65.

(٣) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٨ .

(٤) Lane-Poole: *A Hist. of Egypt*, p. 65. والانتصار جـ ٤ ص ١٢٤ والخطط جـ ٢ ص ٢٦٦ .

وسط صحن جامع أحمد بن طولون « قبة مشبكة من جميع جوانبها وهى مذهبة على عشرة عمد رخام مفروشة كلها بالرخام . وتحت القبة قصعة رخام سعتها أربعة أذرع فى وسطها فوارة تفور بالماء وكانت على السطح علامات للزوال والسطح بدرابزين ساج » وقد احترق هذا كله فى سنة ٣٧٩هـ وفى سنة ٣٨٥هـ وأمر العزيز بالله الفاطمى ببناء فوارة عوضاً عن التى احترقت[١] وقد بنيت خلف هذا الجامع ميضأة كما ألحقت به خزانة للأدوية بها خدم وعين للاشراف عليها طبيب كانت مهمته السهر على راحة المصلين وعلاج ما ينتابهم أثناء وجودهم فى الجامع وبمعنى آخر أنه كان بمثابة الأسعاف الآن .

مسجد التنور :

وقد أنشأ ابن طولون أيضاً مسجداً آخر على جبل يشكر سنة ٢٥٩ هـ. عرف باسم مسجد التنور وكان يقع فى المكان الذى فيه الآن مسجد أمير الجيوش بدر الجمالى المعروف بمسجد الجيوشى . ويقال إن هذا المكان كان يسمى تنور فرعون وكانت النيران تشعل فوقه كلما خرج ابن طولون فى موكب من قصره إلى جهة من الجهات . وقد بنى على هذا الجامع منارة ليهتدى بها الناس وجعل فيه صهريجاً للماء ولكن الناس كانوا لايصلون فيه صلاة الجمعة أبداً لأنهم كانوا يفضلون الذهاب إلى المساجد الجامعة القريبة منهم[٢] .

المارستان :

ولم تقتصر منشئات أحمد بن طولون على القطائع بل إنه بنى فى العسكر مارستاناً سنة ٢٥٩ هـ وجعل به حمامين شعبيين يستعملهما الناس على اختلاف

---

(١) السيوطى ، حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٣٧ .

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٢١٨ — ٢١٩ ، المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٨٠ — ١٨١ .

أديانهم ومذاهبهم ، كما أعده على نحو ما تعد المستشفيات الحديثة ، ويقال إنه أنفق على بنائه ستين ألف دينار[1] ، وإن المريض عند دخول هذا المارستان كانت تنزع ثيابه ويؤخذ ماله ويعطى لأمين المارستان ثم بعد ذلك يأخذ له مكاناً تتوفر له فيه الراحة بالمارستان . وكان يعالج ويعطى له الدواء مجاناً حتى يشفى . ومن طريف ما يروى أن علامة الشفاء فى ذلك الوقت كانت تقديم دجاجة ورغيف إلى المريض ، فإذا استطاع أن يأكلهما عد علاجه منتهياً وخرج من المارستان[2] .

حصن الجزيرة :

وكذلك أقام أحمد بن طولون حصناً بالجزيرة كى يلجأ إليه هو وأسرته وحرسه إذا حاق به خطر ، وكان ذلك حين اشتد العداء بينه وبين أبى أحمد الموفق طلحة . وقد صرف عليه أكثر من ثمانين ألف دينار ولكنه بعد ذلك حين أحس بالطمأنينة والاستقرار صرف النظر عن إتمامه[3] .

السقاية :

ومن المنشآت الهامة التى أقامها ابن طولون أيضاً خارج القطائع السقاية التى أقامها فى الصحراء فى المنطقة الواقعة الآن بين جهة البساتين وبين القرافة الكبرى . وقد أوصل إليها الماء على قناطر معلقة كالتى كان يراها فى طرسوس . ويقال إن سبب إنشاء هذه السقاية أن أحمد بن طولون مرّ ذات يوم على حائك بالصحراء ، وكان شديد العطش ، فقال له : « يا خياط أعندك ماء ؟ فقال : نعم . ثم أخرج له كوزاً فيه ماء ، وقال له اشرب ولا تمد

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٢ والسيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٣٧ .

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٤٠٥ .

(٣) على ابراهيم : مصر فى العصور الوسطى ص ٤١٣ : و

Lane-Poole: *A Hist. of Egypt*, p. 65.

فتبسم أحمد بن طولون وشرب فمد فيه حتى شرب أكثره ، ثم ناوله إياه وقال يا فتى ! سقيتنا وقلت لا تمد . فقال نعم أعزك الله ، موضعنا ها هنا منقطع ، وإنما أخيط جمعتى حتى أجمع ثمن راوية ماء . فقال ابن طولون : والماء ها هنا معوز ؟ فقال . نعم »[١] . ولما عاد ابن طولون إلى داره أرسل إلى الخياط فأحضره ثم أرسل معه المهندسين ليقيموا السقاية وأعطاه ألف دينار وأجرى عليه راتباً شهرياً قدره عشرة دنانير . وقال له بشرنى ساعة يجرى الماء[٢] . ويقال أيضاً إن أحمد بن طولون أنفق على بناء هذه السقاية أربعين ألف دينار ، وبعد أن أتم بناءها صار يعتز بها ولا يغفر لأحد ينتقدها[٣]. ولاشك أن إقامة هذه السقاية كانت عملا عظيما ، إذ أنها كانت سبباً فى ازدياد العمران فى منطقتها ، ويقال إن المصريين تنافسوا فى اقتناء الدور حولها كما أنها أمدت رواد الصحراء بالماء . ويقال إن المهندس الذى بنى هذه السقاية هو نفسه الذى بنى جامع أحمد بن طولون فيما بعد . وكان قد أحكم بناءها حتى صارت نادرة المثال ولكنه كان سيء الحظ لأن أحمد ابن طولون بعد أن تم بناؤها خرج ليشاهدها فأبدى إعجابه بها ولكن رجل فرسه غاصت بطريق الصدفة فى موضع منها لرطوبة الجير فيه فكبا به الفرس فأمر بحبسه ولم يطلق سراحه إلا حين أراد أن يبنى مسجده وأظهر رغبته فى ألا يستعمل أعمدة الكنائس فى أعمدته ، وعلم هذا المهندس برغبته وأظهر استعداده لإجابتها ، فأخرج من سجنه وعمل نموذجاً من الجلد للجامع[٤] .

## منشئات خمارويه

### بستان خمارويه :

وبعد أحمد بن طولون سار ابنه خمارويه على سياسته فى الإنشاء والتعمير

(١) ابن دقاق : الانتصار ج ٤ س ٥٧ .

(٢) المقريزى : الخطط ج ٢ س ٤٥٧ .

(٣) شرحه .

(٤) على ابراهيم : مصر فى العصور الوسطى ص ٤٠٦ — ٤٠٧ ، ٤١٢ — ٤١٣ .

وإن لاحظنا أنه لم يهتم بالمنشآت العامة كالمساجد والمستشفيات . ويقال إنه حول ميدان أبيه إلى بستان عظيم تفنن فى إعداده « وزرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر وحمل إليه كل صنف من الشجر المطعم وأنواع الورد وزرع فيه الزعفران وكسا أجسام النخل نحاساً مذهباً حسن الصنعة وجعل بين النحاس وأجسام النخل مزاريب الرصاص وأجرى فيها الماء المدبر . فكان يخرج من تضاعيف قائم النخل عيون الماء فينحدر إلى فساقى معمولة ويفيض الماء منها إلى مجار تسقى سائر البستان . وغرس فى أرض البستان من الريحان المزروع فى زى نقوش معمــولة وكتابات مكتوبة يتعاهدها البستانى بالمقاريض حتى لا تزيد ورقة على ورقة لئلا يشكل ذلك على القارىء وحمل إلى هذا البستان النخل من خراسان وغيرها »[1]. كما يقال إنه كان يجلب لهذا البستان النيلوفر من جنوى وكان يطعم المشمش باللوز .

دار الذهب :

ولم يكتف خمارويه بهذا بل اتخذ فى هذا البستان « مجلساً له سماه دار الذهب طلى حيطانه كلها بالذهب واللازورد فى أحسن نقش وجعل فى حيطانه مقدار قامة ونصف صوراً بارزة من خشب معمول على صورته وصور حظاياه والمغنيات اللاتى تغنيه فى أحسن تصوير وأبهج تزويق وجعل على رؤوسهن الأكاليل من الذهب والجواهر المرصعة وفى آذانها الأخراص الثقال ولونت أجسامها بأصناف تشبه الثياب من الأصباغ العجيبة فكان هذا القصر من أعجب ما بنى فى الدنيا »[2]. ويقال إن خمارويه بنى دار الذهب هذه لحظيته بوران التى كان يحبها حباً جماً والتى حزن على موتها قبيل تجهيز ابنته قطر الندى حزناً شديداً [3].

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٥٣ — ٥٤ .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٥٤ — ٥٥ .

(٣) شرحه ص ٦١ و *Les Tulunides*, p. 129.

بركة الزئبق :

وقد أمر خمارويه أيضاً بحفر بركة أمام دار الذهب ملأها زئبقاً . وسبب ذلك فيما يقول أبو المحاسن[1] « أنه اشتكى إلى طبيبه كثرة السهر وعدم النوم فأشار عليه بالتكبيس فأنف من ذلك وقال لا أقدر على وضع يد أحد على . فقال له الطبيب : تأمر بعمل بركة من زئبق . فعمل البركة المذكورة وطولها خمسون ذراعاً فى خمسين ذراعاً عرضاً وملأها من الزئبق فأنفق فى ذلك أموالا عظيمة . وجعل فى أركان البركة سككا من فضة . وجعل فى السكك زنانير من حرير محكمة الصنعة فى حلق من فضة وعمل فرشاً من أدم يحشى بالريح حتى ينتفخ فيحكم حينئذ شده . ويلقى على تلك البركة الزئبق ويشد بالزنانير الحرير التى فى حلق الفضة المقدم ذكرها . وينزل خمارويه فينام على هذا الفرش فلا يزال الفرش يرتج ويتحرك بحركة الزئبق ما دام عليه . وكانت هذه البركة من أعظم الهمم الملوكية العالية وكان لها فى الليالى المقمرة منظر عجيب إذا تألف نور القمر بنور الزئبق » .

حديقة الحيوانات :

وكذلك كان من منشآت خمارويه ما يشبه أن يكون حديقة الحيوانات جمع فيها من أنواع الطيور والحيوانات المتوحشة الشيء الكثير . وقد ذكر أبو المحاسن عند كلامه على البستان الذى غرسه خمارويه فى ميدان أبيه أنه « بنى فى البستان برجاً من الخشب الساج المنقوش بالنقر النافذ وطعمه ليقوم هذا البرج مقام الأقفاص وبلط أرضه وجعل فيه أنهاراً لطافاً يجرى فيها الماء المدبر من السواقى . وسرح فى البرج من أصناف القمارى والدّباسى والنوبيات وما أشبهها من كل طائر يستحسن صوته وأطلقها بالبرج المذكور فكانت تشرب وتغتسل من تلك الأنهار . وجعل فى البرج أوكاراً فى

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٥٥ .

قواديس لطيفة ممكنة فى جوف الحيطان ليُفرخ الطيور فيها وعارض لها فيه عيداناً ممكنة فى جوانبه لتقف عليها إذا تطايرت حتى يجاوب بعضها بعضاً بالصياح . وسرح فى البستان من الطير العجيب كالطواويس ودجاج الحبش ونحو ذلك شيئاً كثيراً »[١] . كما ذكر أيضاً أن خمارويه بنى داراً للسباع « وعمل فيها بيوتاً كل بيت لسبع لم يسع البيت غير السبع ولبؤته وعمل لتلك البيوت أبواباً تفتح من أعلاها بحركات ولكل بيت منها طاقة صغيرة يدخل منها الرجل الموكل بخدمة ذلك البيت لفرشه بالرمل . وفى جانب كل بيت حوض من الرخام بميزاب من نحاس يصب فيه الماء وبين يدى هذه البيوت رحبة فسيحة كالقاعة فيها رمل مفروش . وفى جانبها حوض كبير من رخام يصب فيه ماء من ميزاب كبير . فإذا أراد سائس من سواس بعض السباع المذكورة أن ينظف بيت ذلك السبع أو يضع له غذاءه من اللحم رفع الباب بحيلة من أعلى البيت وصاح على السبع يخرج إلى الرحبة المذكورة . ثم يرد الرجل الباب وينزل إلى البيت من الطاقة ويكنسه ويبدل الرمل بغيره من الرمل النظيف ويضع غذاءه من اللحم فى مكانه بعد ما يقطع اللحم قطعاً ويغسل الحوض ويملؤه ماء . ثم يخرج الرجل ويرفع الباب من أعلاه كما فعل أولا . وقد عرف السبع ذاك . فحالما يرفع الباب دخل السبع إلى بيته وأكل ما هيىء له من اللحم . فكانت هذه الرحبة فيها عدة سباع ولهم أوقات يفتح فيها سائر بيوت السباع فتخرج إلى الرحبة المذكورة وتتشمس فيها ويهارش بعضها بعضاً فتقيم يوماً كاملا إلى العشى وخمارويه وعساكره تنظر إليها . فإذا كان العشى يصيح عليها السواس فيدخل كل سبع إلى بيته لا يتعداه إلى غيره . وكان من جملة هذه السباع سبع أزرق العينين يقال له زريق قد أنس بخمارويه وصار مطلقاً فى الدار لا يؤذى أحداً وراتبه على عادة السباع فلا يلتفت إلى غذائه بل ينتظر

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٥٤ .

سماط خمارويه . فإذا نصبت المائدة أقبل زريق معها وربض بين يدى خمارويه فيبقى خمارويه يرمى إليه بيده الدجاجة بعد الدجاجة والقطعة الكبيرة من اللحم ونحو ذلك مما على المائدة . وكانت له لبؤة لم تأنس بالناس كما أنس هو فكانت محبوسة فى بيت وله وقت معروف يجتمع بها فيه . وكان إذا نام خمارويه جاء زريق وقعد ليحرسه . فإن كان قد نام على سريره ربض بين يدى السرير وجعل يراعيه ما دام نائماً . وإن نام خمارويه على الأرض قعد قريباً منه وتـفطّن لمن يدخل أو يقصد خمارويه لا يغفل عن ذلك لحظة واحدة . وكان فى عنق زريق طوق من ذهب فلا يقدر أحد أن يدنو من خمارويه ما دام نائماً لمراعاة زريق له وحراسته إياه حتى أراد الله إنفاذ قضائه فى خمارويه كان بدمشق وزريق بمصر . ولو كان زريق حاضراً لما كان يصل إلى خمارويه أحد فما شاء الله كان »[١] . وأشار أبو المحاسن[٢] أيضاً إلى أن خمارويه بنى داراً مفردة للفهود وأخرى للنمورة وأخرى للفيلة وأخرى للزرافات وهكذا .

وأخيراً فنحن لا ننسى أن خمارويه بنى فى القصر الكبير المجاور للقطم قبة مثل قبة الهواء سماها الدكة « وجعل لها السُّتر الذى يقى الحر والبرد فيسدل حيث شاء ويرفع متى أحب . وكان كثيراً ما يجلس فى هذه القبة ليشرف منها على جميع ما فى داره من البستان والصحراء والنيل والجبل وجميع المدينة ثم بنى ميداناً آخر أكبر من ميدان أبيه »[٣] كما أنه « بنى داراً جديدة للحُرَم من أمهات أولاد أبيه مع أولادهن وجعل معهن المعزولات من أمهات أولاده وجعل فيها لكل واحدة حجرة واسعة لتكون لهم بعد زوال دولتهم وأقام لكل حجرة من الخدم والأسمطة الواسعة ما كان يفضل عن أهلها منه شىء كثير . . . »[٤] .

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٥٦ — ٥٧ .

(٢) شرحه ص ٥٨ .

(٣) شرحه ص ٥٦ .

(٤) شرحه ص ٥٧ — ٥٨ .

# الفصل السادس

## الحالة العلمية والأدبية

لقد اهتم الطولونيون أيضاً بالحالة العلمية والأدبية حتى تقدمت وازدهرت فى عهدهم ازدهاراً كبيراً ، ولا شك أن تربية أحمد بن طولون كان لها أثر كبير فى تشجيعه لرجال العلم والأدب .

### عطف أحمد بن طولون على العلماء :

وقد أثر عن أحمد بن طولون أنه كان يعطف على العلماء ويحسن معاملتهم ومما يذكر فى سبيل التدليل على ذلك ما ورد فى كتاب حسن المحاضرة[١] عن معاملة أحمد بن طولون لمحدث خراسان الحسن بن سفيان الفسوى وأصحابه فقد جاء أن ابن كثير حكى فى ترجمة الحسن بن سفيان الفسوى محدث خراسان قال : « من غريب ما اتفق له أنه كان هو وجماعة من أصحابه بمصر فى رحلتهم للحديث منهم محمد بن خزيمة ومحمد بن جرير ومحمد بن هرون الروياني . فضاق عليهم الحال حتى مكثوا ثلاثة أيام لا يأكلون شيئاً واضطرهم الحال إلى السؤال فأنفت نفوسهم من ذلك ثم ألجأتهم الضرورة إلى تعاطى ذلك . فاقترعوا فيما بينهم فوقعت القرعة على الحسن بن سفيان فقام فاختلى فى زاوية المسجد الذى هم فيه فصلى ركعتين أطال فيهما واستغاث بالله وسأله بأسمائه العظام ، فما انصرف من الصلاة حتى دخل رجل فقال : أين الحسن بن سفيان ورفقته ؟ فقالوا ها نحن . فقال : الأمير ابن طولون يقرأ عليكم السلام ويعتذر إليكم فى تقصيره عنكم وهذه مائة دينار لكل واحد منكم ، فقالوا : ما الحامل له على هذا ؟ فقال إنه أحب اليوم أن يختلى بنفسه ، فبينما هو الآن نائم إذ جاءه فارس فدخل عليه المنزل ووضع عقب الرمح على خاصرته فوكزه به ، وقال : قم فأدرك الحسن بن سفيان وأصحابه ، قم فأدركهم ، قم فأدركهم ، قم فأدركهم .

---

(١) السيوطى ، حسن المحاضرة ج ١ ص ١٢٥ .

فإنهم منذ ثلاثة أيام فى المسجد الفلانى . فقال له : من أنت ؟ فقال أنا رضوان خازن الجنة ، فاستيقظ الأمير وخاصرته تؤلمه ألماً شديداً ، فبعث بالنفقة فى الحال إليهم ثم جاء لزيارتهم واشترى ما حول ذلك المسجد ووقفه على الواردين إليه » . وهذه الحكاية رغم ما بها من أساطير تشير إلى عطف أحمد ابن طولون على هؤلاء العلماء وإحسانه إليهم . ولا يبعد أن يكون جواسيس أحمد بن طولون قد أبلغوه بوجود هؤلاء العلماء ، فأرسل إليهم الأموال وعطف عليهم .

الفقهاء المالكية :

وقد نبغ فى العهد الطولونى عدد كبير من الفقهاء والمحدثين نذكر منهم من المالكية محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ( + ٢٦٨هـ) . وقد كان فقيه أهل مصر ومحدثهم ولد سنة ١٨٢ هـ . وأخذ مذهب مالك عن ابن وهب وأشهب ولما قدم الشافعى مصر صحبه وتفقه به وإليه انتهت رياسة المالكية بمصر وكان « من أهل النظر والمناظرة والحجة ، وإليه كانت الرحلة من المغرب والأندلس فى العلم والفقه ... وكان أفقه أهل زمانه وله مصنفات كثيرة »[١] « وكان يعرف بصاحب الشافعى لأنه أسند إليه وكان مالكى المذهب وامتحن بعد أن حمل إلى بغداد فثبت على السنة[٢] » ، وكانت وفاته سنة ٢٦٨ هـ[٣] . ومن المالكية أيضاً محمد أصبغ بن الفرج ( + ٢٧٥ هـ )[٤] والعلامة ابن المواز أبو عبد الله محمد بن ابراهيم الاسكندرانى صاحب التصانيف الذى أخذ عن أصبغ بن الفرج وعبد الله بن عبد الحكم وانتهت إليه الرياسة فى مذهب مالك ومات سنة ٢٨١ هـ[٥] . وكذلك من المالكية

---

(١) السيوطى ، حسن المحاضرة ج ١ ص ١٢٤ .

(٢) النجوم الزاهرة لأبى المحاسن ج ٣ ص ٤٤ .

(٣) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٢٤ والنجوم الزاهرة ج ٣ ص ٤٤ .

(٤) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٩٠ .

(٥) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٢٤ .

المشهورين فى ذلك العصر أيضاً روح بن الفرج أبو الزنباع الزبيرى ( + ٢٨٢ هـ ) وأحمد بن موسى بن عيسى بن صدقة الصيرفى المصرى أبو بكر الزيات ( + ٣٠٦هـ ) وهو من أصحاب محمد بن عبد الحكم ، وأحمد بن الحرب ابن مسكين أبو بكر ( + ٣١١هـ ) وقد جلس مجلس أبيه بجامع عمرو ، وأحمد بن محمد بن خالد بن ميسر أبو بكر الاسكندرانى ( + ٣٠٩هـ ) «وقد تفقه بابن المواز وانتهت إليه الرياسة بمصر بعده وله تصانيف عديدة »[1] .

الفقهاء الشافعية :

أما الشافعية فقد نبغ منهم فى العهد الطولونى الإمام المُزَنى أبو إبراهيم اسماعيل بن يحيى بن اسماعيل بن عمرو بن مسلم المصرى صاحب الشافعى ( + ٢٦٤ هـ ) « وهو أحد الأئمة المشهورين وتفقه به جماعة وصنف التصانيف منها الجامع الكبير والجامع الصغير ومختصر المختصر » ولما قدم القاضى بكار بن قتيبة على قضاء مصر وهو حنفى اجتمع به المزنى فسأله رجل من أصحاب بكار وقال : قد جاء فى الأحاديث تحريم النبيذ وتحليله فلم قدمتم التحريم على التحليل ؟ فقال المزنى : لم يذهب أحد إلى تحريم النبيذ فى الجاهلية ثم حلل لنا . ووقع الاتفاق على أنه كان حلالا فحرم فبهذا نعضد أحاديث التحريم . فاستحسن القاضى بكار ذلك منه »[2] .

وقد نبغ من الشافعية أيضاً الربيع بن سليمان بن عبد الجبار بن كامل المرادى صاحب الشافعى ( + ٢٧٠ هـ ) « وقد نقل عنه معظم أقاويله . وكان فقيهاً فاضلا ثقة ديناً[3] » . ويقال إن الربيع ألقى أول درس له فى جامع

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ص ٢٩٠ — ١٩١ .

(٢) شرحه ج ٣ ص ٣٩ .

(٣) شرحه ص ٤٨ .

أحمد بن طولون وكافأه ابن طولون بكيس فيه ألف دينار . وكان لهذا العطاء أثره فألف الربيع كتاباً فى الحديث المنسوب إلى النبى الذى يقول فيه « من بنى لله مسجداً ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتاً فى الجنة » . كما يقال أيضاً إن عدنان بن أحمد بن طولون كان يحضر دروس الربيع بن سليمان وصار من تلاميذه[١] .

ومن الشافعية أيضاً « أبو زرعة محمد بن عثمان بن إبراهيم الدمشقى . ولى قضاء مصر عن أحمد بن طولون ، فأقام فيه ثمان سنين ثم ولى قضاء دمشق فأدخل فيها مذهب الشافعى وحكم به القضاة بعد أن كان الغالب عليهم مذهب الأوزاعى . وكان عفيفاً شديد التوقف فى الأحكام بالغاً فى الكرم أكولا توفى سنة اثنتين وثلثمائة »[٢] .

الفقهاء الحنفية :

أما فقهاء الحنفية فمن أشهرهم القاضى بكار بن قتيبة[٣] ( + ٢٧٠ ﻫ ) وهو من ولد أبى بكرة الصحابى البصرة وقد ولاه المتوكل القضاء بمصر سنة ٢٤٦ ﻫ ، وله أخبار فى العدل والعفة والنزاهة والورع وتصانيف فى الشروط والوثائق والرد على الشافعى فيما نقضه على أبى حنيفة[٤] » . ومنهم أيضاً أحمد بن أبى عمران ( + ٢٨٥ ﻫ ) وهو قاضى الديار المصرية ومن أكابر الحنفية وهو شيخ الطحاوى[٥] . ومنهم كذلك الطحاوى (+ ٣٢١ ﻫ) وهو ابن أخت المزنى « وكان ثقة ثبتاً فقيهاً لم يخلف بعده مثله انتهت إليه رئاسة الحنفية بمصر ، وله معانى الآثار وأحكام القرآن والتاريخ الكبير

---

(١) Zaki Hassan, *Les Tulunides*, p. 252.

(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٦٧ .

(٣) الكندى : الولاة والقضاة ص ٥٠٩ — ٥١٤ .

(٤) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٩٧ .

(٥) شرحه ص ١٩٧ .

واختلاف العلماء وكتاب فى الشروط »[١] .

رجال الحديث :

ويلاحظ أن النسائى صاحب كتاب السنن أقام فى مصر فى العهد الطولونى ولم يغادرها إلا سنة ٣٠٢ هـ ويقال إنه أقام بزقاق القناديل . وكان « أفقه مشايخ مصر فى عصره وأعرفهم بالصحيح والسقيم من الآثار وأعرفهم بالرجال . وقال الذهبي هو أحفظ من مسلم . له من المصنفات السنن الكبرى والصغرى وهى أحد الكتب الستة وخصائص على ومسند على ومسند مالك[٢] » .

المؤرخون :

وقد نبغ فى ذلك العصر أيضاً مؤرخون منهم عبد الرحمن بن عبد الله ابن عبد الحكم مصنف كتاب فتوح مصر[٣] . وأبو رفاعة عمارة الفارسى ( + ٢٨٩ هـ ) صاحب التاريخ على السنين .

النحاة والأطباء :

وظهر أيضاً فى العصر الطولونى علماء اشتغلوا بالنحو ومنهم محمد بن عبد الله بن مسلم الذى كان يعلم أبناء خمارويه النحو[٤] . وكذلك ظهر أطباء منهم سعيد بن نوفل ( يذكر أيضاً ابن نورال ) وهو نصرانى كان فى خدمة أحمد بن طولون وسعيد بن البطريق الطبيب الذى كانت له عدة مؤلفات منها تاريخه المسمى التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق والذى توفى سنة ٣٢٨ هـ[٥] .

---

(١) حسن المحاضرة للسيوطى ج ١ ص ١٤٧ .

(٢) شرحه ص ١٤٧ .

(٣) شرحه ص ١٩٠ .

(٤) Zaki Hassan, *Les Tulunides*, p. 255.

(٥) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٣٢ .

الأدباء :

أما الأدب فكانت سوقه رائجة فى العصر الطولونى أيضاً . وقد كان أحمد بن طولون كعادته فى كل شىء هو العامل المباشر فى تشجيع الأدب . ولسنا ننسى أنه اتخذ ديواناً للرسائل تشبهاً بالخلفاء فى بغداد أو سامرا وعهد بإدارته إلى ابن عبد كان ( + ٢٧٠ هـ ) الذى كان على ما يقول ابن النديم بليغاً وكاتباً أديباً وكان أسلوبه رائعاً ، وكذلك تكلم عنه القلقشندى وذكر أنه كتب رسالة إلى العباس بن أحمد بن طولون حين كان ثائراً على أبيه ، وكانت رسالة رائعة الأسلوب .

وقد ظهر فى العهد الطولونى عدد من الشعراء نذكر منهم الحسين بن عبد السلام الجمل ( + ٢٥٩ هـ ) الذى كان يصحب الشافعى رضى الله عنه[١] . وقد قيل إن النجوم تساقطت فى أيام أحمد بن طولون وراعه ذلك وسأل العلماء والمنجمين فلم يجيبوه بشىء ثم دخل عليه الجمل الشاعر وهم فى الحديث فأنشد فى الحال :

قالوا تساقطت النجو م لحادث فظ عسير
فأجبت عند مقالهم بجواب محتنك خبير
هذى النجوم الساقطا ت نجوم أعداء الأمير

فتفاءل أحمد بن طولون بذلك ووصله[٢] .

ومن هؤلاء الشعراء أيضاً قعدان بن عمرو الذى قال يمدح أحمد بن طولون ويدعو إلى نصرته ضد الموفق وأعوانه[٣] :

طال الهدى بابن طولون الأمير كما يزهو به الدين عن دين وإسلام

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٣٠ .

(٢) السيوطى ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٤٨ .

(٣) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٢٧ .

قاد الجيوش من الفسطاط يقدمها   منه على الهول ماض غير محجام

* * *

لو أن روح بنى كنداج معلقة   بالمشترى لم يفته أو ببهرام
حاط الخلافة والدنيا خليفتنا   بصارم من سيوف الله صمصام
يا أيها الناس هبوا ناصرين له   مع الأمير بدهم الخيل فى اللام

ومنهم مُنصّف بن خليفة الهذلى الذى قال يمدح ابن طولون[١] :

يا غرة الدنيا الذى أفعاله   غرر بها كل الورى تتعلق
أنت الأمير على الشآم وثغرها   والرقتين وما حواه المشرق
وإليك مصر وبرقة وحجازها   كل إليك فؤاده متشوق

ومنهم أيضاً محمد بن داؤود الذى هجا أحمد بن طولون وقلل من قيمة المارستان الذى بناه فقال[٢] :

ألا أيها الأغفال إيها تأملوا   وهل يوقظ الأذهان غير التأمل
ألم تعلموا أن ابن طولون نقمة   تسير من سفل إليكم ومن عل
ولولا جنايات الذنوب لما علت   عليكم يد العلج السخيف المجهّل
يعالج مرضاكم ويرمى حريمكم   حبيش ( ... ) القلب أدهم أعزل
فياليت مارستانه نيط بإسته   وما فيه من علج عتل مقلّل

ومنهم أيضاً القاسم بن يحيي المريمى الذى قال يمدح خمارويه[٣] :

أتانا أبو الجيش الأمير بيمنه   فشرعنا الجور وافتقر العسر
فإن يك أرض الرقتين به اكتست   ضياء وإشراقاً لقد أظلمت مصر

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٢٨ — بهرام اسم فرس .

(٢) شرحه ص ٢١٦ — أدهم : أسود ؛ أعزل : ناقص إحدى الحرقفتين ( رأسى الورك ) : لا سلاح معه ؛ العلج : الحمار ؛ عتل غليظ .

(٣) شرحه ص ٢٣٦ .

وقال يمدحه أيضاً[١] :

فتوح الأمير نجوم تلوح فليست تقاس إليها فتوح
تسير لها من جميع البلاد ركائب تغدو بهــا وتروح

وقد جاء فى كتاب الخطط[٢] أن أسماء الشعراء الذين كانوا يحضرون فى ميدان ابن طولون كانت موجودة فى كتاب يشمل اثنتى عشرة كراسة .

وقد تكون فى هذه الرواية بعض المبالغة إلا أنها تدل على كثرة الشعراء فى ذلك الوقت وعلى تشجيع الطولونيين لهم وإقامتهم لهم ما يشبه الأسواق العربية التى كانت تقام فى الجاهلية . كما ذكر بعض المؤرخين[٣] أن الطولونيين وبخاصة أحمد كانوا يستخدمون الشعراء كوسيلة للدعاية وكانوا يعطفون عليهم أكثر من عطفهم على الفقهاء والعلماء ولذلك رثاهم الشعراء . وقد ذكر الكندى[٤] خمسة من الشعراء رثوا القطائع بعد إزالتها وهم أحمد بن يعقوب وسعيد القاص وإسماعيل بن أبى هاشم ومحمد بن طشويه وأحمد بن إسحق الحكر .

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٣٦ .

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٢٦ .

(٣) *Les Tulunides*, p. 278.

(٤) الولاة والقضاة ص ٢٤٤ ، ٢٥٠ — ٢٥٣ ، ٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٥ و *Les Tulunides*, p. 271.

# الفصل السابع

## الحالة فى مصر بعد زوال الدولة الطولونية

يكاد الناس لا يحسون بأن هناك فاصلا بين الدولتين الطولونية والأخشيدية لأنهم تعودوا أن يسمعوا هذين الإسمين الواحد بعد الآخر مباشرة ولأن بعض المؤرخين يكتبون عن الدولتين تحت عنوان واحد . ولكن يجب أن نلاحظ أن هناك فترة طويلة بين هاتين الدولتين تبلغ حوالى ثلاثين سنة (٢٩٢ — ٣٢٣ ﻫ) كانت فيها مصر خاضعة لسلطان العباسيين المباشر .

**الولاة :**

ويلاحظ أن هذه الفترة كانت على الرغم من شيوع الفوضى فيها لها من الأخبار مايدعو إلى عدم إهمالها . وقد تولى الحكم فيها حوالى اثنى عشر والياً منهم أولهم عيسى بن محمد النوشرى وقد رأينا من قبل أن الخليفة المكتفى عينه وأنه تسلم مقاليد الأمور من محمد بن سليمان الكاتب القائد العباسى الذى قضى على الدولة الطولونية وحكم حوالى خمس سنوات ، ومنهم تكين الذى حكم أربع مرات بلغت الأولى خمس سنوات والثانية سنتين والثالثة سنة والرابعة حوالى تسع سنوات ومنهم ذكا الرومى وهلال ابن بدر وأحمد بن كيغلغ ومحمد بن طغج الذى ولى مصر فى هذا العهد ولكنه لم يأت إليها[1]

---

(١) Lane-Poole: *A Hist. of Egypt*, p. 79.

### ضعف سلطة الولاة :

على أن السلطة فى مصر فى تلك الفترة كانت فى يد القواد العسكريين والجنود وكان هؤلاء يملون إرادتهم على الولاة ، وكان الولاة لا يستطيعون البقاء فى مناصبهم إلا إذا رضى الجنود والقواد عنهم[١] . ويقال إن مؤنس الخادم أحد القواد الأتراك الذى أتى إلى مصر فى تلك الفترة لظرف من الظروف ظل عدة سنوات يولى ويعزل من الولاة من يشاء . وليت أمر القواد والجنود وقف عند هذا الحد بل إنهم كانوا يعيثون فى البلاد فساداً ويقتلون الناس وينهبون أموالهم . وقد حدث عندما جاء تكين فى ولايته الرابعة على مصر أن اضطر أن يعيش فى قصره فى حماية جنوده الذين عسكروا معه فى القصر . وفى أواخر ذلك العهد بعد موت تكين ثار الجند على ابنه واضطروه إلى الفرار من مصر كما اضطروا عامل الخراج إلى الاختفاء وأخذ الرؤساء يتنازعون على الولاية ويجمعون لهم من الجند من يشاءون ويتركون لهم الحرية فى النهب والسلب[٢] .

### الأسرة الماذرائية :

ولم يكن هناك من الموظفين فى مصر من يستحق الذكر اللهم إلا عمال الخراج الذين كانوا فى تلك الفترة من أسرة مشهورة هى الأسرة الماذرائية وكانت قوتهم ترجع إلى أنهم كانوا هم الذين يدفعون مرتبات الجنود[٣] . ومن أفراد هذه الأسرة المشهورين أبو زنبور الحسين بن أحمد الماذرائى الذى كان عاملا للخراج فى عهد عيسى النوشرى . وكذلك لم يكن هناك من القضاة المشهورين إلا قاضى واحد هو ابن حربويه الذى ظل فى القضاء مدة

---

(١) Lane-Poole: *A Hist. of Egypt*, p. 77.

(٢) *Ibid.*, p. 81.

(٣) *Ibid.*, p. 77.

طويلة وكان آخر من حظى بزيارة الولاة له رسمياً وكان عند حضورهم لايقوم من مجلسه لاستقبالهم (١) .

استيلاء ابن الخلنجى على مصر :

ويدل على ضعف السلطة الحاكمة فى مصر فى تلك الفترة أن أحد المغامرين واسمه محمد بن على الخلنجى استطاع أن يستولى على مصر وينشر نفوذه فيها ما يقرب من ثمانية شهور . وقد كان الخلنجى هذا من الجند المصريين الذين كانوا فى قيادة صافى الرومى أحد كبار القواد فى عهد أبى موسى هارون . وكان ممن خرجوا من مصر مع محمد بن سليمان الكاتب . وقد تركه بعد أن وصل إلى حلب وسار عائداً إلى مصر . وفى الطريق خطر له أن يدعو إلى نصرة الطولونيين وانضم إليه جماعة من المصريين واستطاع أن يستولى على الرملة فى شعبان سنة ٢٩٢ هـ ودعا على منابرها للخليفة العباسى وبعده لابراهيم بن خمارويه أحد الطولونيين الذين كانوا فى الحبس فى ذلك الوقت ثم بعدهما لنفسه باعتباره نائباً لابراهيم هذا (٢) . وقد دخل مصر بعد ذلك وزاد أتباعه شيئاً فشيئاً وأرسل عيسى النوشرى والى مصر الذى تسلم السلطة من القائد العباسى محمد بن سليمان الكاتب قوة لملاقاته ولكنها خافت منه وتقهقرت ثم خرج النوشرى بنفسه لملاقاته ولكنه خاف أيضاً وتقهقر حتى وصل الفسطاط ثم عبر النيل إلى الجيزة وأحرق وراءه الجسرين وبذلك دخل الخلنجى الفسطاط فى ٢٦ ذى القعدة سنة ٢٩٢ هـ بدون مقاومة (٣) ، وقد دعا فى الخطبة للخليفة العباسى ولإبراهيم بن خمارويه ولنفسه كما فعل من قبل فى الرملة . ولم يكن الناس قد نسوا عهد الطولونيين الباهر فسروا بما فعله الخلنجى واستقبلوه بالفرح والسرور ولونوا أنفسهم

---

(١) Lane-Poole: *A Hist. of Egypt*, p. 77.

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٤٧ *Les Tulunides*, p. 152. و Lane-Poole: *A Hist. of Egypt*, p. 78.

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٤٨ .

وخيولهم بالزعفران الأصفر . وبعد ذلك عين الخلنجي العمال اللازمين لإدارة شئون البلاد واتخذ مقامه فى قصر الإمارة وزاد أنصاره زيادة كبيرة . وقد وجد الخزانة خاوية لأن عيسى النوشرى كان قد حمل معه الأموال العامة والسجلات ومعظم الكتاب وكان من المستحيل معرفة الضرائب المستحقة على الناس للحكومة . ولكن الخلنجي لم يتعب نفسه وأمر رجاله بجمع الأموال بقدر ما يستطيعون وأن يعطوا الناس إيصالات بالمبالغ التى أخذوها ويعدوهم برد المبالغ الزيادة عند العثور على السجلات . وبعد هذا أرسل الخلنجي جنوداً بالبر والبحر إلى الاسكندرية مع أن والى مصر كان معسكراً بالقرب منها واستولى عليها وأعاد أموال الحكومة والكتاب[١] . وقد انتشر نفوذ الخلنجي فى العاصمة والدلتا[٢] . وبلغت المدة منذ دخوله مصر حتى قبض عليه سبعة أشهر واثنين وعشرين يوماً[٣] . وقد كان السبب فى القضاء عليه بسرعة هو اهتمام الخليفة العباسى المكتفى بأمره ويقال إنه أرسل إليه جيشاً من العراق ولكنه قابله عند العريش وهزمه وقتل منه عدداً كبيراً[٤]. كما أرسل إليه جيشاً ثانياً بقيادة فاتك المعتضدى[٥] وانضمت إليه قوات عيسى النوشرى التى كانت قد هزمت جزءاً من قوات الخلنجي واضطر الخلنجي إلى الالتجاء إلى الفسطاط وهناك سلم أصحابه وقبض عليه وأرسل إلى الخليفة فى بغداد حيث طافوا به على جمل ليكون عبرة لغيره ثم قتل[٦] .

---

(١) Lane-Poole: *A Hist. of Egypt*, p. 78.

(٢) *Les Tulunides*, p. 153.

(٣) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٥٢ .

(٤) Lane-Poole: *A Hist. of Egypt*, p. 79.

(٥) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٤٩ .

(٦) Lane-Poole: *A Hist. of Egypt*, p. 79.

### غارات الفاطميين :

وأهم ما يؤثر عن تلك الفترة أن مصر تعرضت فى أثنائها لخطر الغزو الفاطمى ولكنها نجت منه بفضل المساعدات التى كانت تصل من العراق ويقال إن القائد الفاطمى حباسه سار فى سنة ٣٠٦ هـ ( ٩١٤ م ) ومعه الخليفة الفاطمى القائم واستولى على الإسكندرية ثم وصل إلى الفيوم ولكن جيش مصر تمكن بمعاونة الإمدادات التى وصلته من بغداد من طرده من مصر . كما يقال إنه بعد هذا بخمس سنوات ( ٣١١ = ٩١٩ م ) عاد الفاطميون إلى مصر واستولوا على الإسكندرية وخربوا الفيوم واستمروا فى أعمال التخريب والنهب حتى الأشمونيين . وفى الوقت نفسه أتى الأسطول الفاطمى وكان يتألف من ثمانين سفينة ودخل ميناء الإسكندرية وجمع القواد العباسيون فى طرسوس عشرين سفينة بصعوبة وأرسلوها ضده ولكن هذه السفن القليلة استطاعت أن تحرق معظم السفن المعادية بالنفط وأن تقتل معظم رجالها أو تأتى بهم أسرى إلى الفسطاط . وفى النهاية استطاع والى مصر تكين أن يلتحم مع الفاطميين فى الفيوم وفى الإسكندرية واضطرهم إلى العودة إلى بلادهم[١] .

وفى أواخر تلك الفترة زادت مساوىء الجند الأتراك كما أن زلزالا شديداً حدث فى مصر وتبعه سقوط كثير من الشهب وانتشر الرعب فى البلاد وكان هذا هو الحال عندما ولى مصر محمد بن طغج للمرة الثانية[٢] .

---

(١) السيوطى ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٤٩ .
و Lane-Poole: *A Hist. of Egypt*, pp. 80-81.

(٢) Lane-Poole: *A Hist. of Egypt*, p. 81.

# الباب الرابع

## الدولة الأخشيدية

## ( ٣٢٣ – ٣٥٨ هـ )

---

# الفصل الأول

## موجز عن الأمراء الأخشيديين

*محمد بن طغج الأخشيد :*

تنسب هذه الدولة إلى مؤسسها محمد بن طغج الأخشيد . والأخشيد لقب منحه الخليفة الراضى لمحمد بن طغج بن جف فى شهر رمضان سنة ٣٢٧ هـ[١] ، أى بعد أن ولاه على مصر بأربع سنوات تقريباً . ومعنى هذا اللقب بلغة فرغانة ملك الملوك . وهو لقب لملوك فرغانة « كما أن أَصْبَهْبُذْ لقب ملوك طبرستان وصُول لقب ملوك جرجان وخاقان لقب ملوك الترك والأفشين لقب ملوك أشروسنه وسامان لقب ملوك سمرقند وقيصر لقب ملوك الروم وكسرى لقب ملوك العجم والنجاشى والحطى لقب ملوك الحبشة وفرعون قديماً لقب ملوك مصر وحديثاً السلطان . . . » أما طغج فمعناه بلغة فرغانة أيضاً عبد الرحمن[٢] .

وقد كان جف جد محمد أحد الضباط الأتراك الذين أحضرهم الخليفة

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ س ٢٥٢ .

(٢) المصدر نفسه س ٢٣٧ .

المعتصم إلى العراق . أما طغج والده فقد اتصل بخدمة أحمد بن طولون ثم بخدمة ابنه خمارويه ، وولى من قبل خمارويه طرسوس ، وحاز انتصارات كبيرة ضد الروم مما جعل خمارويه يوليه على دمشق . ولكن هذا التقدم أساء إلى طغج وجعله يتكبر ويغتر بنفسه ، وكان هذا سبباً فى أنه قضى الأيام الأخيرة من حياته فى سجن دمشق[١] .

وقد شارك محمد أباه طغج فى حبسه مدة من الزمن ، ثم استطاع أن يتخلص من السجن . وبعد هذا اتصل بخدمة تكين والى مصر والشام واستطاع أن يحصل على رضاه وولى من قبله سنة ٣٠٦ ﻫ على عمان وجبل السراه ، ثم بعد ذلك ولاه على الإسكندرية ثم على منطقة الحوف الشرقى بمصر السفلى . وبعد هذا حاز رضاء الخليفة العباسى المقتدر ( ٢٩٥ — ٣٢٠ ﻫ ) وولاه سنة ٣١٧ ﻫ على دمشق . وبعد هذا بثلاث سنوات أى فى سنة ٣٢١ ﻫ ولاه الخليفة القاهر ( ٣٢٠ — ٣٢٢ ﻫ ) مصر للمرة الأولى ولكنه لم يستطع الذهاب إليها بنفسه وأرسل نائباً ينوب عنه فيها لأن أحوال دمشق لم تكن تسمح بابتعاده عنها . وبعد ذلك ولاه الخليفة الراضى ( ٣٢٢ — ٣٢٩ ﻫ ) على مصر للمرة الثانية فجاء إليها سنة ٣٢٣ ﻫ وأقام بها وأسس دولته المشهورة[٢] .

### قضاؤه على بعض الصعوبات :

وقد لقى محمد بن طغج حين جاء إلى مصر سنة ٣٢٣ ﻫ من عامل الخراج محمد بن على الماذرائى مقاومة شديدة كما لقى أحمد بن طولون من قبل مقاومة من عامل الخراج ابن المدبر . وكذلك لقى محمد بن طغج مقاومة من أنصار أحمد بن كيغلغ والى مصر السابق . ولكنه استطاع أن يتغلب على هذه المقاومة بالاستعانة بالفضل بن جعفر بن الفرات الذى كان الخليفة قد وكل

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٥٤ .

(٢) ابن سعيد : المغرب ص ٧ — ٨ ، ١١ ؛ الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٨٢ و ٢٨٥ ؛ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٣٦ — ٢٣٧ .

إليه التفتيش على مصر والشام وجباية خراجهما وكان عدواً لدوداً لمحمد ابن على الماذرائى فقبض عليه وطالبه بالأموال وضايقه مضايقة شديدة . كما أنه تغلب على المقاومة العسكرية بأسطوله وجيشه وانتهى الأمر بخروج أنصار ابن كيغلغ والماذرائى من مصر وسيرهم نحو برقة وطلبهم المساعدة من الخليفة القائم بأمر الله الفاطمى ضد محمد بن طغج وتحريضهم له على غزو مصر[١] وبعد هذا لم تقم فى وجه محمد بن طغج عقبات داخلية ذات بال واستطاع أن يحكم فى مصر والشام إحدى عشرة سنة وثلاثة أشهر ويومين حتى مات فى يوم الجمعة لثمان بقين من ذى الحجة سنة ٣٣٤ هـ[٢] . وقد مدحه أبو المحاسن[٣] فقال : « وكان الأخشيد ملكا شجاعاً مقداماً حازماً متيقظاً حسن التدبير عارفاً بالحروب مكرماً للجند شديد البطش ذا قوة مفرطة لا يكاد أحد يجر قوسه وله هيبة عظيمة فى قلوب الرعية ، وكان متجملا فى مركبه وملبسه . وكان موكبه يضاهى موكب الخلافة . وبلغت عدة مماليكه ثمانية آلاف مملوك . وكان عدة جيوشه أربعمائة ألف وكان قوى التحرز على نفسه وكانت مماليكه تحرسه بالنوبة عند ما ينام كل يوم ألف مملوك . ويوكل الخدم بجوانب خيمته ثم لا يثق بأحد حتى يمضى إلى خيمة الفراشين فينام فيها . . . قال الذهبى : وتوفى بدمشق فى ذى الحجة عن ست وستين سنة ونقل فدفن ببيت المقدس الشريف ومولده ببغداد . وقال ابن خلكان : ولم يزل فى مملكته وسعادته إلى أن توفى فى الساعة الرابعة يوم الجمعة لثمان بقين من ذى الحجة سنة أربع وثلاثين وثلثمائة » .

### أبو القاسم أنوجور :

وبعد موت محمد بن طغج الأخشيد اختار الجند ولى عهده الذى كانوا

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٢٥٢ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٥٦ .

(٣) شرحه .

قد اختاروه فى حياة أبيه وهو أبو القاسم أنوجور وكان فى الرابعة عشرة من عمره . ومعنى أنوجور محمود أو محمود مقامه[١] . ويقال إن محمد ابن طغج الأخشيد لما عاد من الشام إلى مصر سنة ٣٣١ هـ على أثر وفاة ابن رائق « أخذ البيعة على المصريين لابنه أبي القاسم أنوجور وعلى جميع القواد والجند وذلك فى آخر ذى القعدة »[٢] . ويقال أيضاً إن الخليفة المتقى ( ٣٢٩ — ٣٣٣ هـ ) عند ما قابله الأخشيد على الشاطىء المقابل للرقة وأظهر له خضوعه واحترامه سر منه وقال له : « قد وليتك أعمالك ثلاثين سنة فاستخلف لك أنوجور »[٣] . ولو صح هذا القول لكان معناه أن الأخشيد حصل على تقليد جديد بولاية مصر وأصبح له حق توريثها لأبنائه من بعده لمدة ثلاثين سنة . وقد ظل أنورجور على إمرة مصر إلى أن مات فى يوم السبت سابع أو ثامن ذى القعدة سنة ٣٤٩ هـ وحمل إلى القدس فدفن عند أبيه الأخشيد وكانت مدة ولايته على مصر أربع عشرة سنة وعشرة أيام[٤] على أنه طوال مدة ولايته لم يكن له من الأمر شىء وكانت السلطة كلها فى يد كافور العبد الأسود الذى اشتراه الأخشيد من أحد الزياتين بما لا يزيد على ثمانية عشر ديناراً وجعله مربياً لأولاده . ثم أصبح وصياً على أنوجور ، وعامله معاملة الأستاذ لتلميذه ، وكان يخرج له كل سنة أربعمائة ألف دينار[٥] . وقد ثار أنوجور فى وقت من الأوقات على كافور بسبب تحريض بعض الناس له وقولهم له إن كافور قد انفرد بشئون الدولة من دونه « وابتعد أنوجور فعلا عن كافور وقرر السير إلى الرملة ولكن أمه خافت عليه وأخبرت كافور بخبره وانتهى الأمر بالصلح بينهما »[٦] .

---

(١) أبوالمحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٩١ والسيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٠ .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٥٤ .

(٣) سيدة الكاشف ، مصر فى عهد الأخشيديين ص ٨٦ .

(٤) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٩٣ .

(٥) شرحه ص ٢٩١ .

(٦) شرحه ص ٢٩٢ — ٢٩٣ .

ويبدو أن الأمور فى مصر لم تكن قد توطدت تماماً للأخشيديين فى عهد محمد بن طغج الأخشيد لأن أنوجور عند قدومه من الشام بعد وفاة أبيه واجهته مقاومة من غلبون متولى الريف[١] الذى خرج فى جموع ونهب مصر وتغلب عليها . وقد هرب غلبون من مصر عند وصول أنوجور إليها ولكن تبعه أبو المظفر الحسن بن طغج عم أنوجور حتى ظفر به وقتله[٢] .

أبو الحسن على :

وبعد وفاة أنوجور أصبح الأمر لأخيه أبو الحسن على بن الأخشيد وكان فى الحادية والعشرين من عمره وجعل وصياً عليه أيضاً كافور الأخشيدى فأطلق له فى السنة أربعمائة ألف دينار كما كان يفعل مع أخيه واستقل بالأمور من دونه[٣] ويبدو أن أبا الحسن على غضب لسلطته المسلوبة كما فعل أخوه من قبل ولكنه لم يفز بطائل . ويقول أبو المحاسن[٤] فى ذلك : « ثم فسد ما بين على بن الأخشيد صاحب مصر وبين مدبر مملكته كافور الأخشيدى ومنع كافور الناس من الاجتماع به حتى اعتل على المذكور بعلة أخيه أنوجور ومات لإحدى عشرة خلت من المحرم سنة خمس وخمسين وثلثمائة وحمل إلى المقدس ودفن عند أبيه الأخشيد وأخيه أنورجور ... وكانت مدة سلطنة على

---

(١) يذكر بعض المؤرخين أن غلبون كان والى الأشمونين وأنه خرج على الأخشيديين عند وجود كافور وأنوجور بالشام وأن الحكومة سيرت له قوة من الجند هزمها ولم ينج منها إلا قائدها شادن الأخشيدى ، كما سيرت ضده قوة أخرى استطاع أن يفلت منها ويصل إلى العاصمة الفسطاط ويدخل دار الإمارة . وأخيراً كر عليه الجيش الأخشيدى فى الفسطاط وهزمه وطرده إلى الشرقية ثم تبعه ودارت بينه وبينه معركة شديدة انتهت بقتل غلبون فى ذى الحجة سنة ٣٣٩ هـ ( الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٩٥ — ٢٩٦ والمقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٥٦ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٩٢ و ج ٤ ص ٢ ) .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٩٠٢ .

(٣) شرحه ص ٣٢٦ .

(٤) شرحه .

ابن الأخشيد المذكور على مصر خمس سنين وشهرين ويومين » ويقال إن أبا الحسن على مات بالسم كما مات أخوه من قبل .

كافور :

وبعد وفاة أبى الحسن على بن الأخشيد بقيت مصر « أياماً بغير أمير وكافور يدبر أمرها على عادته فى أيام أولاد الأخشيد ومعه أبوالفضل جعفر ابن الفرات . ثم ولى كافور إمرة مصر باتفاق أعيان الديار المصرية وجندها »[١] . وقد أعطاه الخليفة العباسى المطيع ( ٣٣٤ — ٣٦٣ هـ ) حكم مصر والشام والحجاز ولقب بالأستاذ . وبذلك حكم منفرداً حوالى سنتين وأربعة أشهر ، بعد أن حكم حكما فعلياً بغير لقب حوالى عشرين سنة . وقد وصف كافور بأنه «كان يسمى أبو المسك كافور الأخشيدى وكان يسمى أيضاً اللابى نسبة إلى إقليم اللاب من بلاد النوبة وكان عبداً أسود بصاصاً خصياً قبيح الشكل بطيناً ثقيل البدن قبيح القدمين مثقوب الشفة العليا » . وقيل إن سنة ميلاده غير معروفة وإن من الراجح أنه ولد بالحبشة أو النوبة بين عامى ٢٩٢ ، ٣٠٨[٢] . وإن وفاته كانت فى جمادى الأولى سنة ٣٥٧ هـ وإن تابوته حمل إلى بيت المقدس ودفن فيها وهناك قول آخر بأنه دفن فى القرافة الصغرى بمصر[٣] .

وبعد وفاة كافور لم يطل عهد الدولة الأخشيدية لأن الجند اختاروا طفلا صغيراً اسمه أبوالفوارس أحمد وهو ابن أبى الحسن على بن الأخشيد وكانت سنه إحدى عشرة سنة وصار الوصى عليه ابن عم أبيه الحسن بن عبيد الله بن طغج والى الشام فى ذلك الوقت ، كما أعطيت المالية لجعفر

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٣٢٧ .

(٢) سيدة الكاشف : مصر فى عهد الأخشيديين ص ١٢٧ .

(٣) شرحه ص ١٣٢ .

ابن الفضل بن الفرات وأمور الحرب لسمول[1] الذى كان رئيساً للبريد من قبل . ولكن هذا لم يجد فتيلا لأن كراهية الجند للوزيرين زادت بعد مدة من الزمن بسبب اغتصابات وبخل الأول وجهل الثانى بشئون الحرب . ولم تلبث أن قامت فى مصر ثورة مسلحة غيرت مجرى الأمور فيها . وقد صار نتيجة لهذه الثورة الحسن بن عبيد الله بن طغج الوصى على أبى الفوارس صاحب الأمر والنهى . ولكن الجو لم يصف له أيضاً لأن المعز لدين الله الفاطمى كان يرقب الأمور فى مصر عن كثب ورأى الفرصة سانحة لغزو مصر خصوصاً وقد كانت الدولة العباسية فى ذلك الوقت مشغولة بصد هجمات البيزنطيين عن حدودها . وقد سير قائداً له هو جوهر الصقلى إلى مصر فاستولى عليها وأزال الدولة الأخشيدية سنة ٣٥٨ ﻫ وبذلك لم يتول الحسن ابن عبيد الله بن طغج شئون الحكم فى مصر أكثر من ثلاثة شهور .

## سلسلة نسب الأخشيديين

- جف
  - طغج
    - عبيد الله
      - الحسن
    - محمد
      - أبو القاسم أنوجور
      - أبو الحسن على
        - أبو الفوارس أحمد
    - الحسن
    - الحسين (مات فى الحرب مع ابن رائق)

(١) جاء فى النجوم الزاهرة لأبى المحاسن ( ج ٤ ص ١٠ حاشية ) أن اسمه شمول بالشين المعجمة وجاء أيضاً فى هذا الكتاب ( ص ٢٦ ) أنه ينسب أحياناً إلى كافور فيقال سمول الكافورى .

# الفصل الثانى

## الحالة السياسية

### ١ — اتساع نفوذ الإخشيديين :

يلاحظ أن الدولة الأخشيدية لم تقتصر على مصر فقط ، بل امتدت إلى الشام وإلى الثغور السورية فى بعض الأوقات ، وجاء فى المصادر التاريخية أن الأخشيديين كانوا حكاماً أيضاً فى الحجاز واليمن .

ولسنا نشك فى انتشار النفوذ الحقيقى للأخشيديين فى مصر والشام ، وتؤيدنا فى ذلك أقوال المؤرخين . فقد جاء فى كتاب الكامل فى التاريخ لإبن الأثير[١] أن الخليفة الراضى قلد محمد بن طغج أعمال مصر مضافاً إلى ما بيده من الشام ، وعزل أحمد بن كيغلغ عن مصر ، وجاء فى كتاب النجوم الزاهرة[٢] أن محمد بن طغج الأخشيد لما علم بأن ابن رائق مات سنة ٣٣٠ ﻫ سار بنفسه إلى الشام فى شوال « ودخل دمشق وأصلح أمورها وأقام بها مدة » كما أجاء أيضاً فى هذا الكتاب[٣] أن الأخشيد بعد أن قابل الخليفة المتقى بقرب الرقة سنة ٣٣٢ ﻫ ودعاها إلى الذهاب إلى الشام أو مصر أو البقاء حيث هو وإمداده بالأموال والرجال ورفض الخليفة طلبه ذهب إلى دمشق « وأمر عليها الحسين بن لؤلؤ فبقى ابن لؤلؤ على إمرة دمشق سنة وأشهراً ثم نقله الأخشيد إلى نيابة حمص وولى على دمشق يأنس المؤنسى » .

هذا فيما يتعلق بمحمد بن طغج الأخشيد نفسه أما فيما يتعلق بابنه

---

(١) جـ ٨ ص ١١٤ .

(٢) جـ ٣ ص ٢٥٤ .

(٣) جـ ٣ ص ٢٥٥ .

أبى القاسم أنوجور فقد جاء فى كتاب النجوم الزاهرة[١] أن أنوجور بعد هزيمة سيف الدولة الحمدانى سنة ٣٣٥هـ أقر بأنس المؤنسى على عادته فى إمرة دمشق بعد أن كان قد انهزم فى بادىء الأمر من سيف الدولة وسلم دمشق له بالأمان . وفيما يتعلق بأبى الحسن على بن الأخشيد الذى ولى الأمر بعد أخيه أنوجور جاء فى كتاب النجوم الزاهرة[٢] « وجمع له الخليفة جميع ما كان لأبيه وأخيه من أعمال الديار المصرية والممالك الشامية والثغور والحرمين الشريفين » . وفيما يتعلق بكافور نفسه جاء فى كتاب الولاة والقضاة للكندى[٣] أنه ملك مصر والحرمين . ولسنا نستطيع أن نستدل من ذلك على أن سلطة كافور لم تكن منتشرة فى بلاد الشام ، فإننا سنرى فيما بعد أن ولى دمشق فى عهد كافور واسمه ظالم بن السلال العقيلى عاون سيف الدولة الحمدانى ضد نقفور فوكاس ، وكانت معاونته له من ضمن الأسباب التى أدت إلى طرد هذا الإمبراطور البيزنطى من حلب[٤] .

أما فيما يتعلق بنفوذ الأخشيديين فى مكة والمدينة واليمن فإننا لا ننكر أنه كان يخطب للحكام الأخشيديين فى الحرمين فى بعض الأوقات ولكننا نرى مع الدكتورة سيدة الكاشف أن نفوذ الأخشيديين فى الحجاز واليمن كان أمراً صورياً ورمزياً[٥] . ولا نستطيع أن نجعل أهمية كبرى لما ورد فى الكتب التاريخية من أقوال تشير إلى هذا النفوذ ، ومثال ذلك إشارة الأخشيد فى كتابه إلى امبراطور الدولة البيزنطية سنة ٣٢٥ هـ إلى أنه حاكم الحجاز واليمن[٦] وكذلك ما جاء فى كتاب المغرب[٧] من أن محمد ابن طغج

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٢٩٢ .
(٢) شرحه جـ ٣ ص ٣٢٦ .
(٣) ص ٢٩٧ .
(٤) سيدة الكاشف : مصر فى عهد الأخشيديين ص ٣٥٦ .
(٥) مصر فى عصر الأخشيديين ص ٩١ — ٩٦ .
(٦) ابن سعيد : المغرب ص ٢٠ .
(٧) شرحه ص ٤٤ .

« ما زالت همته تعلو وسعادته تعينه إلى أن ملك مصر والشام والثغور وخطب له بالحجاز واليمن . . . » وكذلك ما جاء فى كتاب النجوم الزاهرة[١] من أن الخليفة جمع لأبى الحسن على جميع ما كان لأبيه وأخيه من عمال الديار المصرية والممالك الشامية والثغور والحرمين الشريفين وما جاء فى كتاب الولاة والقضاة أيضاً عن كافور من أنه ملك مصر والحرمين .

٢ — علاقة الأخشيديين بالخلافة :

كانت العلاقات بين الأخشيديين والخلافة العباسية علاقات صداقة لا تشوبها شائبة على وجه العموم . فقد عين الخليفة الراضى (٣٢٢ — ٣٢٩ هـ) محمد بن طغج على مصر والشام سنة ٣٢٣ هـ ثم بعد ذلك بأربع سنوات منحه لقب الأخشيد ومعناها كما سبق أن ذكرنا ملك الملوك . ويقول بعض المؤرخين إن الأخشيد فكر فى قطع الخطبة للخليفة العباسى لأنه حنق عليه لإعطائه تفويض لابن رائق بحكم الشام ومصر كما فكر فى الدعاء فى الخطبة للخليفة الفاطمى القائم[٢] بينما يقول البعض الآخر إن الخليفة الراضى أرسل إلى الأخشيد كتاباً يخبره فيه بمسير ابن رائق[٣] . ونحن لا نستبعد أن يكون الراضى قد اضطر إلى إعطاء ابن رائق التفويض لأنه كان صاحب الأمر والنفوذ ولكنه فى الوقت نفسه أرسل إلى ابن طغج يحذره حتى يستعد للقاء عدوه .

وقد ولى الخلافة فى حياة الأخشيد بعد الراضى ثلاثة خلفاء أحدهم هو الخليفة المتقى ( ٣٢٩ — ٣٣٣ هـ ) والآخر هو الخليفة المستكفى ( ٣٣٣ — ٣٣٤ هـ ) والثالث هو الخليفة المطيع ( ٣٣٤ — ٣٦٢ هـ ) . وكانت وفاة الأخشيد فى أوائل عهد هذا الخليفة الأخير . وقد أقر هؤلاء

---

(١) ج ٣ ص ٢٦٣ .

(٢) ابن سعيد : المغرب ٢٦ — ٢٧ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٥٢ .

الخلفاء الثلاثة الأخشيد فى حكم مصر والشام كما كان ، وكانت علاقتهم به طيبة . ويقال إن الخليفة المتقى ساءت أحواله سنة ٣٣٢ ﻫ بسبب إظهار الحمدانيين الملل منه والتنافس بينهم وبين توزون التركى على التسلط عليه ، والتقى به فى الشام على الشاطىء المقابل للرقة محمد بن طغج الأخشيد . وأبدى له من آيات الاحترام والعطف للشىء الكثير ، ثم دعاه إلى المسير إلى مصر أو البقاء حيث هو تحت حمايته ، وقد حمد له الخليفة كل ذلك وخلع عليه ولكنه لم ينفذ رغبته فى السير إلى مصر أو البقاء حيث هو . ولا شك أن تصرفه هذا كان لخوفه من الأتراك والحمدانيين لا لكراهيته للمقام بجانب الأخشيد . وقد وصف أبو المحاسن (١) هذا اللقاء فقال « بلغ محمد بن طغج مسير الخليفة المتقى بالله إلى بلاد الشام ومعه بنو حمدان ، فخرج الأخشيد من مصر وسار نحو الشام لثمان خلون من شهر رجب سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة واستخلف أخاه أبا المظفر الحسن بن طغج على مصر ووصل دمشق ثم سار حتى وافى المتقى بالرقة فلم يتمكن من دخولها لأجل سيف الدولة على بن حمدان ، ثم بان للخليفة المتقى من بنى حمدان الملل والضجر منه فراسل توزون واستوثق منه . ثم اجتمع بالأخشيد هذا وخلع عليه ، وأهدى إليه الأخشيد تحفاً وهدايا وأموالا . وبلغ الأخشيد مراسلة توزون فقال للخليفة . يا أمير المؤمنين أنا عبدك وابن عبدك وقد عرفت الأتراك وغدرهم وفجورهم فالله فى نفسك ! سر معى إلى الشام ومصر فهى لك وتأمن على نفسك ، فلم يقبل المتقى ذلك . فقال له الأخشيد : فأقم هنا وأنا أمدك بالأموال والرجال ، فلم يقبل منه أيضاً . . ثم سلم الأخشيد على الخليفة ورجع إلى نحو بلاده » . ويقال أيضاً إن الخليفة المستكفى كتب إلى الأخشيد يعرض عليه إمارة بغداد بعد موت توزون ويضمن له القيام بالأمر ولكن الأخشيد رفض هذا المنصب (٢) وفى هذا ما يدل على أن

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٥٤ — ٢٥٥ .

(٢) مصر فى عصر الأخشيديين ص ٨٩ .

الخلفاء العباسيين كانوا لا يزالون ينظرون إلى الأخشيد نظرتهم إلى من يرجون خلاصهم من ظلم الأتراك على يديه ، وأن الأخشيد أصبح فى هذا الوقت يميل إلى البعد عن بغداد وعما يحيط بالخلفاء من مشكلات بعد أن كان قبل ذلك يريد أن يعيش بجانب الخلفاء ويدافع عنهم ويزج بنفسه فى مشكلاتهم . وتغير مسلك الأخشيد هذا حيال الخلفاء واضح على السكة المضروبة فى عهده فإن الدنانير المضروبة باسم الراضى من سنة ٣٢٣ إلى سنة ٣٢٨ ﻫ وبعض الدنانير المضروبة باسم المتقى فى سنة ٣٢٩ ﻫ عليها اسم الخليفة وحده أما الدنانير التى ضربت فى سنة ٣٢٩ وسنة ٣٣١ ﻫ وسنة ٣٣٣ ﻫ فعليها اسم الأخشيد مع اسم الخليفة [١] . والأولى تدل على أن الأخشيد كان ينظر إلى الخلفاء نظرته إلى سادته الأعلون أما الأخيرة فتدل على أنه أصبح لا يرى فيهم سموا ولا رفعة بل رمزاً إذا وضع بجانب اسمه زاده قوة .

وبعد موت الأخشيد استطاع كافور الوصى على أبناء الأخشيد أبى القاسم أنوجور وأبى الحسن على أن يحصل من الخليفة المطيع على إقرار لهما فى حكم مصر والشام والحجاز والثغور الشامية ، وكذلك أقره الخليفة بعد موتهما فى حكم تلك الجهات . وهكذا ظل الأخشيديون يتمتعون برضاء الخلفاء العباسيين حتى آخر عهدهم .

وربما يرجع نجاح الأخشيديين فى الاحتفاظ بحسن علاقتهم مع الخلافة العباسية إلى أنهم اتبعوا طريقة أحمد بن طولون وكان لهم وكلاء فى بغداد عاصمة الخلافة العباسية يعملون دائماً على تذليل العقابات التى تواجههم وإلى كسب رضاء الخلفاء وكبار رجال الدولة . وقد قيل إن شخصاً اسمه أبو الحسين على بن احمد العجمى كان يمثل محمد بن طغج الأخشيد فى بغداد وينوب عنه ، وإن الوزير العباسى ابن مقلة احتاج بعد صرفه عن الوزارة

---

(١) مصر فى عصر الأخشيديين ص ٩٠ .

إلى مبلغ من المال فأعطاه ابن العجمى جزءاً وطلب إلى الأخشيد فأرسل إليه ثلاثين ألف دينار أخذ منها ابن مقلة ثمانية وعشرين ألفا وترك لابن العجمى ألفين وأرسل كتاب شكر إلى الأخشيد[١] . وكذلك قيل إن الأخشيد كتب إلى ابن العجمى عند هجوم ابن رائق على أملاكه فى الشام وطلب منه أن يرفع الأمر إلى الخليفة الراضى ليتبين رأيه ويشير بما يجب على الأخشيد أن يفعله[٢] . وكذلك كان الأخشيديون يعملون على كسب رضاء أصحاب النفوذ فى بغداد ولذلك نجد الأخشيد عند ما قابل المتقى بقرب الرقة ودعاه إلى الدخول فى حمايته لم ينس وزيره فى ذلك الوقت ابن مقلة ودعاه إلى السير معه أيضاً ولكن هذا لم يقبل وقيل إنه بعد أن صرف عن الوزارة وساءت حاله كان يقول يا ليتنى قبلت نصح الأخشيد[٣] . وكذلك نجد أنوجور بن الأخشيد أرسل طائفة من الهدايا إلى معز الدولة ابن بويه صاحب الأمر والنهى فى دولة المطيع سنة ٣٣٨ ﻫ وسأله أن يكون أخوه مشاركا له فى إمرة مصر وأن يخلفه بعد وفاته فأجابه معز الدولة إلى ذلك[٤] .

### ٣ — العقبات التى صادفت الأخشيديين :

على أنه يلاحظ أن الأمر لم يكن سهلا ليناً أمام الإخشيديين وأنهم وجدوا بعض المضايقات فى سبيل إقامة حكمهم فى مصر والشام ، ومن ذلك :

#### (أ) قيام بعض الثورات فى الشام :

يلاحظ أن الأخشيديين فى الشام لقوا بعض المقاومة من جانب بعض الثوار ولكنهم قضوا عليها . ومن ذلك ثورة المهلهل العقيلى الذى حارب

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٣٢ .

(٢) ابن سعيد : المغرب ص ٢٦ .

(٣) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٥٢٢ .

(٤) شرحه ص ٢٩٨ .

شعلة بن بدر الأخشيدى أمير دمشق من قبل أنوجور بن الأخشيد وقتله فى طبرية سنة ٣٤٤ هـ (١) . وكذلك ثورة شبيب العقيلى على كافور وقتله بدمشق سنة ٣٤٨ هـ تلك الثورة التى أشار إليها المتنبى فى قصيدته التى قال فيها (٢) :

برغم شبيب فارق السيف كفه وكانا على العلات يصطحبان
كأن رقاب الناس قالت لسيفه رفيقك قيسى وأنت يمان

وكذلك ثورة محمد بن أحمد السلمى فى بادية الشراة بالشام سنة ٣٥٣ هـ فقد اجتمع إليه أنصار كثيرون وقوى أمره ولم تقض عليه الجيوش الأخشيدية بل أسره أحد بنى عقيل وحمله إلى مصر وقيل إنه أركب فيلا وطيف به فى شوارع الفسطاط تشهيراً به واعتقل مدة ثم عفى عنه (٣) .

(ب) غارة ابن رائق على الشام :

وقد كان ابن رائق أحد الأمراء المتنازعين على السلطة فى بغداد فى عهد الراضى الضعيف ، واستطاع أن يصبح صاحب الأمر فى حران والرها وقنسرين والمناطق العليا لنهر الفرات والحصون الواقعة على الحدود ، ثم تاقت نفسه إلى ملك الشام سنة ٣٢٨ هـ (٤) وطالب الأخشيد بدفع جزية عن ممتلكاته فى الشام وأجاب الأخشيد إلى ذلك حقناً للدماء ولكنه لم يكتف بذلك بل سار نحو الشام على رأس جيش كبير (٥) .

وقد علم الأخشيد بسير ابن رائق نحو الشام عند ما كان يعد العدة لقتال الفاطميين الذين علم أنهم أعدوا العدة لفتح مصر فى أيام الخليفة القائم

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٣١٣ .

(٢) ديوان المتنبى ص ٤٠٤ — ٤٠٦ .

(٣) تاريخ ابن سعيد الأنطاكى ص ١٢١ .

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ٣١٣ .

(٥) ابن سعيد : المغرب ص ٣٢ .

إستجابة لدعوة وتحريض أصحاب بن كيغلغ فاهتم بالأمر وعرض عساكره وجهز أسطوله لقتال ابن رائق وخرج فى المحرم سنة ٣٢٨ هـ بعد أن استخلف أخاه الحسن بن طغج على مصر واستمر فى سيره حتى وصل إلى الفرما حيث كان ابن رائق قد عسكر بجيشه . وقد وقعت بينهما مناوشات عند الفرما ثم سعى بينهما فى الصلح الحسن بن طاهر بن يحيى العلوى ورجع الأخشيد إلى مصر فى مستهل جمادى الأولى سنة ٣٢٨ هـ[١] .

ولكن ابن رائق لم يحترم هذا الصلح ونقضه قبل أن تمر عليه بضعة أشهر وسار من دمشق فى شعبان سنة ٣٢٨ هـ قاصداً غزو الديار المصرية واضطر الأخشيد بسبب ذلك أن يعد جيشه ويخرج من مصر فى يوم ١٦ شعبان لقتاله . والتقى الاثنان عند العريش — ويقول البعض عند اللجون الواقعة فى الأردن وبينها وبين طبرية عشرون ميلا وبينها وبين الرملة أربعون ميلا[٢] — ودارت بينهما معركة حامية انكسرت فيها ميمنة الأخشيد وثبت هو فى القلب ثم حمل هو بنفسه على أصحاب محمد بن رائق حملة شديدة فأسر كثيراً منهم وأمعن فى قتلهم وأسرهم . ثم افترق الجيشان ومضى ابن رائق إلى الشام وعاد الأخشيد نحو الرملة ومعه خمسمائة أسير ثم عقدت بينهما معاهدة اتفقا فيها على إطلاق الأسرى من الجانبين وتسليم البلاد السورية الواقعة شمالى الرملة إلى ابن رائق ودفع جزية سنوية مقدارها مائة وأربعون الف دينار إلى ابن رائق أيضاً . ويقال إن السبب فى تساهل الأخشيد مع ابن رائق يرجع إلى روح ابن رائق الطيبة التى أبداها بعد المعركة إذ يقال إنه تفقد ميدان القتال ووجد من بين قتلى الأخشيديين الحسين بن طغج أخا الأخشيد فعز عليه ذلك ، وأخذه وكفنه وحنطه وأنفذ معه ابنه مزاحماً إلى الأخشيد وكتب معه كتاباً يعزيه فيه ويعتذر إليه

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٢٥٢ .

(٢) شرحه ص ٢٥٣ هامش ٢ .

ويحلف له أنه ما أراد قتله وأنه أرسل ابنه مزاحماً إليه ليفتديه بالحسين بن طغج إن أحب الأخشيد ذلك . فاستعاذ الأخشيد بالله من ذلك واستقبل مزاحماً بالرحب والقبول وخلع عليه وعامله بكل جميل ورده إلى أبيه » . وقد تبع هذا عقد المعاهدة[١] ، ثم زواج مزاحم من ابنة الأخشيد المسماة فاطمة[٢] ولا يبعد أن يكون هذا السبب صحيحاً كما لا يبعد أيضاً أن يكون السبب فى تساهل الأخشيد هو طبيعة الحذر والحرص التى يقول لين پول إنها كانت تتملكه وتجعله لا يعرض نفسه للنتائج المشكوك فيها ، وسنرى فيما بعد أن هذه الطبيعة هى التى كانت السبب فى تساهل الأخشيد مع سيف الدولة بن حمدان .

ويلاحظ أن الأخشيد لم يخسر كثيراً بهذا التساهل الذى جرى عليه فى معاملة ابن رائق ، إذ أن هذا الأخير قتل فى قتال كان بينه وبين بنى حمدان بالموصل سنة ٣٣٠ ﻫ أى بعد توقيع المعاهدة بسنتين فقط فكانت الفرصة للأخشيد لاسترداد أملاكه فى الشام . وقد جاء فى النجوم الزاهرة[٣] : أن محمد بن طغج الأخشيد عند ما علم بموت ابن رائق جهز جيوشه وسار إلى الشام لست خلون من شوال سنة ٣٣٠ ﻫ واستخلف أخاه أبا المظفر الحسن بن طغج على مصر ودخل دمشق وأصلح أمورها وأقام بها مدة ثم عاد إلى الديار المصرية فوصلها فى ١٣ جمادى الأولى سنة ٣٣١ ﻫ .

(ح) غارة الحمدانيين على الشام :

ومن المضايقات التى واجهت الأخشيديين أيضاً غارة الحمدانيين على بلاد الشام . فإن الحمدانيين كان لهم النفوذ فى الموصل وحلب وكانوا ينافسون الأتراك فى السيطرة على الخلفاء العباسيين ويحاولون أن يستردوا نفوذ

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٥٣ .

(٢) سيدة الكاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ص ٢٨٣ .

(٣) ج ٣ ص ٢٥٤ .

العرب الضائع . وكان زعيمهم فى عاصمة الخلفاء ناصر الدولة بن حمدان كما كان من رجالهم الأقوياء سيف الدولة على بن عبد الله بن حمدان صاحب النفوذ فى حلب وصاحب الأيادى البيضاء على الإسلام لما بذله من جهود فى مدافعة البيزنطيين .

وقد كان من الطبيعى أن تصطدم مطامع سيف الدولة الحمدانى مع مطامع محمد بن طغج الأخشيد خصوصاً بعد أن ولى الأخشيد أمر مصر وأصبحت له دولة واسعة الأرجاء . ويقال إن العلاقات بين هذين الأميرين ساءت فى وقت من الأوقات ولكنهما « اصطلحا على أن يكون لسيف الدولة حلب وأنطاكية وحمص ويكون باقى بلاد الشام للأخشيد ، وتزوج سيف الدولة بنت أخى الأخشيد »[1] .

وبعد ذلك ساءت العلاقة بين الأميرين مرة أخرى وسار سيف الدولة سنة ٣٣٢ هـ نحو بلاد الشام وهزم جيشاً إخشيدياً على رأسه كافور ويانس عند الرستن على نهر العاصى وأسر نحو أربعة آلاف غير القتلى والغرقى واتجه جنوبا قاصداً دمشق . واضطر الأخشيد أن يخرج بنفسه من مصر على رأس جيش كبير فى خامس شعبان سنة ٣٣٣ هـ واستخلف أخاه أبا المظفر الحسن بن طغج على مصر ، وسار بعساكره حتى لقى سيف الدولة عند قنسرين[2] ، ويقال إنه قسم جيشه فجعل فى المقدمة المشاة الخفيفة المسلحين بالحراب القصيرة ، وجعل فى المؤخرة عشرة آلاف فارس من جنوده المختارة . وقد دارت الموقعة وهزم المشاة ولكن الجنود الذين كانوا فى المؤخرة اقتنصوا فرصة إنصراف الحمدانيين الى جمع الغنائم وهاجموهم وهزموهم هزيمة ساحقة . وبعد هذا استولى الأخشيد على حلب ثم على دمشق . ولكنه فى دمشق بدأ مفاوضات الصلح

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٢٥٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٥٥ .

مع سيف الدولة وعقد معه سنة ٣٣٣ هـ معاهدة سلمه بمقتضاها الجهات الشمالية من سورية كما تعهد له بدفع جزية سنوية فى مقابل احتفاظه بدمشق .

ويقال إن السبب فى تساهل الأخشيد هو أنه كان قد أصبح كبير السن ، وأنه رأى، أن الحمدانيين يستطيعون أن يدافعوا عن الشام الشمالية ضد غارات البيزنطيين ، وقد أحسن بعمله هذا لأنه مات فى السنة التالية فى السادسة والستين من عمره . ولا يمكننا أن ننسى طبيعة الحذر والحرص التى كانت تتملك الأخشيد والتى أدت إلى تساهله من قبل مع ابن رائق . فإن هذه الطبيعة فيما يبدو كان لها أثر فى تساهله مع سيف الدولة . إذ أنه خاف الحمدانيين ورأى أنه إذا تشدد فى معاملة سيف الدولة بل ولو أنه انتصر عليه وأخذه أسيراً فان الحمدانيين لن يدعوه وشأنه وربما قضوا عليه . ويتضح هذا الأمر بجلاء إذا عرفنا [1] أن قواد الأخشيد كانوا يرون مواصلة القتال للقضاء على سيف الدولة وطلبوا من شيخ من شيوخ دمشق كان مقرباً للأخشيد أن يلومه على عقد الصلح مع سيف الدولة ومصاهرته . ولما حدثه الشيخ فى ذلك قال له الأخشيد إن غلمانى دعونى إلى الاستمرار فى قتاله « ففكرت فى قولهم ولم أخل من أحد وجهين : إما أن يهزمنا ويرزق علينا النصر وإما أن نرزق عليه النصر فنأخذه فأيش (كذا) أعمل به ؟ هلا هو أكثر من أن أنزله فى مضرب يشبهه وأنفق عليه مايصلح له ثم أجهزه وأرده لأخيه وأهله لأنهم لايتركونه ؟ وأقل ماكان يكفينا له مائتا ألف دينار . ثم لا أطيق غلمانى من إذلالهم والتسحب على بما عملوا ويطلبون منى الأعمال والولايات . فرأيت أن مسالمته أفضل وأصلح . . . . » . فان هذا الكلام يبين الأخشيد رجلا حذراً ناظراً للعواقب مقلباً الأمور على كل وجه عاملا حساب الحمدانيين ومتشككا فى أتباعه .

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٤٣ .

وفى عهد وصاية كافور على أبى القاسم أنوجور أغار سيف الدولة الحمدانى على الشام أيضاً واستولى على دمشق . وكان ذلك سنة ٣٣٥ هـ . وخرج كافور من مصر ومعه أنوجور والحسن أخو الأخشيد على رأس جيش كبير التقى مع سيف الدولة عند الرملة وانتصر عليه انتصاراً كبيراً وسار وراءه حتى حلب ثم الرقة — ويقال أيضاً التقى معه عنداللجون وهزمه فاضطره إلى السير إلى دمشق ثم إلى حمص [1] ، ثم انتهى الأمر بعقد صلح يتضمن الشروط نفسها التى كانت فى صلح الأخشيد من قبل أى ترك الأراضى السورية الشمالية لسيف الدولة . على أن الفارق الوحيد هو أن سيف الدولة لم يصبح له حق فى جزية ما .

وفى أواخر أيام كافور لم نسمع بقيام الحمدانيين بغارات على بلاد الشام . بل سمعنا أن سيف الدولة الحمدانى استنجد بالأخشيديين فى الشام على أثر مهاجمة نقفور فوكاس البيرنطى لحلب واستيلائه عليها ، وأن قوة من دمشق على رأسها ظالم بن السلال العقيلى الذى كان يليها من قبل الدولة الأخشيدية سارت لمساعدة سيف الدولة وكان سيرها من ضمن الأسباب التى حملت نقفور على الرحيل عن حلب [2] وربما كان هذا الأمر سبباً فى أن بعض المؤرخين قالوا إن الجيش الأخشيدى استطاع فى أواخر أيام كافور أن ينشر نفوذ الأخشيديين فى حلب وفى ولايات الثغور مثل طرسوس والمصيصة وغيرها .

### (ى) غارات ملوك النوبة على مصر :

لقد رأينا عند كلامنا على فترة حكم الولاة أن عبد الله بن سعد أبن أبى سرح هزم ملك النوبة وفرض عليه معاهدة البقط التى كانت النوبة بمقتضاها تقدم

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ س ٢٩١ — ٢٩٢ .

(٢) سيدة الكاشف : مصر فى عهد الأخشيديين س ٣٥٦ .

جزية من العبيد كل سنة فى مقابل بعض محصولات مصر . وقد ظلت بلاد النوبة تقدم هذه الجزية فيما بعد حتى أن المسعودى حين كتب كتابه بعد زيارته لمصر سنة ٣٣٢ هـ كتب أن النوبيين كانوا لا يزالون يقدمون السبى الذى اتفق عليه فى البقط وكان يتسلمه نائب أمير مصر فى أسوان[١] .

ولكن يبدو أن بلاد النوبة بعد ذلك أحست بضعف قبضة مصر عليها ولم تمتنع عن تقديم الجزية فحسب ، بل أخذ ملوكها يهاجمون مصر من ناحية الجنوب من وقت لآخر ويعيثون فيها فساداً . ونحن نعلم أنه فى سنة ٣٣٩ هـ أغار ملك النوبة على إقليم الواحات بمصر وقتل عدداً من سكانها وسبى وأحرق وخرب[٢] . وكذلك فى ذى الحجة سنة ٣٤٤ هـ أغار ملك النوبة على أسوان وقتل جمعاً من سكانها ونهب قراها ، وخرج إليه جيش من قبل أنوجور وعلى رأسه محمد بن عبد الله الخازن . واستطاع هذا الجيش أن يصد النوبيين وأرسل بعض أسراهم إلى مصر فضربت أعناقهم. كما طارد ملك النوبة وفلول جيشه واستطاع أن يفتح مدينة إبريم وعاد إلى مصر فى منتصف جمادى الأول سنة ٣٤٥ هـ ومعه مائة وخمسون أسيراً وعدد من رءوس القتلى[٣] .

### (هـ) تهديد الفاطميين لمصر :

لقد كان من الطبيعى أن يلقى الأخشيديون كثيراً من المضايقات من جانب الدولة الفاطمية الناشئة . ذلك لأن مصر كانت ولاية من ولايات الدولة العباسية عدوة للفاطميين ، كما أنها كانت بلداً غنياً ذا موقع ممتاز يسيل له لعاب الفاطميين ويتمنون احتلاله حتى يصيروا فى موضع متوسط بين

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ٣ ص ٣٩ — ٤٠ .

(٢) تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكى ص ١١٢ .

(٣) المصدر نفسه ص ١١٤ والمقريزى : الخطط جـ ١ ص ١٩٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ والنجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٣٢٦ .

العالم الإسلامى يساعدهم على نشر دعوتهم كما يزدادون قوة إلى قوتهم بسبب ثروته العظيمة .

والتاريخ يشهد أن محمد بن طغج الأخشيد منذ دخل مصر بدا له الخطر الفاطمى واضحاً جلياً . إذ فى سنة ٣٢٤ هـ فى عهد الخليفة الفاطمى القائم ( ٣٢٢ — ٣٢٤ ) سار جيش فاطمى لمساعدة أصحاب ابن كيغلغ ومحمد بن على الماذرائى الذين كانوا بعد أن حمل بهم الهزيمة ذهبوا إلى الاسكندرية ثم إلى الرمادة فى طريقهم إلى برقة . وقد سار هذا الجيش معهم حتى بلغوا الاسكندرية فى شهر ربيع الآخر من تلك السنة ، ثم بعث إليهم الأخشيد جيشاً على رأسه أخوه الحسن بن طغج وقائده صالح بن نافع والتقى الجيشان فى قرية من قرى البحيرة وحلت الهزيمة بالمغاربة وفرت فلولهم إلى برقة[١] .

وإذا كان محمد بن طغج قد انتصر على هذا الجيش الفاطمى فإنه رأى أنه ليس فى استطاعته الصمود أمام الفاطميين إلى ما شاء الله ولذلك عول على اتباع طريق الملاينة والسياسة معهم . وقد ساعده على ذلك فيما يبدو أن القائم بأمر الله الخليفة الفاطمى أحب أن يلجأ هو الآخر إلى طريق اللين فى معاملته . وتبدو سياسة الملاينة من الجانبين فيما حدث بعد ذلك . فإن القائم أرسل كتاباً لطيفاً إلى محمد بن طغج يدعوه فيه إلى طاعته ، ومع أن الأخشيد لم يجبه إلى طلبه ولم يرسل له رداً إلا أنه بعث مع رسوله يعتذر عن الكتابة بأنه أمى لا يكتب ولا يثق فى كاتب ، ويعد بإرسال الرد فيما بعد عند ما يعثر على الكاتب الذى يثق فيه . ويقال إن محمد بن طغج حين رأى أن حكومة بغداد لم تنصره على ابن رائق فكر فى الدعوة للخليفة الفاطمى فى خطبة الجمعة وفى قطع صلته بالخليفة العباسى . وكذلك عرض محمد بن طغج على القائم أن يزوج ابنته من ولى عهده . ومع أنه لم يثبت أن محمد بن طغج خطب للخليفة الفاطمى ومع أن ابنته لم تتزوج من ولى عهد الخلافة الفاطمية

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٨٧ — ٢٨٨ .

فإن محمد بن طغج نظم علاقته بالدولة العباسية ولم يعلن العداء للفاطميين[١] .

وقد سار كافور على سياسة محمد بن طغج الأخشيد ولاين الفاطميين ولاطفهم ولذلك نجت مصر من خطرهم طوال عهده . وليس أدل على ذلك من أنه فى مدة وصايته على أنوجور قدم إلى مصر سنة ٣٣٥ ﻫ محمد بن يحي العلوى المعروف بابن السراج الذى كان قد ثار على الأخشيد عند ما سار إلى بلاد الشام على أثر وفاة ابن رائق سنة ٣٣٠ ﻫ وذهب إلى قرية شرونة بالقرب من البهنسا ونهب سمسطا التى كانت تقع على الشاطىء الغربى للنيل وذهب بعد ذلك إلى برقة خوفاً من العقاب ودخل فى طاعة الخليفة الفاطمى وقد سمح لهذا الثائر بالذهاب إلى الشام للالتحاق بالجيش الأخشيدى هناك ولم يعاقبه أى عقاب . أضف إلى ذلك أنه فى سنة ٣٥٦ ﻫ أمر كافور من طاف على المساجد كلها وأزال منها ما كتبه الناس عليها فى مدح الصحابة وتفضيلهم على العلويين[٢] . وقد قال أبو المحاسن[٣] عن كافور إنه كان « خبيراً بالسياسة فطناً ذكياً جيد العقل داهية . كان يهادى المعز صاحب المغرب ويظهر ميله إليه وكذا يذعن بالطاعة لبنى العباس ويدارى ويخدع هؤلاء وهؤلاء » . ويتضح لنا أن لين وسياسة كافور كانا سبباً فى تأخير الغزو الفاطمى لمصر إذا عرفنا أن دعاة المعز فى مصر كانوا يقولون « إذا زال الحجر الأسود ملك مولانا المعز لدين الله الأرض كلها . وبيننا وبينكم الحجر الأسود — يعنون كافور الأخشيدى »[٤] .

على أن كافوراً كان إذا وجد أن الفاطميين يسلكون طريق الشدة

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٢٦ — ٢٧ .

(٢) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣٤٠ .

(٣) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٦ .

(٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا ١٤٦ — ١٤٧ .

ويهاجمون مصر يصد هجماتهم ويقابل قوتهم بمثلها وقد ورد أن المعز لدين الله الفاطمى أطلق جموعاً من عساكره هجمت على الواحات المصرية فأعد كافور جيشاً أجلاهم عنها [(١)].

ويجب أن نلاحظ أن سياسة الأخشيديين القائمة على ملاينة الفاطميين وملاطفتهم لم تنقذ مصر من الخطر الفاطمى نهائياً وإن أخرت بعض الوقت الاحتلال الفاطمى لمصر. كما أن هذه السياسة مهدت السبيل أمام الفاطميين وساعدت على انتشار دعوتهم فى مصر قبل دخولهم إليها. ويدل على ذلك ما يذكر من أن رسل المعز الفاطمى قدموا إلى كافور يدعونه إلى الدخول فى طاعته فلاطفهم ولم يعط أى رد حاسم، بينما استطاع دعاة الفاطميين أن يأخذوا البيعة للمعز من كثير من وجوه القوم ورؤساء الجند الأخشيديين من الطوائف المختلفة [(٢)]. ويدل على ذلك أيضاً ما يقال من أن أبا الطاهر الذهلى الذى تولى قضاء مصر سنة ٣٤٨ هـ ناظر رسولا قدم إلى مصر من قبل الفاطميين [(٣)]. أضف إلى ذلك ما يقال من أن أبا جعفر أحمد ابن نصر شيد داراً كبيراً، وكانت تؤخذ فيها البيعة لصاحب المغرب [(٤)].

وكذلك كانت سياسة ملاينة الفاطميين سبباً فى وجود روح من الحقد والبغضاء للشيعة بين المصريين السنيين ولذلك كانوا فى كثير من الأحيان وبخاصة فى عهد كافور يقومون ضد الشيعة ويعتدون عليهم. ويذكر المؤرخون أن فتنة شديدة قامت فى الفسطاط فى يوم عاشوراء سنة ٣٥٠ هـ اشترك فيها الجند السودان والترك لأنهم كانوا سنيين وحاربوا الشيعة وكانوا

---

(١) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٢٧.

(٢) شرحه.

(٣) ابن الزيات: الكواكب السيارة ص ٦٣.

(٤) ابن زولاق: أخبار سيبويه المصرى ص ٤٠.

يضربون من لم يقل إن معاوية خاله . وكان السنية ينادون معاوية خال علي[1] ويذكرون أيضاً أنه في سنة ٣٥٣ هـ أخذ رجل من كبار الشيعة وضرب وعذب حتى مات في السجن ولما حمل ليلا ودفن نبش قبره واضطرت الحكومة أن ترسل طائفة من الجند لمنع هذا العمل واشتبك العامة في قتال مع هؤلاء الجند[2] .

---

(١) المقريزي : الخطط ج ٢ ص ٣٤٠ .

(٢) شرحه .

# الفصل الثالث

## حكومة الأخشيديين

كانت حكومة الأخشيديين من الناحية الشرعية لا تعدو أن تكون حكومة إقليمية تابعة للخلافة العباسية . وليس أدل على ذلك من وجود الوزير العباسى الفضل بن جعفر بن الفرات ثم من بعده ابنه أبو الفضل جعفر بصفة مندوبين من قبل الخليفة العباسى للإشراف على أعمال الأخشيديين فى مصر والشام وجمع الأموال للخلافة من خراج مصر والشام[1] ، وليس أدل على ذلك أيضاً من نقش اسم الخليفة العباسى على السكة وحده فى أول الأمر ومع اسم الأمراء الأخشيديين فيما بعد ، وكتابة اسم الخليفة العباسى أيضاً ووزيره على الخلع والثياب التى كانت تصنع فى دور الطراز بمصر[2] أضف إلى ذلك تعيين قضاة مصر فى أغلب الأحيان من قبل قاضى قضاة بغداد الذى كان يعينه الخليفة العباسى . أما من ناحية الواقع فإن هذه الحكومة كانت مستقلة استقلالا يكاد يكون تاماً وكانت لها جميع مظاهر الحكومات المستقلة تقريباً .

### سلطة الأمراء الأخشيديين ومعيشتهم :

كان الأمراء الأخشيديون على رأس الحكومة الأخشيدية . وكانوا حكاماً مطلقى السلطة يتصرفون فى جميع شئون مصر كما يشاءون لا ترد لهم كلمة ولا يعترض أحد على تصرفاتهم مهما كانت ، وكانوا يتشبهون بالملوك فى كل شىء تقريباً فى ملابسهم وفى مظهرهم وفى بلاطهم وفى مواكبهم .

---

(١) سيدة الكاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ص ١٦٠ — ١٦١ .

(٢) شرحه ص ١٣٨ .

وقد قيل[١] إن محمد ابن طغج الأخشيد أمر بأن يكون لسرج فرسه حلية دقيقة وزخارف خاصة لايشاركه فيها أحد وألا يلبس أحد سواه جبة من الديباج المحلى بخيوط الفضة وألا يكون فى عسكره الخاص أى شيخ وأن يصبغ الشيوخ من جنده وحاشيته لحاهم . كما قيل[٢] إنه كان يتخذ طبيباً خاصاً اسمه أبو الفرج الباسى لعلاجه والإشراف على طعامه . وقد كان هذا الطبيب يقيم فى قصره دائماً كما كان يصحبه فى أسفاره . وكان الأخشيد يتخذ الحجاب للوقوف على بابه ، وممن حجبوا له عمران بن فارس الذى كان حاجباً لتكين والى مصر قبل العهد الأخشيدى[٣] وفاتك الرومى الذى حجب له بعد عمران بن فارس[٤] . أضف إلى ذلك أنه كان محاطاً بحاشية ضخمة من المماليك والغلمان والجوارى ، ومن رؤساء المماليك والغلمان والأتباع الكثيرين الذين كانوا عند الأخشيد بدر الكبير وشادن الصقلبى ومنجح الصقلبى وكافور الأسود وفاتك الرومى وبشرى[٥] . ومن شهيرات الجوارى سماية القهرمانة التى بلغ من سمو مكانتها عند الأخشيد أنه عهد اليها بإزالة النزاع الذى كان قائماً بين قاضى مصر عبد الله بن أحمد بن شعيب المعروف بابن وليد وسليمان بن رستم مقدم الشهود[٦] . وكذلك كان الأخشيد يقرب الشعراء ، وقد قيل أن أبا القاسم سعيد بن فاخر المعروف بقاضى البقر الذى كان من شعراء خمارويه وقارب التسعين كان يبيت عند الأخشيد يحادثه ويسامره وكان مليح الحديث محباً للتندر ببخل الأخشيد وإمساكه والتهكم بالموازنة بينه وبين البرامكة[٧] .

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٣٠ .

(٢) شرحه ص ٣٦ — ٤٣ .

(٣) شرحه ص ٨ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٣٢٩ .

(٥) ابن سعيد : المغرب ص ١٦ .

(٦) الكندى : الولاة والقضاء ص ٥٦٨ .

(٧) ابن سعيد : المغرب ص ٣٣ — ٣٤ .

ولم ينس الأخشيد أن يبدو عظيما فى مواكبه وقد قيل إنه كان يخرج لصلاة الجمعة فى موكب كبير يصطف الشعب على الجانبين لمشاهدته [١] . كما قيل إنه ذات مرة صلى العشاء فى آخر شهر رمضان وهو فى وجوه عبيده فى دراعة بياض وبين يديه خمسمائة غلام بالدبابيس والمستوفيات وبين يديه الشمع والمشاعل وقيل كان بين يديه مائة فراش بمائة شمعة . وفى صبيحة اليوم التالى وهو يوم العيد جلس فى المنظرة التى على باب دار الأمارة ومرت العساكر فلما انفض العساكر ركب غلمانه فى أحسن زى بالتجافيف والجواشن حتى العشاء[٢] ولم ينس الأخشيد أيضاً أن يقلد أحمد بن طولون فى إقامة حلبة سباق الخيل منذ سنة ٣٢٤ هـ [٣] وقد قيل إنه جمع من الخيل الجميلة المدربة والجوارح المهيأة للصيد من مختلف الأنواع مما لم يكن بين يدى خليفة قط [٤] .

ولم يكن كافور الأخشيدى وهو الشخصية الكبيرة الأخرى من بين الأمراء الأخشيديين يعيش عيشة أقل عظمة من معيشة الأخشيد . وقد قيل إنه كان يتشبه بالخلفاء ، وإن الأدباء والمؤرخين كانوا يقرأون له كتب السير وأخبار الدولة الأموية والعباسية [٥] كما قيل إنه كان يتخذ الحجاب[٦] ، وكان بلاطه يغص بالغلمان والجوارى وقد قيل إنه كان فى بلاطه ألف وسبعون من الغلمان الترك وألفان من الغلمان الروم وكان له غلمان آخرون من المولدين والسودانيين ، وكان عدد غلمان بلاطه كلهم أربعة آلاف غلام[٧] ، وكذلك كان فى قصره جوار مغنيات [٨] .

(١) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى س ٢ .
(٢) سيدة الكاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ص ١١٩ .
(٣) ابن سعيد : المغرب ص ١٨ .
(٤) شرحه ص ٤٣ .
(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٦ .
(٦) شرحه ص ٦ .
(٧) سيدة الكاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ص ١٣٧ .
(٨) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٦ .

وربما كانت كثرة خدم كافور هى السبب فى أنه كان له موظف خاص اسمه أبو بكر المحلى يتولى نفقات مصالحه وخواص خدمه [١] . ونحن نسمع فى أيام كافور عن الأسمطة التى تشبه أسمطة أحمد بن طولون وقد قيل إن سماط كافور كان فى اليوم الواحد مائتى خروف كبار ومائة خروف رميس ومائتين وخمسين أوزة وخمسمائة دجاجة وألف طير من الحمام ومائة صحن حلوى كل صحن عشرة أرطال ومائتين وخمسين قربة من شراب يصنع من السكر المحلول بالماء والليمون [٢] ، وكذلك قيل إن الثلج كان يحمل من الشام إلى قصر كافور الأخشيدى بمصر ليستعمل فى تبريد الماء والمشروبات [٣] ، وفضلا عن هذا فقد كان بلاط كافور محطاً لرحال كبار الشعراء ومن أهمهم المتنبى وعلاقته بكافور معروفة ، وسنشير إليها عند كلامنا على الحالة الأدبية .

*دار الإمارة فى العهد الأخشيدى :*

كانت دار الأمارة فى العهد الأخشيدى هى العسكر التى أسسها الوالى العباسى أبو عون سنة ١٣٣ هـ . وكانت مقراً للولاة حتى أسس أحمد ابن طولون عاصمته القطائع ، ثم صارت من جديد مقراً للولاة ، بعد أن خرب محمد بن سليمان الكاتب القطائع . « ويقال إنه كان بالعسكر دار عظيمة بناها بدر الخفيفى غلام أحمد ابن طولون . وقد نزل فيها محمد بن سليمان ومن خلفه من الولاة ، ثم سكنها الأمراء الأخشيديون ووسعها محمد ابن طغج ونزل فيها أيضاً الخلفاء الفاطميون [٤] .

---

(١) سيدة الكاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ص ١٣٥ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٩ .

(٣) الغزولى : مطالع البدور ج ٢ ص ٧١ .

(٤) سيدة الكاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ص ٢٠١ .

*وزراء الأخشيديين :*

وقد كان للأمراء الأخشيديين وزراء يعاونونهم فى إدارة شئون دولتهم . ويبدو أنهم كانوا وزراء تنفيذ بمعنى أنهم كانوا ذوى سلطة محدودة وكانت مهمتهم لا تتعدى تنفيذ رغبات الأمراء الاخشيديين . ومن أشهر هؤلاء الوزراء أبو بكر محمد بن على الماذرائى الذى اعتقله مندوب الخليفة فى مصر الفضل بن جعفر بن الفرات فى أوائل العهد الأخشيدى وبعد موته استوزره محمد بن طغج الأخشيدى فى رجب ٣٢٨ ﻫ ، وعهد إليه بتدبير شئون الدولة . وقد ظل فى الوزارة طول عهد الأخشيد وأنوجور تقريباً وإن كان قد أبعد عنها أحياناً كما حدث فى سنة ٣٣١ ﻫ عند ما قبض عليه الأخشيد وعلى ابنه الحسين وكذلك فى سنة ٣٣٢ عندما قبض عليه الأخشيد مرة ثانية وصادر جزءاً من أملاكه وأخذه معه إلى الشام ، وكذلك فى أواخر حياته عندما أبعد عن الشئون العامة حتى توفى سنة ٣٤٥ ﻫ[١] ومن أشهر هؤلاء الوزراء أيضاً أبو الفضل جعفر بن الفضل بن جعفر ابن محمد بن موسى بن الحسن بن الفرات المعروف بابن حنزابة وحنزابة جدته ، وقد كان وزيراً مدة إمارة كافور وبعد أن استقل كافور بالسلطة ومدة إمارة أبى الفوارس أحمد بن على بن الأخشيد[٢] .

ويبدو أن منصب الوزارة فى العهد الأخشيدى كان يدر على أصحابه كثيراً من الخير . وقد يدل على ذلك ما ذكر عن ثروة أبى بكر محمد بن على الماذرائى . فقد قيل[٣] إنه كان واسع الثراء فكان ينفق على ستين ألفاً من الناس فى مكة كل عام وكان يجرى عليهم الرزق من الدقيق والقمح والدراهم وكان له بمصر من يجرى عليهم مائة ألف رطل من الدقيق فى كل شهر .

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٢٥ و ٤٥ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٠٥ — ٣٠٨ .

(٣) ابن سعيد : المغرب ص ١٦٣ .

واجتمع له مائة ألف عبد أعتقهم فى طول عمره . وبلغ دخل أملاكه أربعمائة ألف دينار فى كل سنة سوى الخراج . وحج إحدى وعشرين حجة وكان ينفق فى كل حجة مائة ألف دينار ويخرج معه تسعين ألف ناقة لنفسه وأربع مائة عربى لجهازه ومئونته ومعه محامل فيها أحواض البقل ومحامل فيها أحواض الريحان ومحامل فيها الكلاب للصيد . وكان يحمل إلى الحجاز فى البر والبحر جميع ما يحتاج إليه يفرقه هناك : الدنانير والدراهم والثياب والطيب والحلوى والحبوب وسائر الأطعمة والقمح والدقيق والشعير والزيت . ولا ينصرف عن الحجاز إلا وجميع من فيه أغنياء » . وقد كنا نأخذ هذا الكلام على محمل المبالغة لولا أنه وردت عن هذا الوزير أخبار تدل على تمسكه بأهداب العظمة والكبرياء منها ما قيل من أن الأخشيد عندما عاد من حملته الثانية ضد ابن رائق أراد أن يترجل له هذا الوزير عند لقائه ولكنه لم يرض بذلك وقال لابنه الحسين عندما أشار عليه بالترجل أو بإخراج رجله من الركاب فقط عند اقتراب الأخشيد منه « ذهاب المال أهون من هذا[1] » وقد نقم عليه الأخشيد فعلا بعد ذلك وقبض عليه وعلى ابنه الحسين سنة ٣٣١ هـ كما سبق أن ذكرنا . وقد قيل إن الأخشيد عندما اعتقله أعد له داراً أسرف فى تزيينها وتأثيثها وزودها بجميع ما يحتاج إليه من ملابس وطيب وطرائف ومآكل ومشارب وقال عند ما سئل عن السبب فى ذلك « هذا ملك ! وأردت أن لا يحتقر بشىء لنا ولا يطلب حاجة إلا ويجدها لأنه إن عجز شىء أحضره من داره ونسقط من عينه[2] » .

### كتاب الأخشيديين :

وقد استخدم الأخشيديون أيضاً الكتاب وكانوا أشبه ما يكونون بالسكرتير الخاص أو رئيس الديوان للملوك فى عهدنا الحالى . وكان الأمير

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٣٨ — ٣٩ .

(٢) سيدة الكاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ص ١٥٧ .

يعتمد عليهم ويستشيرهم فى معظم أموره ويستخدمهم أحياناً فى عقد الصلح وأحياناً فى بعض المهام العسكرية وأحياناً يأخذ برأيهم فى الشئون المالية[١] ولذلك خلط الناس فى هذا العصر بين الوزير والكاتب فى بعض الأحيان[٢].

ومن أشهر الكتاب الذين استخدمهم محمد بن طغج الأخشيد على بن محمد ابن كلا وقد كان يستخدمه فى عقد الصلح أحياناً وفى بعض المهام العسكرية أحياناً أخرى[٣]. ومنهم أيضاً أبو جعفر بن المتفق وابن توماتس[٤]. ومن أشهر الكتاب فى عهد كافور على بن صالح الروذبارى ويقال إنه حسن لكافور أن يوفر من ميزانية الرواتب بخفضها وأن الله ابتلاه بمرض قضى عليه سنة ٣٤٧ هـ[٥].

وقد كان من الكتاب أيضاً فى العصر الأخشيدى جماعة يتألف منهم ديوان الإنشاء ويقومون بتحرير الرسائل وكان زعيم أولئك الكتاب المحررين فى العصر الأخشيدى ابراهيم بن عبد الله بن محمد النجيرمى[٦].

عمال الخراج فى العهد الأخشيدى :

وكان عمال الخراج فى العهد الأخشيدى من موظفى الحكومة المهمين . ولم يكونوا يعينون من قبل الخلافة كما كان الحال فى فترة حكم الولاة بل كان يعينهم الأمراء الأخشيديون . وكانوا يشرفون على جميع الضرائب . ومن عمال الخراج فى عهد محمد بن طغج الأخشيد أبو الحسين الفرغانى الذى

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ١٠ ، ٢٥ ، ٢٩ والقريزى : الخطط جـ ١ ص ٩٩ .

(٢) سيدة الكاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ص ١٦٦ .

(٣) ابن سعيد : المغرب ص ١٠ ، ٢٥ ، ٢٩ .

(٤) سيدة الكاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ص ١٦٧ — ١٦٨ .

(٥) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٩٩ .

(٦) سيدة الكاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ص ١٦٧ .

كان على الخراج عندما دخل الأخشيد مصر[١] . وكذلك على بن محمد الكرخى[٢] ومحمد بن على بن مقاتل الذى يذكره البعض من بين الوزراء[٣] أما فى عهد كافور فيبدو أن الإشراف على الخراج كان يقوم به أبو بكر محمد بن على الماذرائى الوزير مدة من الزمن[٤] وكذلك ابن كلس فى وقت من الأوقات . وقد جاء فى بعض المراجع[٥] أن كافوراً أمر رؤساء جميع الدواوين بألا يصرف درهم أو دينار بغير توقيع ابن كلس .

وقد كان يعاون عمال الخراج فى جمع الضرائب والإشراف على الشئون المالية موظفون كبار من أهل الذمة منهم الكاتب القبطى ابن عيسى بقطر ابن شغا والقبطى الآخر جرير بن الحصان والنصرانى ابراهيم بن مروان[٦] .

وكانت طريقة جمع الضرائب فى العهد الأخشيدى هى طريقة قبالات الأراضى التى كانت مستعملة فى فترة حكم الولاة وكانوا ينادون كل أربع سنوات على البلاد صفقات صفقات فى مسجد عمرو بن العاص أمام صاحب الخراج أو من يقوم مقامه ومعه المختصون من الكتاب والموظفين[٧] .

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ١٧ .

(٢) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ٢٧ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٢٩١ .

(٤) شرحه .

(٥) سيدة الكاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ص ١٧٧ .

(٦) سيدة الكاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ص ١٧٧ — ١٧٨ .

(٧) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٨٢ .

الخازن :

وقد كان من ضمن كبار رجال الدولة الماليين فى العهد الأخشيدى خازن بيت المال وقد شغل هذا المنصب فى عهد محمد بن طغج الأخشيد محمد ابن عبد الله الخازن[١] .

رئيس دار الضرب :

وكذلك كان من ضمن كبار رجال الدولة الماليين فى هذا العهد رئيس دار الضرب وقد شغل هذا المنصب فى عهد الأخشيد صدقة بن الحسن[٢] .

أصحاب الشرطة :

ولسنا ننسى أصحاب الشرطة فى العهد الأخشيدى . فقد كانوا هم الذين يشرفون على الأمن والنظام فى البلاد وهم الذين ينفذون القوانين والأحكام[٣] . وقد ذكر الكندى فى كتابه الولاة والقضاة[٤] عدداً كبيراً منهم نذكر من بينهم سعيد بن عثمان الذى عينه فى منصبه الأخشيد عند قدومه إلى مصر سنة ٣٢٣ هـ والذى توفى فى صفر سنة ٣٢٨ هـ . وكذلك بدر غلام سعيد بن عثمان وشادن مولى الفضل بن جعفر بن الفرات وعلى بن سبك الذى ولى الشرطة عدة مرات والحسين بن على بن معقل وينال الحاكى وأحمد ابن موسى بن زغلمان ومحمد بن داود ومظفر ابن العباس الجيشانى ولؤلؤ الغورى وهم جميعاً تولوا الشرطة فى أيام محمد بن طغج الأخشيد وكذلك تكين الخاقانى وجندى اسمه نصر وقد وليا الشرطة فى عهد أنوجور .

---

(١) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ٣٠ — ٣١ .

(٢) ابن سعيد : المغرب ص .

(٣) مصر فى عصر الأخشيديين ص ١٧٥ .

(٤) ص ٢٨٥ — ٢٨٦ ، ٢٩١ — ٢٩٣ ، ٢٩٦ .

وكذلك بدر غلام يانس وقد وليها سنة ٣٥١ هـ. ويلاحظ بصفة عامة أن عدد أصحاب الشرطة فى العهد الأخشيدى كان كبيراً. ويرى البعض[١] أن كثرة عدد أصحاب الشرطة فى العهد الأخشيدى كان وفقاً لسياسة محكمة تقضى بتغيير كبار الموظفين من حين إلى آخر إبعاداً لهم عن توطيد نفوذهم فى أى مرفق من مرافق الدولة وتشجيعاً للتنافس بين الطامعين فى الوظائف».

**القضاة :**

أما القضاة فى العهد الأخشيدى فكانوا من كبار موظفى الدولة أيضاً وكانوا مثل القضاة فى العهد السابق فى مصر يحكمون فى المنازعات المختلفة التى تقع بين الناس ويشرفون على الأحباس وشئون الأيتام كما كانوا يخرجون لرؤية هلال رمضان. وكان بعضهم يجمع كل هذه الاختصاصات كما كان بعضهم ينظر فى بعضها فقط فى حين يعهد ببعضها الآخر إلى أشخاص آخرين[٢]. وكانوا يعينون من قبل الخليفة العباسى أو من قبل قاضى قضاة بغداد الذى يعينه الخليفة ولكنهم لم يكونوا يستطيعون مباشرة أعمالهم فى مصر إلا بموافقة الأمراء الأخشيديين. وأحياناً كان يعينهم الأمراء الأخشيديون أنفسهم[٣]. ولم يكن يراعى عند اختيارهم أن يكونوا على مذهب معين أو من جنس معين بل كان بعضهم على مذهب مالك وبعضهم شافعية وبعضهم حنفية كما أن بعضهم كانوا مصريين وبعضهم كانوا من الشام أو من العراق[٤]. وكان مدى اتساع نفوذهم يختلف باختلاف صيغة تقليدهم فبعضهم كان يولى قضاء مصر ثم يضاف إليه قضاء دمشق وبعضهم كان يولى

---

(١) سيدة الكاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ص ١٧٤ .

(٢) شرحه ص ٢٢٠ .

(٣) شرحه ص ٢١٤ .

(٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ٥٣٢ و ٥٣٣ و ٥٣٩ و ٥٥٧ و ٥٦٢ و ٥٦٥ و ٥٧١ و ٥٧٢ و ٥٧٥ و ٥٧٦ و ٥٨١ و ٥٨٤ .

قضاء مصر والإسكندرية والشام وحمص وفلسطين والرملة وطبرية وأعمالها وبعضهم كان يولى قضاء مصر والرملة وطبرية وهكذا[١] . وكانوا لاتساع مناطق نفوذهم يختارون لهم نواباً فى البلاد التابعة لنفوذهم القضائى وكان هؤلاء النواب يكثرون أو يقلون بحسب البلاد التابعة لهم وأعمالها[٢] . كما أنهم لتشعب أعمالهم كانوا يستعينون ببعض الفقهاء لمساعدتهم فى أعمالهم القضائية ومن أشهر الفقهاء الذين عاونوا القضاة فى أعمالهم أبو بكر ابن الحداد الذى كان القضاة يثقون فى أحكامه وفى نشاطه وعمله[٣] .

وقد كانوا عندما يتسلمون عملهم يلبسون السواد شعار العباسيين ويركبون إلى الجامع العتيق فى موكب من الشهود وأصحاب الشرطة والأمناء ووجوه أهل البلد وكان يقرأ عهد القضاء لهم فى الجامع[٤] . كما أنهم كانوا يتسلمون أوراق القضايا من القضاة السابقين ويختمون عليها بأختامهم ويكسرون أختام من سبقهم . ويبدو أن أوراق القضايا فى العصر الأخشيدى كانت تحفظ فى سلال وتختم[٥] . أما المكان الذى كان القضاة يقضون فيه بين الناس فى العصر الإخشيدى فكان هو جامع عمرو بن العاص . على أنهم أحياناً كانوا يقضون بين الناس فى بيوتهم[٦] . وقد كان القضاة يتخذون الحجاب ليستأذنوا للناس وللشهود فى الدخول إليهم[٧] . كما كانوا يتخذون الكتاب ليعاونوهم فى كتابة الأحكام[٨] . وأحياناً ليعاونوهم فى تصريف

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٥٦٢ و ٥٧٥ و ٥٧٧ و ٥٨٢ .

(٢) شرحه ص ٥٥٢ و ٥٧١ — ٥٧٢ .

(٣) سيدة الكاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ٢٢١ — ٣٢٢ والكندى : الولاة والقضاة ص ٤٨٧ ، ٥٤٠ ، ٥٥٣ ، ٥٦٣ ، ٥٦٥ .

(٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ٥٦٢ ، ٥٧٥ ، ٥٧٧ .

(٥) الكندى : الولاة والقضاة ص ٥٥٠ ، ٥٦٠ ، ٥٦٩ .

(٦) شرحه ص ٤٨٧ ، ٥٣٩ ، ٥٥٢ ، ٥٦٦ .

(٧) شرحه ص ٥٤٠ ، ٥٦٩ .

(٨) شرحه ص ٥٦٣ .

الأمور[١] . ويبدو أن هؤلاء الكتاب كانوا يختارون من بين العلماء ويدل على ذلك أن بعضهم أصبحوا قضاة[٢] .

وكانت هناك طائفة تسمى الشهود العدول يتصل عملها اتصالا مباشراً بأعمال القضاء ، وكانت تتألف من عدد من وجوه القوم ومن أشخاص يثق القاضي فيهم ، ويأخذ بشهادتهم فى القضايا التى تعرض عليه . وكانت هذه الطائفة قد أصبحت فى العصر الإخشيدى تشمل عدداً معيناً من الناس يثير إخراج بعضهم مشاكل للقاضى الذى يريد إخراجهم[٣] .

ومن أشهر القضاة فى أيام محمد بن طغج الأخشيد محمد بن بدر الصيرفى وقد ولى القضاء بمصر ثلاث مرات الأولى ( من ٣٢٣ هـ حتى ٣٢٤ هـ ) والثانية من سنة ٣٢٧ — ٣٢٩ هـ وفى أواخر هذه المرة كان يتولى القضاء نائباً عن الحسين بن عيسى بن هروان أحد أصحاب النفوذ فى بغداد والثالثة كانت من أواخر سنة ٣٢٩ هـ حتى سنة ٣٣٠ هـ وانتهت بوفاته فى شعبان سنة ٣٣٠ هـ وكان فيها أيضاً نائباً عن الحسين بن عيسى بن هروان[٤] . والحسين بن أبى زرعه الدمشقى وقد ولى القضاء سنة ٣٢٥ هـ وظل فيه حتى توفى فى ذى الحجة سنة ٣٢٧ هـ[٥] ، وعبد الله ابن أحمد بن زبر وكانت ولايته مرتين الأولى سنة ٣٢٤ هـ والثانية ٣٢٩ هـ وكانت قصيرة كالأولى ولم تدم إلا شهراً واحداً وأياماً مرض بعدها وتوفى سنة ٣٢٩ هـ[٦] .

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٥٧٠ .

(٢) شرحه ص ٥٦٣ ، ٥٧١ .

(٣) مصر فى عصر الأخشيديين ص ٢٢٢ — ٢٢٣ .

(٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ٤٨٦ — ٤٩٠ و ٥٥٠ و ٥٦٠ — ٥٦١ و ٥٦٣ — ٥٦٤ و ٥٦٦ .

(٥) شرحه ص ٤٨٧ و ٥٦٢ و ٥٦٣ .

(٦) شرحه ص ٤٨٨ — ٤٨٩ و ٥٦١ .

وعبد الله بن أحمد بن شعيب المعروف بابن وليد وكانت ولايته ثلاث مرات الأولى سنة ٣٢٩ ﻫ والثانية ٣٣١ﻫ حتى سنة ٣٣٣ م والثالثة سنة ٣٣٤ﻫ — ٣٣٦ ﻫ وكان نائباً للحسين بن عيسى بن هروان فى المرات الثلاثة[١] ،
والحسن بن عبد الرحمن ابن اسحق الجوهرى وقد ولى القضاء مرتين نيابة عن الحسين بن عيسى بن هروان الأولى سنة ٣٣٠ ﻫ والثانية سنة ٣٣٣ ﻫ[٢].
ومحمد بن أحمد بن الحداد وقد ولى القضاء نيابة عن ابن هروان سنة ٣٣٣ ﻫ وعزل سنة ٣٣٤ ﻫ . ويلاحظ أن ابن هروان هذا ولى قضاء مصر وكان يستخلف من يقوم بالقضاء نيابة عنه كما ذكرنا وكان غنياً عظيم الثروة ولكنه لم يكن فقيهاً ولم يكن يصلح لتولى الأحكام وقد سعى إلى منصب القضاء طلباً للجاه فقط وكان بعد تقلده القضاء حريصاً أشد الحرص على الاحتفاظ بهذا المنصب[٣] . وقد ذكر المؤرخون[٤] . أنه أتى إلى مصر فى آخر رجب سنة ٣٣٣ ﻫ وكان ابن وليد ينظر فى الأحكام فى حضرته نيابة عنه ولكنه علم أن ابن وليد يذكر أن ولايته على القضاء من قبل الخليفة المستكفى وليست من قبله هو ولذلك عزله ، وقيل أيضاً إنه علم أن ابن وليد أرسل إلى بغداد يلتمس كتاباً بولايته قضاء مصر من قبل الخليفة المستكفى مباشرة فعزله وقال له : « ما هذا الذى بلغنى عنك ؟ والله لو نازعنى أحد فى القضاء لبذلت فى إتلاف روحه مثل هذا الجرن ذهباً » . وقد حصل ابن وليد على ولاية القضاء بمصر من الخليفة المستكفى بعد ذلك بمساعدة سعيد بن عبدان التاجر واستطاع بمعاونة محمد بن على ابن مقاتل والحسن بن طغج أن يحصل على موافقة من الأخشيد بتقليده القضاء

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٤٨٩ — ٤٩١ و ٥٦٤ — ٥٦٥ و ٥٦٧ — ٥٦٨ .

(٢) شرحه ص ٤٩١ و ٥٣٣ و ٥٧١ — ٥٧٢ .

(٣) سيدة الكاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ص ٢١٠ .

(٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ٤٩١ و ٥٦٤ — ٥٦٧ .

وأن يتولى القضاء فعلا وينتزعه من ابن الحداد . وهـذه هي ولايته الثالثة التي أشرنا اليها من قبل ولـكنه ظل يخشى الحسين بن هروان برغم بعده عن مصر ولم يطمئن إلى استقرار الأمر له إلا بعد أن جاءه الخبر بموت ابن هروان بدمشق سنة ٣٣٤ هـ [١] .

أما في عهد كافور فقد ولي قضاء مصر عمر بن الحسن الهاشمي من سنة ٣٣٦ هـ — ٣٣٩ هـ [٢] . ثم عبـد الله بن محمد بن الخصيب أو الخصيبي من سنة ٣٣٩ هـ حتى سنة ٣٤٨ ثم أبو الطاهر الذهلي وقد ظل على قضاء مصر حتى فتحها الفاطميون [٣] .

وكان بعض هؤلاء القضاة صالحين عادلين لا يخشون في الحق لومة لائم حتى ولو كان ذلك أحد الأمراء الأخشيديين ومنهم محمد بن بدر الصيرفي [٤] والحسين بن أبي زرعة الدمشقي [٥] وأبو بكر بن الحداد [٦] وعمر بن الحسن الهاشمي [٧] وعبد الله بن محمد بن الخصيب [٨] . كما كان بعضهم يقبل الرشوة ويحيد عن الحق ولا يهمه إلا جمع المال ومنهم عبد الله بن أحمد بن زَبر [٩] وقد قيل عنه إنه « كان عارفاً بأخذ الدراهم والدنانير والهدايا » [١٠] . وكان

---

(١) الـكندي : الولاة والقضاء ص ٥٦٧ — ٥٦٨ .

(٢) شرحه ص ٤٩٢ — ٣ ، ٥٦٨ — ٩ ، ٥٧٣ — ٥٧٦ .

(٣) مصر في عصر الأخشيديين ص ٢١٣ .

(٤) الـكندي الولاة والقضاة ص ٤٩٣ ، ٥٨٣ .

(٥) شرحه ص ٥٥٩ — ٥٦٠ .

(٦) شرحه ص ٥٦٢ .

(٧) شرحه ص ٥٥٢ ، ٥٥٥ ، ٥٦٧ .

(٨) شرحه ص ٥٧٥ .

(٩) شرحه ص ٥٧٧ .

(١٠) شرحه ص ٥٤١ .

لا يعمل على إخفاء مسلكه[١]. ومنهم عبد الله بن أحمد بن شعيب المعروف بابن وليد[٢].

على أنه يجب أن نلاحظ أن القضاة بصفة عامة كانوا يخضعون للأمراء الأخشيديين ، وكان لا بد للقاضى من التقرب إلى الأمير للوصول إلى هذا المنصب ثم كان لا بد له من مداراة الأمير وطاعته ليستطيع الاحتفاظ بمنصبه ، وكان لا بد له فى كثير من الأحيان من تقديم الرشوة والهدايا ليتقلد المنصب أو يبقى فيه ... »[٣] . وقد كان القضاة فى كثير من الأحيان يحضرون مجالس الأمراء الأخشيديين ويبحثون بعض المسائل فى حضرتهم[٤] . كما أن بعضهم كانوا لا يجدون عملا لأن الأمراء الأخشيديين كانوا يقومون به بأنفسهم . وقد ذكر أن القاضى أبا الطاهر الذهلى كان كالمحجور عليه فى أحكامه لأن كافوراً كان يجلس كثيراً للمظالم فى أيام السبت كما أنه لم يجعل إليه النظر فى الأحباس منذ سنة ٣٥٠ هـ[٥] . والأدهى من ذلك وأمر أن بعض الأمراء الأخشيديين كانوا يتدخلون فى تصرفات القضاة الشخصية ، وقد ورد[٦] أن كافوراً الأخشيدى كلف يعقوب بن كلس بأن يقول للقاضى أبا الطاهر الذهلى « بلغنى أنك تتبسط مع جلسائك ، وهذا الانبساط يذهب هيبة الحكم ، فلما أبلغه ذلك ابن كلس رد القاضى بأن قال : « قل للأستاذ لست ذا مال أفيض به على جليسى فلا يكون أقل من خلق » .

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٥٤٠ — ٥٤١ .

(٢) شرحه ص ٥٦٥ ، ٥٦٨ .

(٣) مصر فى عصر الأخشيديين ص ٢١٧ .

(٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ٥٦٦ ، ٥٦٩ ، ٥٧٥ .

(٥) شرحه ص ٥٨٤ .

(٦) شرحه ص ٥٨٢ — ٥٨٣ .

ولكن على الرغم من ذلك فإن كثيرين من العلماء والفقهاء وغيرهم كانوا يتهافتون على الحصول على منصب القضاء فى مصر فى العصر الإخشيدى[١] وربما كان ذلك لأن مرتبات القضاة فى ذلك العهد كانت كبيرة كما يرجح البعض[٢] أو لأن القضاة كانوا يجمعون الثروات الكبيرة عن طريق استغلال مناصبهم استغلالا سيئاً إما بقبول الرشوة وإما بنهب أموال الأحباس .

أصحاب المظالم :

فى أوائل العهد الإخشيدى كان القضاة هم الذين ينظرون فى المظالم[٣] ، وفى سنة ٣٣١ ﻫ أفرد قاض مستقل للنظر فى المظالم[٤] ولكن بعد مدة من الزمن أخذ الأمراء الأخشيديون أنفسهم يجلسون للنظر فى المظالم . وقد قيل إن الأخشيد بعد مقتل ابن رائق وعودته من الشام سنة ٣٣١ ﻫ كان يجلس للنظر فى المظالم بنفسه فى أيام الأربعاء[٥] . كما قيل إن كافوراً كان يجلس للنظر فى المظالم كل سبت ويحضر عنده الوزير وسائر الفقهاء والقضاة والشهود ووجوه البلد[٦] .

المحتسب :

وفى العهد الأخشيدى كان المحتسب يسهر على مراعاة أحكام الشرع وحسن السلوك العام ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويشرف على نظام الأسواق والطرقات وأحوال الباعة والعمال . ويعمل بوجه عام على

---

(١) سيدة الكاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ص ٢١٥ — ٢١٧ .

(٢) شرحه ص ٢٢٠ .

(٣) الكندى : الولاة والقضاة ص ٥٥٢ .

(٤) شرحه ص ٥٧٧ .

(٥) ابن سعيد : المغرب ص ٣٩ .

(٦) الكندى : الولاة والقضاة ص ٥٨٤ .

حماية الناس من غش التجار والصناع ، وهذه هي مهمة المحتسب في الدول الإسلامية على اختلاف العصور . وقد كان الوزير هو الذى يعين المحتسب ويعزله فى العصر الأخشيدى . ومن أشهر من تولوا الحسبة فى العصر الأخشيدى محمد بن سلام . وقد روى ابن زولاق فى كتابه أخبار سيبويه المصرى رواية تدل على أن ابن سلام لم يكن محبوباً من الناس . وملخص هذه الرواية أن بعض جيران سيبويه المصرى ساءه ولاية ابن سلام على الحسبة فشكاه إلى سيبويه فركب معه إلى أبى الفضل جعفر بن الفضل فقال له : « أبا الفضل حفظك الله ورعاك وصانك وأبقاك وليت علينا محتسباً قليل الوفا كثير الجفا طويل القفا فإما أن كفيناه أو أبدلته لنا بسواه » . ويبدو أن ابن سلام لم يكن المحتسب الوحيد الذى يكرهه الناس وأن نظرة الناس إلى المحتسب فى ذلك العصر بصفة عامة كانت نظرة ملؤها الشك وعدم الثقة والكراهية وقد ذكر ابن زولاق أن سيبويه المصرى لقى المحتسب والحراس بين يديه فقال « ما هذه الأجراس يا أنجاس ! والله ما ثم حق أقمتموه ولا سعر أصلحتموه ولا جان أدبتموه ولا ذو حسب وقرتموه ، وما هى إلا أجراس تسمع لباطل يوضع وأقفاء تصفع وبراطيل تقطع ! لا حفظ الله من جعلك محتسباً ولا رحم لك ولا له أماً ولا أباً »[1] .

### النظام الإدارى فى العصر الأخشيدى :

نقصد بالنظام الإدارى نظام حكم الأقاليم والقرى فى العهد الأخشيدى .

وأول ما نلاحظه أن التقسيم الإدارى فى مصر فى العصر الأخشيدى لم يتغير كثيراً عما كان عليه فى فترة حكم الولاة والعهد الطولونى وما بعده . إذ كانت مصر مقسمة إلى كور وقرى . والراجح أنه كان بها فى هذا العهد نحو

---

(١) سيدة الكاشف : مصر فى عصر الأخشيديين س ٢٢٩ — ٢٣٠ .

ثمانين كورة[١] وكان بها نحو ألفين وثلاثمائة وخمس وتسعين قرية ( ٢٣٩٥ ) منها بالصعيد تسعمائة وست وخمسون قرية ( ٩٥٦ ) وبأسفل الأرض ألف وأربعمائة وتسع وثلاثون قرية ( ١٤٣٩ )[٢] . وقد كان على رأس الكورة حاكم يسمى صاحب الكورة كان مسئولا أمام الأمير الإخشيدى مباشرة عن شئون كورته . كما كان على رأس القرية حاكم من أهلها سمى منذ العهد الطولونى باسم العميد بعد أن كان قبل ذلك يسمى المازوت . وكان لكل من المدن الساحلية والواحات وبرقة وسينا حاكم يعينه الأمير الأخشيدى أو يعينه الخليفة مباشرة . كما كان الأمير الأخشيدى يعين أيضاً حكاماً على المدن والأقاليم التى كانت تفتح فى الشام . ومن المحتمل أن أصحاب الكورات والحكام كانوا يختارون من كبار قواد الأمير وأعوانه[٣] . ومن أشهر أصحاب الكور والحكام فى العصر الأخشيدى،فاتك الأخشيدى الذى ولى دمشق وشعله بن بدر الإخشيدى الذى ولى دمشق أيضاً سنة ٣٣٨ ﻫ والحسين بن طغج وعبيد الله بن طغج وقد وليا دمشق أيضاً من قبل أخيهما الأخشيد[٤] ويلاحظ أن أفراد الشعب المصرى لم يكونوا يتولون المناصب الإدارية بوجه عام وأن معظم الذين كانوا يتولون هذه المناصب كانوا من الوافدين على مصر أو من المتصلين بالأمراء والجند الترك[٥] .

الجيش فى العصر الأخشيدى :

كان الجيش فى العصر الأخشيدى هو عدة الأخشيديين وعتادهم . به استطاعوا أن يقيموا حكمهم فى مصر وعليه كان اعتمادهم فى صد الأخطار التى هددتهم فى الشام سواء أكان ذلك من ناحية ابن رائق أم من ناحية سيف الدولة بن حمدان .

---

(١) Ibn Said Vollers: *Fragment*, p. 34

(٢) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٧٣ .

(٣) سيدة الكاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ص ١٦٩ — ١٧٠ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٢٩٩ ، ٣١٠ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ .

(٥) سيدة الكاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ص ١٧٥ .

ولذلك فإننا لا نعجب حين نجد الأخشيديين يوجهون عنايتهم الكبيرة للنهوض بالجيش حتى يصبح من الجيوش العظيمة فى زمنهم . وحتى يصبح عدده كبيراً يتلاءم مع المهمة العظيمة التى كانت موكولة إليه . ويذكر لنا بعض المؤرخين[١] أن المتقى عند ما استدعى الأخشيد لمقابلته واقترب الأخشيد من مدينتى الرقة والرافقة أشرف أهل هذين البلدين على السواحل والأسوار ونظروا من عظم العسكر وحسن عدته مالم يشاهدوا مثله . كما يذكر لنا آخرون أن الجيش الأخشيدى بلغ أربعمائة ألف مقاتل فى مصر والشام[٢] . وأنه كان يتألف من عناصر مختلفة فكان فيه فى عهد الأخشيد الترك والسودانيون والمغاربة والمماليك من أجناس مختلفة[٣] ، ولما توفى الأخشيد واستبد كافور بالأمر ولم يبق شىء من الأمر لأنوجور ولا لأخيه من بعده ضم كافور إلى جيشه عدداً كبيراً من السودانيين[٤] . ومما يدل على عناية الأمراء الأخشيديين بالجيش تلك الاستعراضات الكثيرة للجيش التى كان يقوم بها محمد بن طغج الأخشيد فى أيام الأعياد وفى بعض المناسبات الأخرى ، على نحو ما كان يفعل أحمد بن طولون من قبل[٥] ، وكذلك ما نقرأه فى الكتب التاريخية[٦] عن اشتراك هذا الجيش الإخشيدى مع وجوه البلاد فى تولية الأمراء الأخشيديين وإعلانِ الولاء لهم .

على أننا يجب أن نلاحظ أن الفساد بدأ يدب فى صفوف الجيش الأخشيدى منذ عهد كافور . ويدل على ذلك انقسام هذا الجيش إلى طائفتين :

---

(١) متز : الحضارة الإسلامية ج ١ ص ٥٢ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٥٢ .

(٣) سيدة الكاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ص ٢٤٥ .

(٤) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٩٤ .

(٥) ابن سعيد المغرب ص ١٦ .

(٦) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٣٢٧ .

الأخشيدية والكافورية ، وأن كافوراً نفسه كان يساعد على هذا الانقسام لأنه كان يحاول كسب القواد إلى صفه بالأموال . ويروى أنه أمر لأحد القواد من أنصار أولاد الأخشيد بأربعة عشر ألف دينار فى يوم واحد فظل هذا القائد عبداً له حتى مات[١] .

وبعد وفاة كافور انتشرت الفوضى فى صفوف هذا الجيش انتشاراً كبيراً وثار كثير من الجند على رؤسائهم وطالبوا بأرزاقهم . وكان من أثر ذلك أن ضعف هذا الجيش وأصبح الطريق مفتوحاً أمام الفاطميين للاستيلاء على مصر[٢] . وقد جاء فى كتاب إغاثة الأمة بكشف الغمة للمقريزى[٣] ما يأتى : « ثم مات كافور فكثر الاضطراب وتعددت الفتن وكانت حروب كثيرة بين الجند والأمراء قتل فيها خلق كثير وانتهبت أسواق البلد وأحرقت مواضع عديدة فاشتد خوف الناس وضاعت أموالهم وتغيرت نياتهم وارتفع السعر وتعذر وجود الأقوات حتى بيع القمح كل ويبة بدينار واختلف العسكر فلحق الكثير منهم بالحسن بن عبيد الله بن طغج وهو يومئذ بالرملة وكاتب الكثير منهم المعز لدين الله الفاطمى » .

**الأسطول فى العصر الأخشيدى :**

استفاد الأخشيديون من الأسطول فائدة كبرى فى سبيل إقامة حكمهم فى مصر . ويذكر المؤرخون[٤] أن الأخشيد لما تقلد إمارة مصر دخلها ومعه أسطول بقيادة صاعد بن كلملم . وقد دخل هذا الأسطول ثغر دمياط

---

(١) سيدة الكاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ص ٢٤٦ .

(٢) تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكى ص ١٢٩ .

(٣) ص ١٣ — ١٤ .

(٤) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٢٩ .

وسارت سفنه فى النيل بعد أن هزمت السفن المصرية فى شعبان سنة٣٢٣هـ .
ووصل الأسطول إلى جزيرة الروضة واستولى على ما فيها من السفن فى رمضان من السنة نفسها .

على أن هذا الأسطول الذى جاء مع محمد بن طغج لم يبق طويلا ليدافع عن الأخشيديين ويحمى مصالحهم . ذلك لأن بعض الثوار قاموا ضد محمد ابن طغج بعد أن دخل مصر ونزل فى دار الإمارة واشتبكوا مع جيوشه وأسطوله واستطاعوا أن يقتلوا صاعداً قائد الأسطول كما أحرقوا كل مافى جزيرة الروضة من السفن[١] .

وقد اهتم محمد بن طغج الأخشيد بعد ذلك ببناء أسطول جديد ، ونقل دار صناعة السفن منذ سنة ٣٢٥ هـ من جزيرة الروضة إلى دار خديجة بنت الفتح بن خاقان زوجة أحمد بن طولون بساحل الفسطاط . ويقال إن السبب فى نقل دار الصناعة أنه حين أحرق الثوار أسطوله كان واقفاً تجاههم بجيشه ولكنه لم يستطع أن يحرك ساكناً . ولذلك قال : صناعة يحول بينها وبين صاحبها الماء ليست بشىء[٢] » .

ويبدو أن كافوراً كان شديد العناية أيضاً بالأسطول ويدل على ذلك ما يقال من أنه كان يذهب إلى دار الصناعة لحضور الاحتفال بإنزال المراكب الحربية إلى البحر . وقد ذكر لنا يحيى بن سعيد الأنطاكى فى تاريخه[٣] ، أن كافوراً « ركب إلى دار الصناعة . ووقف ليطرح مركباً حربياً عظيما كان بها إلى البحر ، وكان على الشط مركب آخر مرسى فاجتمع الناس فيه

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٩٧ .

(٢) شرحه .

(٣) ص ١١٦ — ١١٧ .

وجلسوا على حافته وتزاحموا عليه لينظروا نزول المركب الآخر إلى البحر فانفلت ذلك المركب الذى كانوا مجتمعين فيه بهم ومال عليهم فقتلهم بأجمعهم وغرق عدة من المراكب اللاصقة له فى البحر مملوءة أناساً وهلك جميع من كان فيها ومات من الناس زهاء خمسمائة رجل » وواضح من هذا القول أن كافوراً كان يحضر الاحتفال بإنزال المراكب الحربية إلى البحر وواضح أيضاً أن هذه الاحتفالات كانت كبيرة وكان يحضرها عدد كبير من الناس .

# الفصل الرابع

## الحالة الاقتصادية أيام الأخشيديين

اهتم الأخشيديون كثيراً بزيادة موارد مصر ولذلك كانت عنايتهم كبيرة بترقية حالتها الاقتصادية والعناية بالزراعة والصناعة والتجارة .

### ١ — الزراعة :

أما الزراعة فكانت فى العصر الإخشيدى كما هو الحال دائماً فى مصر محل العناية الكبيرة ومصدر الجزء الأكبر من دخل الحكومة .

وكان المتقبلون للخراج يوزعون الأرض على الزراع ليزرعوها إما بإيجار معين أو مزارعة ، ولم يكن إيجار الأرض فى العصر الإخشيدى مرتفعاً إذ كان يتراوح بين دينار واحد وبين دينارين ونصف دينار للفدان فى السنة وقد ذكرت لنا بعض المصادر[1] أن وثيقة محفوظة بدار الكتب المصرية ترجع إلى ٣٤٨ هـ تتضمن عقد إيجار أرض مساحتها ثلاثة أفدنة وإيجارها ثلاثة دنانير فى السنة وأن وثيقة أخرى محفوظة فى مجموعة الأرشيدوق رينر فى فينا تتضمن عقد إيجار أرض من بداية العهد الإخشيدى مساحتها ستة فدادين وإيجارها خمسة عشر ديناراً فى السنة . ولسنا ندرى هل هذا التفاوت فى الإيجار يرجع إلى اختلاف جودة الأرض أم إلى تغير الحالة الاقتصادية فى أواخر العهد الإخشيدى عنها فى أوله وظهور الكساد فى أواخر ذلك العهد بعد أن كان الرخاء يسود مصر فى أوائل ذلك العصر وكان إقبال الزراع على استئجار الأرض شديداً .

---

(١) سيدة الكاشف : مصر فى عهد الأخشيديين ص ٣٤٤ .

أما نظام المزارعة فهو استئجار الأرض نظير تأدية الإيجار من المحصول . وتدل الوثائق البردية على أن الجزء الذى كان يأخذه المالك من المحصول كان النصف فى بعض الأحيان وكان فى أحيان أخرى الثلث أو الربع وكان ينص فى عقد المزارعة على الطرف الذى يدفع الخراج أو يقوم بغير ذلك من النفقات(١).

وطبيعى أن الرى فى مصر فى هذا العهد كان بطريق الحياض . وقد كتب ابن حوقل فى هذا الصدد : وزروعهم بماء النيل تمتد فتعم المزارع من حد أسوان إلى حد الإسكندرية ويقيم الماء فى أرضهم بالريف والحوف منذ امتداد الحر إلى الخريف ثم ينضب فيزرع ثم لا يسقى بعد ذلك ولا يحتاج إلى سقى البتة »(٢).

أما أهم محاصيل مصر فى ذلك العهد فهى القمح والفول والقثاء والقلقاس والزيتون وغيرها من المحاصيل التى لا تزال تزرع فى مصر حتى الآن . وكذلك النيلة التى كان يزرع شجرها فى الصعيد والواحات وكان يحصد كل مائة يوم ويبقى فى الأرض الجيدة ثلاث سنين . وكان المصريون يستخدمون النيلة للتلوين باللون الأزرق(٣).

وقد يدل على تقدم الزراعة فى هذا العهد أن خراج الأرض ظل على ما كان عليه تقريباً فى العهد الطولونى . وقد ذكر بعض المؤرخين أن الأخشيد استخرج من مصر فى إحدى عشرة سنة اثنين وعشرين ألف ألف دينار سوى خراج الرملة وطبرية ودمشق السواحل(٤) . كما ذكر غيرهم أن

---

(١) سيدة الكاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ص ٢٧٦ هامش .

(٢) شرحه ص ٢٧٨ .

(٣) شرحه ص ٢٧٥ — ٢٧٧ .

(٤) ابن سعيد : المغرب ص ٣٦ .

خراج مصر فى عصر الأخشيد كان مليونين من الدنانير فى السنة[١]. وهناك من يذكر[٢] أن خراج مصر فى سنة من حكم كافور بلغ ثلاثة ملايين ومائتى ألف وسبعين ألفاً من الدنانير .

٢ — الصناعة :

لقد تقدمت الصناعة فى مصر فى العصر الأخشيدى ويدل على ذلك أن الصناعات القديمة التى اشتهرت بها مصر من قديم الزمن ظلت قائمة فيها كما أن صناعات أخرى جديدة قامت فيها أيضاً .

ومن أشهر الصناعات القديمة صناعة المنسوجات الكتانية والحريرية والقطنية . وكانت مراكز صناعتها هى المراكز التى كانت قائمة فى فترة حكم الولاة والعصر الطولونى . وقد جاء فى كتاب ابن حوقل أن تنيس ودمياط كانت تنتج من المنسوجات الثمينة « ما ليس فى جميع الأرض ما يدانيها فى الحسن والقيمة وربما بلغ الثوب من ثيابهم مائتى دينار إذا كان فيها ذهب وما لا ذهب فيه يبلغ المائة دينار »[٣]. وكانت فى مصر فى العصر الأخشيدى دور للطراز منها طراز الخاصة التى كانت تصنع المنسوجات للأمراء والخلفاء العباسيين التى كانوا يستعملونها فى الخلع التى يخلعونها على المقربين إليهم . ومنها طراز العامة التى كانت تصنع الأقمشة اللازمة للشعب . وكانت دور الطراز هذه بنوعيها مصانع حكومية يشرف عليها موظف كبير يسمى صاحب الطراز أو ناظر الطراز . وكان يعاونه فى الإشراف على مصانع الطراز فى كل إقليم من الأقاليم المصرية موظف يسمى المتوكل بطراز الإقليم ومن أصحاب الطراز فى العصر الأخشيدى جابر وشفيع وبكير وأبو يزيد

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٩٩ .

(٢) أبو صالح الأرمنى : الكنائس ص ٣٠ .

(٣) المسالك والممالك ص ١٠١ — ١٠٢ .

وعبيد وفائز وقد عرفنا أسماءهم من القطع التى عثرنا عليها . وكانت توجد أيضاً بجانب هذه المصانع الحكومية التى تحتكر صناعة النسيج مصانع أهلية ولكن الحكومة كانت تثقل كاهلها بالضرائب الفادحة كما كانت تشدد الرقابة عليها[١].

وقد تدهورت فى العصر الأخشيدى صناعة من صناعات مصر الأصلية وهى صناعة القراطيس البردية . وذلك لأن الورق أصبح يرد إلى البلاد الإسلامية من الصين وكان يصنع أيضاً فى سمرقند ودمشق وطبرية وطرابلس الشام[٢].

أما الصناعات الجديدة التى أصبحنا نسمع عنها فى العصر الأخشيدى فنها صناعة الحصر . وكان يصنع منها أنواع فاخرة تقليداً للحصر المصنوعة فى عبادان[٣] ومنها أيضاً صناعة الجلود التى تعلمها المصريون فى القرن الرابع الهجرى من الزنوج[٤] . ومنها صناعة التعدين وقد جاء فى كتاب البلدان لليعقوبى[٥] أن الذهب كان يستخرج من الصحراء الشرقية بين أسوان وعيذاب وكان وادى علاقى مركز الذين يبحثون عن هذا المعدن النفيس وكان لسكان هذا الوادى عبيد من الزنوج يعملون فى استخراج التبر . كما جاء أيضاً فى كتاب الخطط للمقريزى[٦] أن الزمرد كان يستخرج من هذه المنطقة الممتدة بين أسوان وعيذاب . وكان صاحب السلطان فى تلك المنطقة فى سنة ٣٣٢ هـ هو سيد قبيلة ربيعة .

٣ — التجارة :

أما التجارة. فقد راجت رواجاً كبيراً فى مصر فى العصر الأخشيدى

(١) سيدة الكاشف : مصر فى عصر الإخشيديين ١٨٠ — ١٨١ .
(٢) متز : الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٣٠٨ — ٣٠٩ .
(٣) سيدة الكاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ص ٢٧٩ .
(٤) متز : الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٢٧٩ .
(٥) ص ٣٣٤ .
(٦) جـ ١ ص ١٩٦ — ١٩٧ .

سواء فى ذلك التجارة الداخلية والتجارة الخارجية . وقد أشار المقدسى فى كتابه أحسن التقاسيم[1] إلى كثرة المراكب التى كانت تسير فى النيل والتى كانت راسية فى موانيه فى ذلك العهد . كما أن ابن حوقل ( المسالك والممالك ص ٨٩ ) ذكر كلاماً كثيراً عن كثرة الأسواق العامرة بمدن مصر فى ذلك العهد . أما تجارة مصر الخارجية فكانت نشطة جداً فى البحرين الأحمر والأبيض وكان ثغر عيذاب الواقع على البحر الأحمر ملتقى تجارة البحر الأحمر بتجارة النيل فكانت البضائع تصل إليه من قوص وأسوان ثم يعبر التجار منه إلى جدة كما كانت ترد إليه فى البحر الأحمر من الحبشة واليمن وزنجبار ثم تحمل على الإبل فى الصحراء مسيرة عشرين يوماً إلى أسوان وقوص[2] . كما كان ثغر الإسكندرية واسطة الاتصال التجارى بين مصر وأوربا ، وشمال إفريقية ، وقد ذكر أن مصر كانت تستورد الحيوانات للذبح من برقة فى العصر الأخشيدى[3] . وظلت العلاقات التجارية قائمة فى ذلك العهد بين مصر وبلاد النوبة ويقال إن تجار النوبة كانوا يأتون فى النيل حتى منطقة الجنادل ثم ينقلون بضائعهم على ظهور الجمال إلى أسوان[4].

وقد زاد من نشاط الحركة التجارية فى مصر فى العصر الأخشيدى وجود جالية كبيرة من الفرس واليهود وكانوا يحترفون التجارة[5].

ويدل على رواج التجارة فى ذلك العهد أننا نسمع عن تجار أغنياء جمعوا ثروات كبيرة من التجارة . وقد قيل إن أحد تجار مصر فى بداية العصر الأخشيدى واسمه عثمان بن سليمان البزاز كان غنياً جداً حتى أنه حين توفى

---

(١) ص ١٩٨ .

(٢) متز : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٣٦٨ — ٣٦٩ .

(٣) مصر فى عصر الأخشيديين ص ٢٨٠ .

(٤) شرحه ص ٢٨٠

(٥) متز : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٣٢٢ — ٣٢٣ .

استطاع الأخشيد أن يأخذ من ماله نحو مائة ألف دينار[١].

ولا شك أن عناية الأخشيديين بمسألة النقد كان لها أثر ملحوظ فى رواج التجارة وقد قيل إن الدينار الأخشيدى كان يضرب على عيار كامل وإن النقود أصبحت خالية من الغش فى العهد الإخشيدى « وكان الدينار فى القرن الرابع يساوى نحو الأربعة عشر درهماً والدرهم ستة دوانق والدانق اثنى عشر قيراطاً . وكانت للمعاملات الضخمة وسائل للدفع خفيفة الحمل بعيدة عن متناول اللصوص كالسفاتج والمستندات »[٢].

والنقود الأخشيدية التى نعرفها ضربت فى مصر ( الفسطاط ) وفلسطين ( الرملة ) ودمشق[٣].

ضخامة ثروة الأخشيديين :

كان لاهتمام الأخشيديين بالحالة الاقتصادية فى مصر فى عهدهم أثر كبير فى ازدياد ثروتهم وكثرة أموالهم . وخير دليل على ذلك مايذكره المؤرخون عما خلفه الأمراء الأخشيديون من أموال وكنوز بعد وفاتهم وإن كان فى هذه الأقوال مبالغة أحياناً كما هو معروف . فقد ذكر ابن زولاق[٤] أن مما خلفه الأخشيد سبع مطامير فى كل مطمورة منها مليون دينار ، كما خلف من الجواهر ما قيمته مائتا ألف دينار ومن العنبر ثمانمائة رطل ومن العبيد ثلاثة آلاف ما بين روم ومولدين وسود ، وخلف من الخيل لركابه ألفاً ومائتى فرس سوى دواب غلمانه ، وخلف من البغال ثلاثة آلاف ومن النوق ثلاثة آلاف ومن المراكب مائة مركب سوى العشاريات ، وكان لكل

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ١٧ .

(٢) سيدة الكاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ص ١٩٥ .

(٣) شرحه ص ١٩٢ .

(٤) ابن سعيد : المغرب ص ٤٤ .

مركب منها يقدر بثلاثة آلاف دينار . وجاء أيضاً فى بعض المصادر[١] أن كافوراً خلف فى خزانته بعد وفاته ما قيمته نحو مليون دينار من الجواهر والثياب والسلاح والأمتعة .

بعض أساليب الإخشيديين السيئة لجمع المال :

على أنه يجب أن نلاحظ أن بعض الأمراء الأخشيديين والحكام كانوا يلجأون إلى طرق غير مشروعة للحصول على الأموال ، ولم تكن ثرواتهم كلها تأتيهم عن طريق شرعى كالضرائب والجبايات . وقد ذكر بعض المؤرخين[٢] أن الأخشيد صادر كثيراً من رجال دولته من أمثال الوزير أبى بكر محمد بن على الماذرائى والكاتب محمد بن كلا والحاجب عمران بن فارس. كما جاء أيضاً[٣] أن الأخشيد كان يعمل على الاستيلاء على جزء من تركة كبار التجار والموظفين ، وقد سبق أن ذكرنا أنه استولى على مائة ألف دينار مما خلفه التاجر الثرى عثمان بن سليمان البزاز . أضف إلى ذلك أن الأخشيد كان أحياناً يحاول جمع المال عن طريق التبرعات ، وقد ذكر المؤرخون[٤] أن أهل الثغور أرسلوا كتباً إلى الأخشيد يستحثونه على فداء الأسرى المسلمين عند الروم فأمر بصندوق فجعل فى الجامع العتيق ليطرح الناس فيه ما تجود به نفوسهم ولكنهم لم يطرحوا شيئاً يستحق الذكر واضطر الأخشيد أن يرسل المال من جيبه الخاص لفدية الأسرى . وكذلك كان الأخشيد يستولى على أموال الناس بدون وجه حق ، وقد جاء فى كتب التاريخ[٥] أن الأخشيد خرج يوماً للصيد على مقربة من دمشق فرأى حماماً فأرسل عليه طائر الصيد الجارح فأمسكه فإذا مع الحمام

---

(١) سيدة الكاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ص ١٣٧ .
(٢) ابن سعيد : المغرب ص ٨ ، ١٤ — ١٧ .
(٣) ابن سعيد : المغرب ص ٣٦ .
(٤) شرحه ص ١٨ .
(٥) شرحه ص ١٠ .

كتاب من غلام للراشدى الذى كان والياً على الرملة ثم على دمشق ، وكان هذا الكتاب إلى أحد الدمشقيين ينبئه فيه أن ماعليه ثمانون ألف دينار فانصرف الأخشيد إلى داره وأحضر الرجل وطالبه بالمال وأخذه منه .

وقد كان كبار رجال الدولة يحذون حذو الأخشيد ، وقد ذكر[1] أن أبا الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات لما تولى الوزارة لأحمد بن على بن الأخشيد ، قبض على جماعة من أرباب الدولة بعد موت كافور وصادرهم وقبض على يعقوب بن كلس . . . وصادره على أربعة آلاف دينار وخمسمائة وأخذها منه ، كما ذكر[2] أن أبا محمد الحسين بن عبيدالله بن طغج صاحب الرملة لما قدم إلى مصر بعد ذلك قبض على الوزير أبا الفضل جعفر وصادره وعذبه .

أما كافور فإنه لم يؤثر عنه أنه مال إلى مصادرة عماله وأغنياء البلاد فى عصره[3] .

**الغلاء فى مصر فى العصر الأخشيدى :**

ويجب أن نلاحظ أيضاً أن الغلاء قد اشتد بمصر فى العصر الأخشيدى فى فترات مختلفة ففى سنة ٣٢٩ هـ انتشر غلاء عظيم واختفت الأقوات من الأسواق وعز القمح وسائر الحبوب وتبعه وباء شديد[4] ، وفى سنوات ٣٣٨ ، ٣٤١ ، ٣٤٣ هـ وقع غلاء أيضاً بمصر[5] ، وفى سنة ٣٥٢ هـ وقع أيضاً غلاء شديد بمصر واستمر تسع سنين متوالية وكان من الأسباب التى أضعفت الدولة الأخشيدية وعجلت سقوطها . وكان سببه الرئيسى يرجع إلى النقص فى فيضان النيل واختفاء القمح واضطراب الأحوال وكثرة الفتن ونهب الضياع[6] .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ٣٠٥ — ٣٠٦ .
(٢) شرحه ص ٣٠٦ .
(٣) سيدة الكاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ص ٣٤٥ .
(٤) تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكى ص ٩٧ .
(٥) المقريزى : إغاثة الأمه بكشف الغمة ص ١١ — ١٢ .
(٦) شرحه ص ١٢ — ١٣ .

# الفصل الخامس

## الحالة الاجتماعية

يمكننا أن نحصر أهم طبقات المجتمع المصرى فى العصر الأخشيدى فى الطبقة العليا أو طبقة الأغنياء وطبقة الشعب وأهل الذمة والأرقاء .

### ١ — الطبقة العليا :

أما الطبقة العليا أو طبقة الأغنياء فكانت تشمل الأشراف وكبار رجال الدولة وبعض كبار التجار وأصحاب الأملاك .

### الأشراف :

أما الأشراف فكانوا من نسل العباسيين والطالبيين والعلويين[1] وكان أهمهم جميعاً فى مصر فى هذا الوقت العلويون . وكان يشرف على شئونهم نقيب منهم وكانوا لقرابتهم للنبى يأخذون مرتبات من الحكومة وينظر فى قضاياهم قضاء مستقل بهم يتولاه نقيبهم[2] .

وقد كان آل طباطبا أشهر العلويين فى مصر فى ذلك العصر وكان منهم الشريف عبد الله بن طباطبا ( عبد الله بن أحمد بن على بن إبراهيم بن طباطبا ) ( + ٣٤٨ ) الذى قيل عنه[3] إنه كان « شريفاً عفيفاً فصيحاً جميلا له رباع وضياع ونعمة ودائرة متسعة » . وقيل عنه أيضا إنه كان يتمتع

---

(١) ابن الزيات : الكواكب السيارة ص ٦١ .

(٢) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٨٢ — ٨٦ .

(٣) ابن الزيات : الكواكب السيارة ص ٦٠ .

بنفوذ كبير عند الأخشيد وكان يعتبر من أقرب المقربين إليه [١] كما أنه كان ينال عطف كافور وقد قيل عنه إنه كان من أغنياء العلويين فى العصر الأخشيدى وكان من عاداته أن يبعث إلى كثير من أهل مصر بهدايا من الحلوى فى شتى المناسبات وكان يرسل إلى كافور كل يومين صحنين من الحلوى ورغيفاً فى منديل مختوم . وحسده بعض الأعيان وقال لكافور إن إرسال الرغيف إلى الأمير أمر لايليق فأرسل كافور إليه يسأله أن يعفيه من الرغيف . وأدرك الشريف أنهم حسدوه وقصدوا إبطال عادته فذهب إلى كافور وقال له : « أيدك الله إنا لا تنفذ الرغيف تطاولا ولا تعاظما وإنما هى صبية حسنية تعجنه بيدها وتخبزه فنرسله على سبيل التبرك فإذا كرهته قطعناه » فقال كافور : لا والله لاتقطعه ولا يكون قوتى سواه ! وعاد العلوى إلى ما كان عليه من إرسال الحلوى والرغيف[٢] » . ومن آل طباطبا أيضاً الشريف أبو القاسم أحمد بن محمد بن اسماعيل طباطبا ( + ٣٥٢ هـ ) وقد ولى نقابة الطالبيين بمصر على عهد كافور الأخشيدى [٣] وابنه أبو محمد القاسم بن أحمد وكذلك الحسن بن على بن محمد بن أحمد بن على الحسن ابن طباطبا ( + ٣٥٤ هـ ) . وهم جميعاً ينسبون إلى القاسم الرسى وهو من أولاد السيد ابراهيم طباطبا . وقد قدم إلى مصر وتوفى بها سنة ٢٢٠ هـ ، ومنذ قدومه إليها أصبح لهذه الأسرة شأن عظيم فى المجتمع المصرى[٤] .

على أنه كان بمصر من العلويين من غير بيت طباطبا الحسن بن طاهر ابن يحيى العلوى وكان مقرباً من الأخشيد وقد سفر بينه وبين ابن رائق حينما جاء ابن رائق مهاجما مصر سنة ٣٢٧ هـ كما أرسله الأخشيد أيضاً إلى سيف

---

(١) سيدة الكاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ص ١٢١ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ٣٢٦ .

(٣) ابن سعيد : المغرب ص ٤٩ — ٥١ .

(٤) سيدة الكاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ص ١٢٣ .

الدولة بن حمدان ليفاوضه من أجل السلام وتحديد الحدود بين أملاكهم [١].

وكان الحسن يتمتع بالاحترام بين كبار رجال الدولة الأخشيدية وقد قيل إنه توسط فى الصلح بين القاضى الحسين بن أبى زرعة والفقيه أبى بكر ابن الحداد وذهب معه بن الحداد إلى دار أبى زرعة ووجده فى الطابق العلوى بها ونزل ابن أبى زرعة ومر عليهما فسلم ولم يجلس عندهما وتوجه إلى مكان آخر فجلس فيه واستدعاهما فلما دخلا عليه قام وتلقاهما « وفعل ذلك أدبا مع الشريف لئلا يقوم إليه » [٢]. وكان منهم أيضا أبو جعفر مسلم بن عبيد الله بن طاهر العلوى النسابة الذى كان يتمتع بإحترام كافور له وقد قيل إن كافوراً كان يسير يوما مع أبى جعفر مسلم وهو فى موكب وبين يديه بعض حاشيته وخلفه بغال عليها بعض الأمتعة والمال فسقطت مقرعة كافور ولم يرها أحد من حاشيته وخدمه فنزل العلوى عن دابته وأخذ المقرعة من الأرض ودفعها إلى كافور فقال كافور : أيها الشريف أعوذ بالله من بلوغ الغاية . ماظننت أن الزمان يبلغنى حتى تفعل بى أنت هذا ! وكاد يبكى فقال العلوى : أنا صنيعة الأستاذ ووليه . ولما بلغ كافور باب قصره ودع العلوى ثم أرسل خلفه كل ما كان على البغال من مال ومتاع . وكانت قيمته تزيد على خمسة عشر ألف دينار [٣]. وكان أبو جعفر مسلم يتمتع أيضا باحترام كبار رجال الدولة الأخشيدية ويدل على ذلك أيضا مايقال من أن أبا بكر محمد بن على الماذرائى لما عاد من معتقله بالرملة بعد وفاة الفضل بن جعفر ابن الفرات وخرج من دار الأخشيد بعد أن خلع عليه الأمير سار الشريف أبو جعفر مسلم بين يديه ولم يعلم به الماذرائى إلا فى سوق السراجين فحلف عليه حتى ركب [٤]. كما كان منهم الشريف أبو محمد عبد الله أخو مسلم ويبدو

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٤٥ ، ٤٨ .

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٥٦٣ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٣ — ٤ .

(٤) ابن سعيد : المغرب ص ١٦٤ .

أنه كان غنيا[١] .

وقد كان العلويون بصفة عامة يتمتعون بعطف الأمراء الإخشيديين وقد أشرنا فيما سبق إلى تقريب هؤلاء الأخشيديين لكثير من أشراف العلويين ، ونحب أن نشير هنا إلى أن هؤلاء الأشراف كان من بينهم من يعيشون عيشة زهد وتقشف وتدين مثل عبد الله بن طباطبا الذى قيل عنه إنه مع غناه كان كثير الافتقاد للفقراء والأرامل المنقطعين[٢] ومثل الحسن بن طباطبا الذى قيل عنه إنه كان من الزهاد[٣] . كما كان منهم من يجمعون الأموال الكثيرة ويعيشون عيشة أبهة وترف ولا يتورعون رغم مركزهم من التزلف إلى الأمراء الإخشيديين بل ويخشون غضبهم . ومن هؤلاء أبو جعفر مسلم الذى سبق أن ذكرنا أنه قال لكافور عند ما أظهر أسفه لتقديمه المقرعة له : « أنا صنيعة الأستاذ ووليه » ، والذى قيل إن سيبويه المصرى جاء إليه يوما وقال له : « جئت أيها الشريف فى حاجة . أريد قبة على بغل نقل يحمل جميع آلة السفر من وطاء وغطاء ومستعمل فإنى خارج فى غد إلى مسجد موسى أصلى فيه وأدعو . فقال له مسلم : السمع والطاعة ما تفتح باب دارك غداً إلا والجميع على الباب . ثم دعا بالفراشين فأخذوا فيما يحتاجون إليه . فقال له سيبويه : وحقك ياشريف ما أخرج إلا للصلاة والدعاء للمسلمين أن يريحهم الله من هذا الأسود الخصى فقد كدر الحياة ، وأعاب الولاة ، وأفسد الصلاة . وما الله عنه بساه . ثم قام منصرفا ، وبقى مسلم مطرقا ثم قال فى مجلسه : ألا ترون أى بلية ؟ إن أرسلت إليه خفت من الأستاذ ، وإن لم أرسل إليه وقعت فى لسانه وفى سبه »[٤] ومنهم أبو محمد عبد الله أخو مسلم الذى جاء يوما إلى سيبويه وقال : سلام عليكم . فقال

---

(١) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ٣١ — ٣٥ .

(٢) ابن الزيات : الكواكب السيارة ص ٦٠ .

(٣) مصر فى عصر الأخشيديين ص ٢٣٤ .

(٤) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ٥٥ — ٥٦ .

سيبويه «السلام على من اتبع الهدى وتجنب الردى وسلك الطريقة المثلى ولم يتشبه بكسرى وبهرام وسابور وشهرام ! ارجع إلى مص النوى فهو أصلح لك وأولى»[١] . ومنهم أيضا أبو القاسم أحمد بن محمد بن طباطبا الذى قال شعراً فى الخمر ولم يمنعه عن ذلك أنه كان نقيب الطالبيين بمصر . ومن هذا الشعر :

يا بدر بادر إلىّ بالكاس  فرب خير أتى على باس[٢]

ومن هذا الشعر أيضاً :

أأترك الشراب والأنواء دائمة  والطل منها على الأشجار منثور
والغصن يهتز كالنشوان من طرب  والورد فى العود مطوى ومنشور
لا والتى تركتنى يوم فرقتها  كأنما الرمل فى عينىّ منثور[٣]

ومنهم كذلك ابنه أبو محمد القاسم بن أحمد الذى قال كأبيه شعراً فى الخمر منه :

إن الكروان صاح على الرمال  وحل البدر فى برج الكمال
وجعّد وجه بركتنا هبوب  تمر به الجنوب مع الشمال
وحركت الغصونَ فشابهتها  قدود سقاتنا فى كل حال
فهات الكأس مترعة ودعنى  أبادر لذتى قبل ارتحالى[٤]

كبار رجال الدولة :

أما كبار رجال الدولة فى العهد الإخشيدى فمن أهمهم جميعاً أفراد أسرة الماذرائى أبو بكر محمد بن على الماذرائى وابنه الحسين . وقد قيل[٥] إنه كان

---

(١) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ٣١ ، ٤٥ .
(٢) الثعالبي : يتيمة الدهر جـ ١ ص ٣٦٩ .
(٣) ابن سعيد : المغرب ص ٤٩ .
(٤) الثعالبي : يتيمة الدهر جـ ١ ص ٣٧٠ .
(٥) مصر فى عصر الأخشيديين ص ٢٣٦ — ٢٣٧ .

للماذرائيين فى مصر الضياع الواسعة وكان كبار هذه الأسرة يتخذون الحجاب تشبها بالأمراء . وكان لمحمد بن على المـاذرائى ديوان كبير يشرف على نحو ستين ألف محتاج كانت تجرى عليهم الأرزاق . وبلغ ارتفاع مغله بمصر من أملاكه فى العام أربعمائة ألف دينار(١) . وكان الماذرائيون يعيشون فى ترف ظاهر وإن كانوا إلى جانب هذا يغدقون الخير والإحسان على الفقراء والمحتاجين . وكان لهم جوسق عظيم بنى على هيئة الكعبة . وكان أهل الرياسة يجتمعون عنده فى الأعياد ويوقدون فيه الشموع الكثيرة ويجتمع عنده القراء ويتلون فيه القرآن ويأتى الماذرائيون ويفرقون الجوائز فى ذلك اليوم رغبة لما فى ذلك المكان من الخير والبركة . وقد قيل إن الكعبى قال : ما رأيت من بكى حوله الفقراء والأرامل والأيتام كالماذرائى لما مات .

كبار التجار والملاك :

وأما كبار التجار وأصحاب الأملاك فى العهد الإخشيدى فقد ذكر منهم أبو جعفر أحمد بن نصر وأبو الحسن محمد بن عبد القاهر وأبو العباس أحمد ابن عبد العزيز بن إسحق الجوهرى وابن أريخا وابن برك التاجر(٢).

إسراف الطبقة العليا فى الطعام والشراب :

كان أفراد الطبقة العليا من المصريين فى العهد الإخشيدى يسرفون فى الطعام والشراب إسرافا كبيراً وكانت موائدهم تحمل ما لذ وطاب من طعام وشراب . وقد قيل إن موائدهم كان يوجد عليها من أنواع الطعام الحامضية وتصنع من عصير البرتقال وماء الورد والمسك والأفاويه فى الحصرم ، كما كان يوجد عليها الحلوى والشواء . ومن أنواع الشراب الخمور والماء

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٥٦ .

(٢) سيدة الكاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ص ٢٣٧ — ٢٣٨ .

المثاج[١] . وقد رأينا فيما سبق أن من أشراف العلويين من تغنوا بالخمر ، أضف إلى ذلك أنه قيل إن محمد بن على الماذرائى على الرغم مما عرف عنه من التدين والإقبال على الصلاة والصيام والحج والعطف على الفقراء كان يشرب الخمر فى وقت من الأوقات[٢] .

غرامهم بالملابس النادرة :

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل إن أفراد هذه الطبقة كانوا يتأنقون فى ملابسهم ولا يكتفون بذلك بل يفخرون بالحصول على النادر والثمين منها وكانت الفراء الغالية معروفة فى هذا العصر[٣] .

إقبالهم على الروائح العطرية :

وكذلك كان هؤلاء الناس يقبلون إقبالا عظيما على الروائح العطرية وقد روى ابن زولاق أن الحسين ابن أبى زرعة قاضى مصر كان يبالغ فى التطيب كما أن الأخشيد كان يحب العنبر ويجمع منه مقادير كبيرة[٤] .

غرام بعضهم بهوايات عجيبة :

وقد بالغ بعضهم مبالغة شديدة فى حياة الترف وقد قيل[٥] إن « الوزير جعفر بن الفضل بن الفرات المعروف بابن حنزابة [ كان ] يهوى النظر إلى الحشرات من الأفاعى والحيات والعقارب وأم أربعة وأربعين وما يجرى

(١) سيدة الكاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ص ٢٦٠ — ٢٦١ .

(٢) شرحه ص ٢٥٦ .

(٣) شرحه ص ٢٦٢ .

(٤) شرحه ص ٢٦٢ .

(٥) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣١٩ .

هذا المجرى . . . وكان فى داره قاعة لطيفة مزدحمة فيها سلل الحيات ولها قيم فراش حاو من الحواة ومعه مستخدمون برسم الخدمة ونقل السلل وحطها . وكان كل حاو فى مصر وأعمالها يصيد له ما يقدر عليه من الحيات ويتباهون فى ذوات العجب من أجناسها وفى الكبار وفى الغريبة المنظر . وكان الوزير يثيبهم فى ذلك أوفى الثواب ويبذل لهم الجزيل حتى يجتهدوا فى تحصيلها . وكان له وقت يجلس فيه على دكة مرتفعة ويدخل المستخدمون والحواة فيخرجون ما فى السلل ويطرحونه فى ذلك الرخام ويحرشون بين الهوام وهو يتعجب من ذلك ويستحسنه » .

ويبدو أن أفراد هذه الطبقة كانت لهم امتيازات حتى بعد موتهم وقد قيل إن وجوه القوم وعلماءهم كانوا يدفنون فى دورهم ثم ينقلون بعد فترة من الزمن إلى المقبرة[١] .

٢ — طبقة الشعب : تدينها وأثره فى تدين الأخشيديين :

هذه الطبقة تشمل غالبية المصريين وكانت كعهدنا بها فى كل العصور فقيرة ضعيفة الأثر فى سير الحوادث السياسية . ويبدو أن النزعة الدينية فى مصر فى هذا العصر وفى القرن الرابع كله كانت قوية عند هذه الطبقة إلى حد أن الأمراء كانوا لا يستطيعون إهمالها[٢] ، وأن قوة هذه النزعة الدينية أثرت على الأمراء الإخشيديين واضطرتهم أن يظهروا بمظهر المتدينين الصالحين . وقد قيل إن الإخشيد كان يصلى كثيراً وكانت أكثر صلاته فى جامع ابن طولون اللهم إلا صلاة الجمعة وصلوات رجب وشعبان ورمضان فإنه كان يصليها فى الجامع العتيق . وكان من عادته أن يركب ليلة الختم إلى الجامع ليحضر الختم والدعاء وكان يظهر حبه لقراءة القرآن ويبكى عند

---

(١) سيدة الكاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ص ٢٦٩ .

(٢) شرحه ص ٢٥٤ .

سماعها[١] . كما قيل أيضاً إنه أمر فى وقت من الأوقات بهدم المواخير ودور القمار والقبض على من فيها من المقامرين[٢] . كما قيل إن كافور كان يهتم بقضاء حاجات الرعيـة وكان يداوم الجلوس صباحا ومساء لقضـاء تلك الحاجات كما كان يتهجد ويمرغ وجهه ساجداً ويقول : اللهم لا تسلط على مخلوقا[٣] . وكذلك كان يرسل كل ليلة عيد حمل بغل من المـال فى صرر مكتوب على كل صرة إسم من جعلت له من بين عالم وزاهد وفقير ومحتاج[٤] . وكذلك قيل إن أبا الفوارس أحمد بن على الأخشيد عمل على تعطيل المواخير[٥] .

**اعتقادها فى الخرافات :**

وفضلا عن تدين طبقة الشعب فإنها كانت أيضاً تعتقد فى الخرافات فى العصر الإخشيدى . ومن ذلك أنه فى سنة ٣٣١ هـ ( ٩٤٢ م ) ، ورد الخبر من دمياط إلى مصر بأن رجلا أقطع اليد قديماً ممن قد أخذ مع قوم اتهموا بقطع الطريق غاب عن البلد زماناً ثم عاد ويده صحيحة . وقد ادعى أنها كانت مقطوعة وأنها كانت عند أهله وقال إنه كان فى مسجد يتعبد فيه وإن يده عادت صحيحة فافتتن الناس به وكثر القول فيه . فوجه الإخشيد من أحضره إلى داره وسأله عن قصته فقال : رأيت فى النوم كأن سقف المسجد قد انفتح ونزل إلىّ منه ثلاثة أنفس : النبي وجبريل وعلى عليهم السلام ، فسألت النبي صلى الله عليه وسلم رد يدى فردها إلىّ وانتبهت وقد عادت . وورد من دمياط كتاب بأن جماعة من المستورين رأوه مقطوع اليد فأوصله الإخشيد إليه

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٣٤ — ٣٧ .

(٢) شرحه ص ٣٠ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٦ .

(٤) ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب جـ ٣ ص ٢٢ .

(٥) الكندى : الولاة والقضاء ص ٢٩٧ .

وأكبره واستعظم قدرة الله تعالى فيه ثم قيل إن هذا داس وكذب وزالت الفتنة والله أعلم »[١] . ومن ذلك أيضاً ما روى عن زاهد ورع اسمه أبو سهل الصدفى توفى سنة ٣٣١ هـ وكان الأخشيد يجله ويتبرك بدعائه فقد قيل على لسان الفرغانى المتوفى سنة ٣٦٢ هـ أنه قال : « حدثنى أبو سهل بن يونس فى مسجده سنة ٣٣٠ هـ قال : قدم علينا شيخ كبير راهب كان بميافارقين فحدثنا أنه كان مترهباً فى شبابه فى صومعة بميافارقين وأنه أشرف فى يوم كثير الضباب فنظر إلى طائر قد سقط بحيث يراه وفى فمه قطعة لحم فتركها ثم طار فأتى بأخرى ثم أخرى إلى أن أتى بعدة قطع ثم أن قطع اللحم اجتمعت حتى صارت شخص رجل . ثم أقبل الطائر عليه ينقره ويقطعه وهو يستغيث قال الراهب : فلما نظرت إليه صحت به وقلت له : ما قصتك يا إنسان ؟ وما الذى أرى بك ؟ قال : أنا عبد الرحمن بن ملجم قاتل على بن أبى طالب صلوات الله عليه ، قد وكل الله بى هذا الطائر ، يفعل بى ما ترى ، وينقلنى من موضع إلى موضع ، قال الفرغانى : قال أبو سهل : قال لنا الراهب : فلما نظرت منه ما رأيت إنحدرت من الصومعة فأسلمت »[٢] .

وليس أدل على انتشار الخرافات بين عامة الشعب فى ذلك العصر مما كان منتشراً بينهم عن الآثار القديمة . وقد كتب لنا المسعودى الذى زار مصر فى ذلك العصر شيئاً كثيراً عن تلك الآثار ولا شك أنه نقل ما رواه عن عامة الشعب . ومما قاله إن إحدى ملكات مصر القديمة « ملكت مصر ثلاثين سنة ، واتخذت بمصر البرابى والصور وأحكمت آلات السحر وجعلت فى البرابى[٣] صور من يرد من كل ناحية ودوابهم إبلا كانت أم خيلا وصورت من يرد فى البحر من المراكب من بحر المغرب والشام .

---

(١) متز : الحضارة الإسلامية جـ ١ ص ٥٤ .

(٢) متز : الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ١١٥ — ١١٦ .

(٣) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٩٩ الهامش جاء به البرابى جمع بربى كلمة قبطية معناها المعبد .

وجمعت فى هذه البرابى العظيمة المشيدة البنيان أسرار الطبيعة وخواص الأحجار والنبات والحيوان . وجعلت ذلك فى أوقات حركات فلكية واتصالها بالمؤثرات العلوية . فكانوا إذا ورد إليهم جيش من نحو الحجاز واليمن عورت تلك الصورة التى فى البرابى من الإبل وغيرها فيتعور ما فى ذلك الجيش وينقطع عن مصر أذى جنده . وإذا كان الجيش من جهة الشام أتلفوا الصور التى تمثل أهل هذا القطر فينكب هذا الجيش وتنجو مصر من أذاه » [1] .

احتفال العامة بالأعياد :

وقد كان العامة كعهدنا بهم فى كل عهد يهتمون بالأعياد ويحتفلون بها . ومن الأعياد العامة التى كان المصريون يحتفلون بها فى العصر الأخشيدى على اختلاف طوائفهم فتح الخليج . وكانت الحكومة تشترك فى إحيائه . وكذلك النوروز القبطى وهو أول السنة القبطية ، ويبدو أن الاحتفال بهذا العيد كان يتميز بإيقاد النيران وصب الماء فى الطرق [2] . وكذلك عيد الغطاس . وقد زار المسعودى مصر فى هذا العصر وشاهد احتفال المصريين بهذا العيد ووصفه وصفاً رائعاً فى كتابه مروج الذهب وهذا ما قاله عنه [3] : « ولليلة الغطاس بمصر شأن عظيم عند أهلها لاينام الناس فيها . وهى ليلة إحدى عشرة تمضى من طوبة وستة من كانون الثانى . ولقد حضرت سنة ثلاثين وثلثمائة ليلة الغطاس بمصر والأخشيد محمد ابن طغج فى داره المعروفة بالمختارة فى الجزيرة الراكبة للنيل . والنيل مطيف بها . وقد أمر فأسرج من جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٩٩ — ٤٠٠ .

(٢) سيدة الكاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ص ٢٥٣ .

(٣) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٦٤ .

غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع . وقد حضر النيل فى تلك الليلة مئو آلاف من الناس المسلمين والنصارى منهم فى الزوارق ومنهم فى الدور الدانية من النيل ومنهم على الشطوط لايتناكرون . ويحضرون كل مايمكنهم إظهاره من المآكل والمشارب والملابس وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهى والعزف والقذف . وهى أحسن ليلة تكون بمصر وأشملها سروراً ولا تغلق فيها الدروب . ويغطس أكثرهم فى النيل ويزعمون أن فى ذلك أمان من المرض ومبرىء من الداء » .

٣ — أهل الذمة :

كان أهل الذمة أى اليهود والنصارى فى العصر الأخشيدى يتمتعون بالحرية الدينية والطمأنينة ، ويمتلكون كثيراً من الأموال لأنهم كانوا يشتغلون بالأعمال التى تدر الربح الكثير مثل الطب والتجارة وأعمال الصيارفة [١] ولأن السياسة التى وضعها الأخشيد كانت تقوم على أن جميع طوائف الرعية متساوون ويجب أن توفر لهم جميعاً سبل المعيشة والخير . ويتضح هذا الأمر من الكتاب الذى بعث به إلى رومانوس صاحب الأمر فى الدولة البيزنطية فى عهده . فقد جاء فيه مايأتى : « وسياستنا لهذه الممالك قريبها وبعيدها على عظمها وسعتها بفضل الله علينا وإحسانه إلينا ومعونته لنا وتوفيقه إيانا كما كتبت إلينا وصح عندك من حسن السيرة وبما يؤلف بين قلوب سائر الطبقات من الأولياء والرعية ويجمعهم على الطاعة واجتماع الكلمة ويوسعها الأمن والدعة فى المعيشة ويكسبها المودة والمحبة » [٢] . وقد كان لأهل الذمة قضاؤهم الكنسى الخاص بهم كما كان الأقباط منهم يحتفلون بأعيادهم مثل عيد الميلاد فى التاسع والعشرين من شهر كيهك وخميس العهد — أو خميس العدس كما كان العامة يقولون — وذلك قبل

---

(١) سيدة الكاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ص ٢٣٩ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٧ ص ١٤ .

عيد الفصح بثلاثة أيام [١] ، وكانت العلاقات بينهم وبين المسلمين حسنة في أغلب الأحيان . على أن تلك العلاقات كانت تسوء أحياناً وبخاصة عند ما كانت الأخبار تصل إلى مصر بأن البيزنطيين هزموا المسلمين في الشام أو في غيرها من الأماكن . وقد جاء في بعض المراجع [٢] أن العامة في مصر هاجوا وخربوا الكنائس حين ورد الخبر بأن البيزنطيين دخلوا الشام سنة ٣٤٩ هـ ( ٩٦٠ م ) وقتلوا وخربوا . كما أنهم ثاروا وخربوا إحدى الكنائس في مصر القديمة حين ورد الخبر سنة ٣٥٠ هـ بأن الامبراطور نقفور غزا جزيرة اقريطش وخرب ما فيها من المساجد وسبى من أهلها خلقاً كثيراً . وكانت هذه العلاقات تسوء أيضاً عند ما يرى المسلمون أن أهل الذمة قد سيطروا على الشئون المالية في البلاد ويعملون على وضع حد لهذه السيطرة أو عند ما يحتجون على السماح للأقباط بتعمير الكنائس [٣] .

٤ — طبقة الأرقاء :

كان الأرقاء كثيرين في مصر في العصر الأخشيدي . ويدل على ذلك ما ذكر من أن الوزير محمد بن علي الماذرائي وحده أعتق في حياته مائة ألف مملوك تقرباً إلى الله [٤] وقد قيل إن مصر كانت من أعظم أسواق الرقيق الأسود وكانت القوافل تجلب إليها العبيد من الجنوب ، وكان الرقيق الأبيض يصل إلى أسواقها من بيزنطة وأرمينية وثغور البحر الأبيض المتوسط ومن أسواق الرقيق في سائر ديار الاسلام ، وكان تجار اليهود يستأثرون بجلب الغلمان والجواري من أوربا [٥] .

---

(١) سيدة الكاشف : مصر في عصر الأخشيديين ص ٢٣٩ ، ٢٥٢ .
(٢) تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي ص ١١٦ — ١١٧ .
(٣) مصر في عصر الأخشيديين ص ٢٤٠ .
(٤) حسن المحاضرة للسيوطي ج ١ ص ١٥٦ ، ابن سعيد : المغرب ص ١٦٢ .
(٥) متز : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٣١٥ .

وقد كان بعض هؤلاء الأرقاء يعتقون ويصلون إلى أعلى المناصب فى الجيش الأخشيدى أو فى الإدارة الحكومية . وقد رأينا فيما سبق كيف ارتقى كافور الأخشيدى حتى وصل إلى إمرة مصر كما سمعنا عن كثير من الغلمان والجوارى فى بلاط الأخشيديين . وهؤلاء بلاشك كانوا ينخرطون فى سلك الجيش الأخشيدى كما كانوا يصلون إلى الوظائف الرئيسية فى الإدارة وكان لبعضهم سلطان كبير على سادتهم[1] .

أما الأرقاء الذين كانوا يجلبون ويباعون فى داخل البلاد فكانوا يعملون فى الزراعة ويظلون عبيداً طول حياتهم .

(١) سيدة الكاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ص ٢٤٣ .

# الفصل السادس

## المنشـئات

**عمران الفسطاط وضواحيها :**

ينتشر العمران وتكثر المنشئات حين تنتعش الحالة الاقتصادية ويكثر المال فى يد الحكام والمحكومين . وفى مصر فى عهد الأخشيديين كثرت الثروة فى يد الأمراء الحاكمين وفى يد الطبقة العليا من السكان ولذلك فنحن لا نعجب حين نسمع عن كثرة المبانى والمنشئات الهامة فى العاصمة وفيما جاورها بوجه خاص . وخير شاهد على ذلك ما كتبه ابن حوقل فى أوائل العهد الفاطمى عن الفسطاط وجزيرة الروضة والجيزة فإنه بدون شك يصور حالة تلك الجهات فى أواخر العصر الأخشيدى الذى نتكلم عنه وما كانت تزدان به من المبانى الضخمة والمنشئات الحسنة وهو يقول[1] عن الفسطاط إنها « مدينة حسنة ينقسم النيل عندها قسمين فيعدى من أحدهما إلى الآخر فعدوة أولى فيها أبنية حسنة ومساكن جليلة تعرف بالجزيرة يعبر إليها بجسر فيه نحو ثلاثين سفينة . ويعبر من هذه الجزيرة على جسر فيه آخر إلى القسم الثانى إلى أبنية جليلة ومساكن على الشط الثالث تعرف بالجيزة . والفسطاط مدينة كبيرة نحو ثلث بغداد ومقدارها نحو فرسخ على غاية العمارة والخصب والطيبة واللذة ذات رحاب فى محالها وأسواق عظام ومتاجر فخام . . . وبساتين نضرة . والدار يكون بها ست وسبع وخمس طبقات وربما سكن فى الدار المائتان من الناس » .

ونحن عندما نستعرض المنشئات فى ذلك العهد نجدها تنقسم إلى قسمين

---

(١) ابن حوقل : المسالك والممالك ص ٩٦ .

أحدهما المنشئات العامة التى تقام لمصلحة الناس جميعاً وثانيهما المنشئات الخاصة التى تكون لمصلحة شخص أو أشخاص . والقسم الأول يضم المساجد والمستشفيات والسبل والحمامات والقسم الثانى يشمل الدور والقصور والأضراحة الخاصة وما إليها .

المساجد :

ومن أهم المساجد التى أقيمت فى ذلك العهد مسجد الفقاعى الذى شيده كافور الإخشيدى فى سفح جبل المقطم[1] . ومسجد الجيزة الذى كان الفضل فى بنائه لكافور أيضاً ويقال إن أهل الجيزة علموا أن الفضاء الذى شيد فيه هذا المسجد كان يراد أن تقام فيه حوانيت وغير ذلك من عمائر الاستغلال ولكنهم كانوا يريدون فيه مسجداً فكلموا كافور فى الأمر وتم لهم بناء المسجد وذلك فى ولاية أبى الحسن على بن الإخشيد[2] . ومسجد موسى الذى بناه الوزير أبو الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات فى سفح جبل المقطم فى المنطقة نفسها التى بنى فيها مسجد الفقاعى على يد كافور[3] .

المستشفيات :

ومن المستشفيات التى أقيمت فى ذلك العهد المارستان الذى ينسب أمر بنائه إلى الأخشيد ويعرف باسم المارستان الأسفل تميزاً له عن المارستان الطولونى[4] . ويبدو أن الأخشيد أنشأ قيساريات ( أسواق ) وحوانيت ودوراً وحبس دخلها على هذا المارستان[5] . وهذا يدل على أن الأخشيد

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٤٥٦ .

(٢) ابن دقاق : الانتصار ج ٤ ص ١٢٧ .

(٣) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٤٥٦ وابن الزيات : الكواكب السيارة ١٤ .

(٤) ابن دقاق : الانتصار ج ٤ ص ٩٩ .

(٥) شرحه .

سار سيرة أحمد بن طولون واهتم بإنشاء المستشفيات التى كان يعالج فيها الناس من أمراضهم .

القيساريات :

ومن القيساريات التى أنشئت فى هـذا العهـد القيسارية التى أنشأها الأخشيد سنة ٣٣٠ هـ لبيع المنسوجات فى سوق كان يعرف باسم سوق الحمام[١] .

السقايات السبع :

ومن قبيل السبل التى سنراها تبنى بكثرة فى العهود التالية فى مصر السبع سقايات التى شيدها فى العصر الإخشيدى الوزير جعفر بن الفرات لسكان الفسطاط حين أصبحوا يحتاجون فى موسم الجفاف إلى جلب المـاء من منطقة جزيرة الروضة بسبب جفاف الخلجان وانحسار مياه النيل إلى تلك المنطقة[٢] ويقال إن هـذا الوزير حفر بئراً لينقل منها الماء إلى السقيات السبع وحبسها (أوقفها) والبئر لجميع المسلمين ونقش عليها نص هذه الوقفية وقد أورده المقريزى فى الخطط[٣] عند ما تكلم على هذه البئر التى سماها بئر الوطاويط لأنها كانت قد بنى فوقها وتولد فيها كثير من الوطاويط كما أن السقايات كانت قد خربت . وهذا هو النص .

« بسم الله الرحمن الرحيم . لله الأمر من قبل ومن بعد وله الشكر وله الحمد ومنه المن على عبده جعفر بن الفضل بن جعفر بن الفرات وما وفقه له من البناء لهذه البئر وجريانها إلى السبع سقايات التى أنشأها وحبسها لجميع المسلمين وحبسه وسبله وقفاً مؤبداً لا يحل تغييره ولا العدل بشىء من مائه

(١) الـكندى : الولاة والقضاة ص ٥٦٢ .

(٢) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٤٤ .

(٣) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٣٥ وابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ٤٠ .

ولا ينقل ولا يبطل ولا يساق إلا إلى حيث مجراه إلى السقايات المسبلة فمن بدله من بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم وذلك فى سنة خمس وخمسين وثلثمائة وصلى الله على نبيه محمد وآله وسلم » .

الحمامات :

وقد كانت الحمامات العامة موجودة فى مصر فى العصر الأخشيدى وكان الغنى يستطيع أن يستأجر الحمام كله فيخلى له ولا يسمح بدخول غيره إلى أن يغادره . وكانت سرقة الثياب من الحمامات أمراً شائعاً حتى قيل « دعوتان مغفول عنهما عند دخول الحمام : سلمك الله من الزلق وحرس ثيابك من السرق » .

القصور والبساتين :

أما الدور والقصور وما يلحق بها من البساتين التى أقيمت فى العصر الأخشيدى فكثيرة ورائعة وقد أقام بعضها الأمراء الأخشيديون وأقام بعضها الآخر كبار رجال الدولة .

قصر المختار :

ومن أهم هذه القصور قصر المختار والبستان الملحق به وقد شيده الأخشيد فى جزيرة الروضة سنة ٣٢٥ ﻫ . ويقال إن الأخشيد عندما أراد بناءه قال لصالح بن نافع أحد رجال دولته إنه أراد منذ حصل على ولاية مصر أن ينقل دار الصناعة من جزيرة الروضة وأن يجعل موضعها بستاناً يسميه المختار ثم أمره أن يخرج إلى الجزيرة ليعد مشروع هذا البستان مع دار كبيرة تقام فيه وأن يقدر ما يلزم لذلك من النفقات . فخرج صالح ابن نافع مع بعض من لهم دراية بمثل هذه الأمور ووضعوا تصميم البستان والقصر وألحقوا بهما داراً للحرس وداراً للغلمان وخزائن للطعام والملابس والفرش وما إلى ذلك . وعرضوا هذا التصميم فى رقعة كبيرة على الورق على الأخشيد فأعجب به وسأل عن نفقاته فقيل له : ثلاثون ألف دينار .

فاعترض الأخشيد على إنفاق هذا المال الكثير وقال إنه يريد الاقتصاد فى نفقات هذا المشروع وما زال بهم حتى انخفض رقم المال اللازم إلى خمسة آلاف دينار. ومع ذلك فإن الأخشيد الحريص على المال أصر على أن تجمع هذه النفقات من تبرع رجال حاشيته ومن إليهم من القادرين على الدفع. فأخذ صالح بن نافع ورقة وبدأ قائمة التبرعات وسجل على نفسه التبرع بثلاثمائة دينار وتبعه غيره حتى جمع لهذا المشروع ستة آلاف دينار. وأشرف على تنفيذه المهندسان زقازق وابن أبى الرداد. وكان الأخشيد بعد ذلك يفاخر أهل العراق بهذا البستان [١].

البستان الكافورى :

وينسب إلى الأخشيد أنه أنشأ أيضاً بستاناً عظيما شمالى الفسطاط عرف فيما بعد باسم البستان الكافورى [٢]. وأنه جعل له أبواباً من حديد وكان ينزل به ويقيم فيه أياماً كاملة. وجاء بعده إبناه أبو القاسم أنوجور وأبو الحسن على فعنيا به عناية كبيرة. وكذلك كان كافور كثيراً ماينتزه به. وعندما قدم جوهر الصقلى قائد المعز لدين الله الفاطمى نزل بجواره ثم أصبح هذا البستان جزءا من القاهرة واتخذه الخلفاء الفاطميون متنزهاً لهم [٣]. ويقول على باشا مبارك عن هذا البستان « وكان هذا البستان فى شرقى الخليج محله اليوم فيما بين جامع الشعرانى والسكة الجديدة قريباً من قنطرة الموسكى ممتدا فى الجهة الشرقية إلى النحاسين وكانت مساحته تبلغ ستة وثلاثين فداناً بمقياسنا اليوم، وبجانبه من الجهة القبلية ميدان الأخشيد ومحله الآن من بر الخليج الشرقى إلى شارع السكرية والغورية [٤].

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ١٣ — ١٤.

(٢) المقريزى : جـ ٢ ص ٢٥ .

(٣) المقريزى الخطط جـ ١ ص ٤٥٧ .

(٤) على مبارك : الخطط التوفيقية جـ ١ ص ٤ .

**دار الفيل :**

ومن القصور التي بناها الأمراء الأخشيديون أيضاً قصر كبير يسمى دار الفيل وقد بناه كافور وسكنه من سنة ٣٤٦ ﻫ إلى أن توفى سنة ٣٥٧ ﻫ ويقال إنه سمى بهذا الإسم لأنه كان يضم عدداً من الفيلة[١] .

**دار التبر ودار حنزابه :**

أما القصور التي بناها كبار رجال الدولة فى العهد الأخشيدى فمنها دار التبر التي بناها الوزير أبو بكر محمد بن على الماذرائى ووقفها على ولده وبعد انقراض عقبه على الفقراء والمساكين بمدينة الرسول[٢] ، ومنها دار حنزابه التي بناها الوزير أبو الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات[٣] .

**مشهد آل طباطبا :**

وأما الأضرحة الخاصة التي بنيت فى ذلك العهد فمنها مشهد آل طباطبا وترجع أهميته إلى أنه يضم رفات عدد كبير من أفراد هذه الأسرة الشيعية الكبيرة نساءاً ورجالا[٤] ، وإلى أنه هو الأثر الوحيد من آثار الدولة الأخشيدية التي لازالت بقاياه موجودة حتى الآن فى حين أن جميع آثار هذه الأسرة التي ذكرناها فيما سبق قد عفى عليها الزمان ولم يبق ما يدل عليها إلا ما ورد عنها فى الكتب التاريخية . وهو يرجع الى سنة ٣٣٤ ﻫ ( ٩٤٣ م ) ويقع على بعد خمسمائة متر غربى ضريح الإمام الشافعى ونحو

---

(١) ابن دقاق : الانتصار ج ٤ ص ١٢٥ والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٣١ .

(٢) ابن دقاق : الانتصار ج ٤ ص ٩ .

(٣) شرحه . ص ١٠ .

(٤) ابن الزيات : الكواكب السيارة ص ٥٩ — ٦٣ .

مائتين وثلاثين متراً شمالى حمامات عين الصيرة بالقاهرة . ويتألف من مساحة من الأرض شكلها غير منتظم وطولها نحو ثلاثين متراً وعرضها نحو عشرين متراً وفى طرفها الجنوبى قبتان ويحيط بها جدار وتضم عدداً من القبور . ولكن كثيراً من المبانى القائمة فى هذا المشهد حديثة العهد . فلا يكاد يعنينا منها إلا بقايا دعائم صليبية الشكل ومبنية من الطوب القديم وترجع إلى عهد تشييده ويدل وضعها على أنها كانت تقسم المشهد كله إلى تسعة أجزاء مربعة الشكل وكانت تحمل اثنى عشر عموداً »[1] .

جوسق الماذرائيين :

ومن قبيل الأضرحة الخاصة جوسق الماذرائيين الذى شيده الوزير أبو بكر محمد بن على الماذرائى فى القرافة على هيئة الكعبة . وكان الناس يجتمعون عنده فى الأعياد ويوقد كله فى ليلة النصف من شعبان ويجتمع القراء حوله لقراءة القرآن [2] . وقد أشرنا إليه فيما سبق عند ما تكلمنا على غنى الماذرائيين وعظم شأنهم .

---

(١) سيدة الكاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ص ٢٨٥ .

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٤٥٣ .

# الفصل السابع

## الحالة العلمية والأدبية

**الفقهاء الشافعية والمالكية قبيل العهد الأخشيدي :**

لم يقف تيار العلم والأدب بعد زوال الدولة الطولونية من مصر بل ظل سائراً فى طريقه لا يلوى على شىء . ونحن نسمع عن فقهاء شافعية ومالكية عاشوا فى تلك الفترة فى مصر وكان لهم نشاط على مرموق . ومن هؤلاء الفقيه الشافعى عبد الله بن محمد بن جعفر القزوينى أبو القاسم الذى سكن مصر وأخذ عن يونس بن عبد الأعلى والربيع بن سليمان المرادى وكانت له حلقة للفتوى والرواية . وقد توفى سنة ٣١٥ هـ ونقل عنه الرافعى[١] . ومنهم الفقيه الشافعى أبو بكر محمد بن على المصرى المعروف بالعسكرى نسبة إلى حارة من مدينة مصر تسمى بالعسكر نزلها عسكر صالح بن على العباسى عندما جاء إلى مصر ، وقد قال عنه ابن يونس إنه كان مختار أهل العسكر ومفتيهم ، وقد روى عن يونس بن عبد الأعلى والربيع بن سليمان ، ومات يوم الأربعاء سابع ربيع الأول سنة ٣١٧ هـ[٢] . ومنهم الفقيه الشافعى أبو على الروزبارى محمد بن أحمد بن القاسم البغدادى الزاهد ، وكان قد نزل مصر وأصبح شيخها ، ويقال إنه صحب الجنيد ، وكان إماماً مفتياً ورد عنه أنه قال أستاذى فى التصوف الجنيد ، وفى الحديث إبراهيم الحربى ، وفى الفقه ابن سريج ، وفى الأدب ثعلب . وكانت وفاته بمصر

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٦٨ .

(٢) شرحه .

سنة ٣٢٢ هـ[1] . ومنهم الفقيه المالكى محمد بن أحمد بن أبى يوسف أبو بكر ابن الخلال . وقد درس بجامع مصر وأخذ عنه الناس وألف ومات سنة ٣٢٢ هـ[2] . ومنهم الزاهد العابد أبو الحسن على بن محمد بن سهل الدينورى ، وقد قيل عنه إنه كان أحد المشايخ الكبار وتوفى بمصر فى رجب سنة ٣٣١ هـ . ومن كلامه من أيقن أنه لغيره فما له أن يبخل بنفسه ، وقد حكى صاحب المرآة أنه أنكر على تكين أمير مصر أشياء وكان تكين ظالما فسيره إلى القدس . فلما وصل إلى القدس قال كأنى بالبائس يعنى تكين وقد جىء به فى تابوت إلى هنا فإذا دنا من الباب عثر البغل ووقع التابوت فبال عليه البغل . فلم يلبث إلا مدة يسيرة وإذا بقائل يقول قد وصل تكين وهو ميت فى تابوت فلما وصل إلى الباب عثر البغل فى المكان الذى أشار إليه الدينورى فوقع التابوت وغفل عنه المكارى فبال عليه البغل ، وخرج الدينورى فقال للتابوت جئت بالبائس إلى المكان الذى نفانا إليه . ثم ركب الدينورى وعاد إلى مصر ، فمات بها ودفن بالقرافة[3] .

### تشجيع الأخشيديين للعلماء والأدباء :

ولما حكم الأخشيديون فى مصر ازداد تيار العلم والأدب قوة وتدفقاً . وذلك لأن الأمراء الأخشيديين وكبار رجال دولتهم كانوا يعطفون على العلماء والأدباء ويسدون إليهم كثيراً من الأيادى . وقد روى أن الأخشيد أعجب بعلم أحد الفقهاء فولاه على سواحل مصر[4] . كما روى أن كافوراً أمر بعشرين ألف دينار لتفرق على فقهاء الشافعية عند ما علم أن الخليفة

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٦٨ .

(٢) شرحه جـ ١ ص ١٩١ .

(٣) حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢١٩ .

(٤) ابن سعيد : المغرب ص ٣٠ — ٣١ .

عبد الرحمن الناصر الأندلسى أرسل عشرة آلاف دينار تتفرق على فقهاء المالكية[1] ، وأن الوزير محمد بن على بن مقاتل كان يجرى على سيبويه المصرى مبلغاً من المال فى كل شهر[2] . ولم يقف الأمر عند حد المنح المالية أو المناصب بل تعدى ذلك إلى تقريب هؤلاء الأمراء للعلماء والأدباء ومجالستهم لهم ، وقد قيل إن أنوجور بن الأخشيد كان يجالس سيبويه المصرى وينادمه[3] . كما قيل إن الأمراء الأخشيديين على اختلافهم جالسوا الفقيه أبا بكر بن الحداد ولم تغضبهم صراحته وثقته بنفسه[4] مع أنه كان « طويل اللسان »[5] . وذلك على عكس ما فعله تكين مع الدينورى الزاهد على ما ذكرناه من قبل . وكذلك جالس هؤلاء الأمراء الأخشيديون سيبويه المصرى تلميذ ابن الحداد الذى سنذكره بين الأدباء فيما بعد وتحملوا لاذع نقده ومُر تهكمه . وقد قيل إن سيبويه رأى الناس يوم جمعة قد اجتمعوا فى الطرقات فاكتظت بهم فصاح : ما هذه الأشباح الواقفة ، والتماثيل العاكفة ؟ سلط عليهم قاصفة يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة وتغلى قلوبهم واجفة ! فقال له رجل : هو الأخشيد ينزل إلى الصلاة . فقال : هذا الأصلع البطين المسمن البدين قطع الله منه الوتين ولا سلك به ذات اليمين ! أما كان يكفيه صاحب ولا صاحبان ولا حاجب ولا حاجبان ولا تابع ولا تابعان لا قبل الله له صلاة ولا قرب له زكاة وعمر بجثته الفلاة[6] ولم يذكر أحد أنه عوقب على ذلك . كما قيل إن سيبويه كان

---

(١) ابن الزيات : الكواكب السيارة ص ١٩٠ — ١٩١ .

(٢) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ٣٥ .

(٣) شرحه ص ١٨ ، ٣٦ .

(٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ٥٥١ — ٥٥٧ .

(٥) شرحه ص ٥٥٢ .

(٦) ابن زولاق أخبار سيبويه المصرى ص ٢٨ .

يعلن سخطه على كافور غير هياب ولا وجل[١] ، ولم يذكر أحد أن هذا الأمير اتخذ أى إجراء إيجابى للانتقام منه .

**ميادين النشاط العلمى والأدبى :**

وكان النشاط العلمى والأدبى فى ذلك العصر يظهر بجلاء فى سوق الوراقين الكبير بالفسطاط الذى كان يسعى إليه أهل العلم والأدب ولم يكن مجرد سوق لنسخ الكتب وبيعها[٢] . كما كان يظهر فى بعض المساجد الكبيرة مثل جامع عمرو بن العاص ومسجد ابن عمروس ومسجد عبد الله التى كان يلتقى بها العلماء والفقهاء والأدباء المناظرة وبحث المسائل الفقهية والأدبية[٣] وقد قيل إنه فى سنة ٣٢٦ هـ كان للشافعية فى جامع عمرو خمس عشرة حلقة وللمالكية مثلها ولأصحاب أبى حنيفة ثلاث حلقات[٤] . وقد بلغ من شدة التنافس العلمى بين أصحاب هذه المذاهب أن كان أصحاب مالك والشافعى فى تلك السنة ( ٣٢٦ هـ ) يتقاتلون فى المسجد العتيق ( جامع عمرو )[٥] . وقد قيل إن الأمراء الأخشيديين كانوا يكرهون الشافعية[٦] . على أن هذا القول يحتاج إلى دليل فإننا سبق أن ذكرنا أن كافوراً وزع مبلغاً كبيراً من المال على الشافعية عند ما علم أن الخليفة الأندلسى عبد الرحمن الناصر بعث بمبلغ كبير ليفرق على المالكية . أضف إلى ذلك أننا رأينا للشافعية حلقات بعدد حلقات المالكية فى جامع عمرو بن العاص كما أننا سنرى فيما بعد أنه قد نبغ من فقهاء الشافعية فى هذا العهد عدد كبير لا يقل عن عدد فقهاء المالكية .

---

(١) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ٣٢ و ٤٠ و ٤٦ ..

(٢) شرحه ص ٥١ .

(٣) شرحه ص ٢٢ ، ٢٣ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٥٢ .

(٤) ابن سعيد المغرب ص ٢٤ .

(٥) ابن سعيد : المغرب ص ٢٤ .

(٦) الكندى : الولاة والقضاة ص ٥٥٥ .

١ — العلم :

الفقهاء الشافعية :

ومن الفقهاء الشافعية الذين برزوا فى ذلك العصر أبو عبد الله الحسين ابن أبى زرعة ( + ٣٢٧ هـ ) وقد قيل عنه إنه كان عارفاً بالقضاء كريماً جمع له بين قضاء مصر والشام[١] . ومنهم أبو رجاء محمد بن أحمد بن الربيع الأسوانى ( + ٣٣٥ ) وكان فقيهاً أديباً شاعراً سمع وحدث وألف قصيدة نظم فيها قصص الأنبياء وكتاب المزنى والطب والفلسفة مائة ألف بيت وثلاثين[٢] . ومنهم عبد الرحمن بن سلهويه الرازى ( + ٣٣٩ هـ ) . وقد قال عنه ابن يونس إنه قدم مصر وتفقه بها وأفتى ودرس فى جامعها العتيق[٣] . ومنهم أبو اسحق المروزى إبراهيم بن أحمد ( ٣٤٠ هـ ) « أحد أئمة الدين وأحد أصحاب الوجوه ، تفقه على ابن شريح وكان إماماً جليلا غواصاً على المعانى الدقيقة ، بحراً خضما ورعا زاهداً . انتهت إليه رياسة العلم ببغداد وانتشر الفقه عن أصحابه فى البلاد ، وشرح مختصر المزنى وصنف الأصول ثم انتقل فى آخر عمره إلى مصر سنة القرامطة ، وجلس فى مجلس الشافعى فاجتمع الناس عليه وضربوا إليه أكباد الإبل ، وسار فى الآفاق من مجلسه سبعون إماما من أصحاب الحديث ... »[٤] ، ومنهم أبو بكر ابن الحداد محمد بن أحمد بن جعفر الكنانى المصرى ( + ٣٤٥ هـ ) . وقد قال عنه السيوطى[٥] إنه « عرف وجالس أبا إسحق المروزى لما ورد مصر .. وكان يعرف الأسماء والكنى والنحو واللغة واختلاف الفقهاء وأيام

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٦٨ .

(٢) شرحه ص ١٦٨ .

(٣) شرحه ص ١٦٨ .

(٤) شرحه ص ١٢٥ — ١٢٦ .

(٥) شرحه ص ١٢٦ .

الناس وسير الجاهلية والشعر والنسب . . ولى القضاء بمصر وصنف الباهر فى الفقه فى مائة جزء وكتاب جامع الفقه وكتاب أدب القاضى فى أربعين جزءاً وكتاب المولدات وهو مشهور . ومات فى المحرم وقيل فى صفر سنة أربع ، وقيل خمس وأربعين وثلثمائة ودفن بسفح المقطم » ، كما قال عنه ابن خلكان[1] إنه ولد سنة ٢٦٤ هـ . وكان « فقيهاً محققاً غواصاً على المعانى تولى القضاء بمصر والتدريس ، وكانت الملوك والرعايا تكرمه وتعظمه وتقصده فى الفتاوى والحوادث وكان يقال فى زمنه : عجائب الدنيا ثلاثة : غضب الجلاد ونظافة السماد والرد على ابن الحداد » وإنه حدث عن عبد الرحمن النسائى وإنه صاحب كتاب الفروع فى المذهب « وهو كتاب صغير الحجم كثير الفائدة دقق فى مسائله غاية التدقيق واعتنى بشرحه جماعة من الأئمة الكبار ، شرحه القفال المروزى شرحا متوسطاً ليس بالكبير وشرحه القاضى أبو الطيب الطبرى فى مجلد كبير وشرحه الشيخ أبو على السنجى شرحاً تاماً مستوفى أطال فيه ، وهو أحسن الشروح . وكان ابن الحداد المذكور قد أخذ الفقه عن أبى إسحق المروزى » . وإنه « كان متصرفاً فى علوم كثيرة : من علوم القرآن الكريم والفقه الحديث والشعر وأيام العرب والنحو واللغة ، وغير ذلك . ولم يكن فى زمانه مثله وكان محبباً إلى الخاص والعام ، وحضر جنازته الأمير أبو القاسم أنوجور بن الأخشيد وكافور وجماعة من أهل البلد وله تسع وسبعون سنة وأربعة أشهر ويومان . والحداد . . . كان أحد أجداده يعمل الحديد ويبيعه فنسب إليه » . وقد سبق أن ذكرنا عند كلامنا على القضاء فى العصر الأخشيدى أن ابن الحداد ظل يعمل فى القضاء مدة طويلة نيابة عن غيره ثم تولاه مدة من الزمن إذ فى هذا ما يدل على علمه وثقة أولى الأمر فيه . ومنهم أبو بكر عبد الله بن محمد بن الحسين بن الخصيب بن الصقر الخصيبى الأصبهانى ( + ٣٤٨ هـ ) . وله كتاب فى الفقه يسمى المجالسة ، ولى قضاء دمشق ثم قضاء مصر سنة ٣٤٠ هـ

(١) وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٣٣٦ — ٣٣٧ .

فأقام بها إلى أن توفى[١] . ومنهم أبو بكر محمد بن موسى بن عبد العزيز الكندى المصرى المعروف بابن الجبى نسبة إلى جبة وهو موضع بمصر ويلقب سيبويه . وكان فقيهاً شاعراً فصيحاً أخذ عن ابن الحداد ، وكان يتظاهر بالاعتزال ، ولد سنة ٢٨٤ هـ وتوفى سنة ٣٥٨ هـ فى صفر[٢] . ومنهم أبو العباس أحمد بن محمد الديبلى ( + ٣٧٢ هـ ) نزيل مصر . وكان جيد المعرفة بالمذهب كثير النظر فى كتاب الأم للشافعى صالحاً زاهداً صاحب كرامات كثير العبادات . وكان يرى الجمع بين الصلاتين بعذر المرض . وكانت جنازته شيئاً عجيباً لم يبق بمصر أحد إلا حضرها[٣] . ومنهم أبو الحسن محمد بن على بن سهل النيسابورى أحد أصحاب الوجوه ، أخذ عن أبى اسحق المروزى وصحبه إلى مصر ولازمه إلى أن توفى فانصرف إلى بغداد ودرس بها ثم إلى خراسان ومات بها يوم الأربعاء سادس جمادى الآخرة سنة ٣٨٤ وهو ابن ست وسبعين سنة[٤] .

الفقهاء المالكية :

أما الفقهاء المالكية فقد نبغ منهم فى ذلك العصر هرون بن محمد بن هرون الأسوانى أبو موسى ، وكان فقيهاً على مذهب مالك ، كتب الحديث ومات فى ربيع الأول سنة ٣٢٧ هـ . وكذلك أبو الحسن على بن عبد الله بن أبى مطر المعافرى الاسكندرانى الفقيه قاضى الاسكندرية الذى روى عن ابن أبى الدنيا ومات ٣٣٩ هـ وله مائة سنة . وكذلك محمد بن يحيى بن مهدى التمار الأسوانى أبو الذكر قاضى مصر الذى روى عن المعافى ومحمد بن عمير الأندلسى ومات فى شوال سنة ٣٤٠ هـ[٥] . وكذلك بكر بن محمد بن العلاء

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٦٨ .
(٢) شرحه .
(٣) شرحه ص ١٦٩ .
(٤) شرحه ج ١ ص ١٢٦ .
(٥) شرحه ص ١٩١ .

العلامة أبو الفضل القشيرى البصرى المالكى صاحب التصانيف فى الأصول والفروع الذى روى عن أبى مسلم الكجى ونزل مصر وبها توفى سنة ٢٤٤ هـ[1] وكذلك ابن شعبان أبو إسحاق محمد بن القاسم بن شعبان الذى كان رأس فقهاء المالكية بمصر فى وقته وأحفظهم لمذهب مالك ، وكان شيخ الفتيا حافظ البلد انتهت إليه رياسة المالكية بمصر ، وله تصانيف وأقوال فى المذهب وترجيحات ، مات فى جمادى الأولى سنة ٣٥٥ هـ[2] ، كذلك أبو الطاهر محمد بن عبد الله البغدادى وكان فصيحاً فقيهاً شاعراً إخبارياً حاضر الجواب عزيز الحفظ ولى قضاء واسط ثم قضاء بعض بغداد ثم قضاء دمشق ثم قضاء الديار المصرية واستناب على دمشق وتوفى سنة ٣٦٧ هـ ، وقد قارب التسعين . وكذلك محمد بن سليمان أبو بكر النعالى إمام المالكية بمصر فى وقته أخذ عن ابن شعبان وبكر بن العلاء وعظم شأنه وإليه كانت الرحلة والإمامة بمصر وكانت حلقته فى الجامع تدور على سبعة عشر عموداً من كثرة من يحضرها ومات سنة ٣٨٠ هـ وكذلك أبو القاسم الجوهرى عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد الغافقى المصرى الفقيه المالكى الذى صنف مسند الموطأ ، وكان فقيهاً ورعاً منقبضاً خيراً من أجلة الفقهاء ومات فى رمضان سنة ٣٨١ هـ[3] .

حفاظ الحديث ونقاده :

وفضلا عن هذا فقد ظهر فى مصر فى ذلك العصر جماعة من حفاظ الحديث ونقاده نذكر منهم الحافظ الإمام ابن يونس أبو سعيد عبد الرحمن ابن أحمد بن الإمام يونس بن عبد الأعلى الصدفى المصرى ( + ٣٤٧ هـ ) ، ومولده سنة ٢٨١ هـ ، وقد سمع أباه والنسائى ولم يرحل ولا سمع بغير مصر

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٩١ .
(٢) شرحه ص ١٢٦ .
(٣) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٩١ .

ومع ذلك كان إماماً فى هذا الشأن متيقظاً حافظاً مكثراً خبيراً بأيام الناس وتواريخهم ومات فى جمادى الأولى سنة ٣٤٧ هـ[١] . ومنهم الحافظ الحجة ابن السكن أبو على سعيد بن عثمان بن سعيد بن السكن البغدادى نزيل مصر . وقد ولد سنة ٢٩٤ هـ وسمع أبا القاسم البغوى وابن جوصا ( كذا ) وعنه أخذ عبد الغنى بن سعيد ، وقد عنى بهذا الشأن وصنف الصحيح المنتقى ، ومات فى المحرم سنة ٣٥٣ هـ[٢] . ومنهم حمزة بن محمد بن على بن العباس الكنانى المصرى الحافظ الزاهد العالم أبو القاسم يملى جزء البطاقة عن النسائى وأبى يعلى ، وقد اتفق العلماء على تقدمه فى معرفة الحديث ومات فى ذى الحجة سنة ٣٥٧ هـ[٣] ، ومنهم أيضاً الحافظ الإمام الجوال أبو بكر النقاش محمد بن على بن حسن المصرى نزيل تنيس وقد ولد سنة ٢٨٢ هـ ، وسمع النسائى وأبا على ومات رابع شعبان سنة ٣٦٩ هـ[٤] . ومنهم الحسن ابن رشيق الإمام أبو بكر محمد العسكرى المصرى ، وقد أخذ الحديث عن النسائى وعنه أخذ الدارقطنى وعبد الغنى ، وقال عنه ابن الطحان ما رأيت عالماً أكثر حديثاً منه . ولد فى صفر سنة ٢٨٣ هـ . ومات فى جمادى الآخرة سنة ٣٧٠ هـ[٥] . ومنهم ابن النحاس المصرى الحافظ الإمام أبو العباس أحمد بن محمد بن عيسى الجراح نزيل نيسابور . وقيل عنه إنه كان ذا رحلة واسعة ، سمع أبا القاسم البغوى ومات سنة ٣٧٦ هـ عن خمس وثمانين سنة . ومنهم ابن مسرور الحافظ الجوال أبو الفتح عبد الواحد ابن محمد بن أحمد بن مسرور البلخى ، وقد عاش بمصر ومات فى ذى الحجة سنة ٣٧٨ هـ . ومنهم

---

(١) السيوطى حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٤٧ .

(٢) شرحه ص ١٤٧ .

(٣) شرحه ص ١٤٧ .

(٤) شرحه ص ١٤٨ .

(٥) شرحه ص ١٤٨ .

أحمد بن أبي الليث نصر بن محمد الحافظ أبو العباس النصيبي المصري قيل عنه إنه كان باقعة في الحفظ ومات سنة ٣٨٦ هـ[١] . ومنهم أخيراً ابن خترابة ( كذا وهي تذكر في غيره ابن حنزابة ) الوزير الكامل الحافظ أبو الفضل جعفر بن الوزير أبي الفتح الفضل بن الفرات البغدادي نزيل مصر وزر لكافور وحدث عن محمد بن هرون الحضرمي وغيره ورحل إليه الدارقطني وعزم على التأليف على مسنده . قال السلفي : كان من الحفاظ المتقنين يملي ويروي في حال الوزارة ، عندي من أماليه ومن كلامه على الحديث الدال على حدة فهمه وقوة علمه . وخترابة اسم جدته أم أبيه ، ولد سنة ٣٠٨ هـ ، ومات في ١٣ ربيع الأول سنة ٣٩١ هـ[٢] .

النحاة :

وفضلا عن هذا فقد كان هناك جماعة اهتموا بالنحو ونبغوا فيه ومنهم محمد بن عبد الله بن مسلم الذي كان كما ذكرنا من قبل يعلم أولاد خمارويه النحو وقد حدث عن القاضي بكار وأم بالجامع العتيق ولحق العصر الأخشيدي ولم يمت إلا في يوم السبت ٢٤ ربيع الآخر سنة ٣٣٠ هـ[٣] . ومنهم أيضاً ابن ولاد أبو العباس أحمد بن محمد بن الوليد التميمي المصري مصنف كتاب الانتصار لسيبويه ، وقد قال عنه المبرد في العبر إنه كان شيخ الديار المصرية في العربية مع أبي جعفر النحاس[٤] . كما قال عنه ياقوت[٥] . إنه رحل إلى بغداد وأخذ النحو عن الزجاج وعاد إلى مصر فألف كتاب الانتصار لسيبويه

---

(١) السيوطي : حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٤٨ .

(٢) حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٤٨ .

(٣) شرحه ص ٢٢٨ .

(٤) شرحه ص ٢٢٨ .

(٥) معجم الأدباء جـ ٤ ص ٢٠١ — ٢٠٣ .

وكتاب المقصور والممدود. وكانت وفاته سنة ٣٣٢ هـ . ومنهم أبو جعفر النحاس أحمد بن محمد بن اسماعيل بن يونس المرادى المصرى . وكانت له مؤلفات كثيرة فى النحو وغيره منها كتاب تفسير القرآن الكريم وكتاب إعراب القرآن وكتاب الناسخ والمنسوخ وكتاب فى النحو اسمه التفاحة وكتاب فى الاشتقاق وتفسير أبيات سيبويه ولم يسبق إلى مثله وكتاب أدب الكتاب ، وكتاب الكافى فى النحو ، وكتاب المعانى وفسر عشرة دواوين وأملاها وكتاب الوقف والابتداء صغرى وكبرى وكتاب فى شرح المعلقات السبع ، وكتاب طبقات الشعراء وغير ذلك ، وروى عن أبى عبد الرحمن النسائى وأبى إسحق الزجاج وابن الأنبارى ونفطويه وأعيان أدباء العراق وكان قد رحل إليهم من مصر . وتوفى بمصر يوم السبت الخامس من ذى الحجة سنة ٣٣٨ هـ . وكان سبب وفاته أنه جلس على درج المقياس على شاطىء النيل وهو فى أيام زيادته وهو يقطع بالعروض شيئاً من الشعر فقال بعض العوام : هذا يسحر النيل حتى لا يزيد فتغلو الأسعار فدفعه برجله فى النيل فلم يوقف له على خبر[1] . ومنهم أيضاً ابن الجبى محمد بن موسى بن عبد العزيز الكندى المصرى أحد أئمة النحو وكان يلقب بسيبويه لاعتنائه بذلك وقد توفى فى صفر سنة ٣٥٨ وكان مولده سنة ٢٤٨ هـ[2] .

**القصاص :**

وكان فى مصر فى ذلك العصر أيضاً جماعة من القصاص منهم أبو الحسن على بن محمد أحمد بن الحسن البغدادى المصرى الذى ارتحل إلى مصر وأقام بها حتى عرف بالمصرى . وقد روى عنه الدارقطنى وغيره وكان له مجلس وعظ عظيم وقال فى العبر كان مقدم زمانه فى الوعظ وله مصنفات

(١) السيوطى جـ ١ ص ٢٢٨ وابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ٨٢ — ٨٣ .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٢٨ .

كثيرة فى الحديث والوعظ (القصص) والزهد ومات فى ذى القعدة ٣٣٨ هـ . وله سبع وثمانون سنة[١] . ومنهم أيضاً أئمة جامع عمرو فى ذلك العصر وهم عمر بن الحسن الهاشمى الذى ولى القضاء فترة من الزمن بعد أن كان إماماً لجامع عمرو وسليمان بن محمد بن رستم ويبدو أنه كان واسع السلطان فى الشئون القضائية والدينية فى عهده والحسن بن موسى الخياط[٢] .

**المؤرخون :**

أما المؤرخون فى هذا العصر الأخشيدى فكان لهم شأن عظيم وقد ذكر منهم الحسن بن القاسم بن جعفر بن دحية أبو على الدمشقى ( + ٣٢٧ هـ ) وهو من أبناء المحدثين وقال عنه ابن كثير إنه كان إخبارياً له مصنفات فى ذلك وحدث عن العباس بن الوليد السدوسى وغيره ومات بمصر سنة ٣٢٧هـ وقد أناف على الثمانين[٣] . وذكر منهم أيضاً أبو عمر الكندى محمد بن يوسف ابن يعقوب بن حفص بن يوسف التجيبى وقد ولد سنة ٢٨٣ هـ وتوفى سنة ٣٥٠ هـ ودرس العلوم الدينية ولا سيما الحديث وانصرف إلى التاريخ وألف فيه عدة كتب لم يصل إلينا معظمها ، ولكنها كانت أساساً لكتب أخرى ألفت فى موضوعها فيما بعد . وقد ذكر المقريزى فى مقدمة كتابه الخطط أن أول من رتب خطط مصر وآثارها وذكر أسبابها فى ديوان جمعه هو أبو عمر محمد بن يوسف الكندى . كما أن أبا صالح الارمنى أشار فى كتابه كنائس وديور القاهرة إلى كتاب خطط مصر للكندى . ونقل ابن دقماق (+٨٠٩هـ) فى كتابه الانتصار لواسطة عقد الأمصار أخباراً عن الكندى يرجح أنها من كتاب الخطط وأنها تتصل بالفسطاط وخرائبها وأزقتها .. ويبدو أن

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٣٧ .

(٢) سيدة الكاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ص ١٩٧ .

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٣٨ .

الكندى ألف كتاباً عن جامع عمرو سماه « أخبار مسجد أهل الراية الأعظم » وكتاب الموالى تحدث فيه عن الموالى الذين ارتقوا فى مصر ونالوا المراتب العالية فترجم لهم وكتب أخبارهم وكذلك ألف كتباً أخرى . على أن أهم مؤلفاته كتاب الولاة وكتاب القضاة الذى نشره المستشرق الإنجليزى جست ويعتبر من المراجع الأصلية فى تاريخ مصر الإسلامية منذ الفتح العربى إلى وفاة الأخشيد . وقد سبق الكندى المؤرخين فى الكتابة عن خطط مصر وآثارها وتاريخ قضاتها . وقد حذا حذوه فى الموضوع الأول ابن زولاق والقضاعى وابن دقماق والمقريزى والأوحدى والسيوطى : ونسج على منواله فى الكتابة عن القضاة ابن زولاق وابن حجر العسقلانى وابن شاهين[1] .
ويقول السيوطى إن أبا عمر الكندى صنف فضائل مصر وكتاب قضاة مصر فى زمن كافور[2] . ولكن الدكتورة سيدة الكاشف[3] تقول إن « من الأخطاء الشائعة أن الكندى ألف كتاباً فى فضائل مصر » وإن صاحب هذا الكتاب هو إبنه عمر معتمدة فى ذلك على جست فى كلامه فى مقدمة الولاة والقضاة وعلى ما جاء فى مقدمة كتاب فضائل مصر نفسه على لسان عمر من أن الذى أمره فى تأليفه هو كافور الأخشيدى وإشارته إلى والده الكندى بين العلماء الذين جمع من كتبهم ما أمر به كافور وإشارته إليه مرة ثانية بين علماء مصر « الذين برع كل منهم فى مذهبه والذين لكل واحد منهم من الكتب المصنفة ما يعجز عن نظيرها سائل أهل الدنيا » وكذلك أبو محمد الحسن بن ابراهيم بن الحسين بن الحسن بن على بن خالد بن راشد ابن عبد الله بن سليمان بن زولاق الليثى مولاهم المصرى والليثى نسبة إلى ليث بن كنانة وهى قبيلة كبيرة ، وكانت وفاته سنة سبع وثمانين وثلاثمائة

---

(١) سيدة الكاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ص ٣٢٧ — ٣٢٨ .

(٢) حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٣٨ .

(٣) مصر فى عصر الأخشيديين ص ٣٢٩ .

عن إحدى وثمانين سنة أى أن مولده كان سنة ٣٠٦ هـ ، وهو ما أيده ابن خلكان . وقد درس على الفقيه ابن الحداد وعلى المؤرخ أبى عمر الكندى وروى عن الطحاوى . وألف كتاباً فى فضائل مصر وذيلا على قضاة مصر للكندى وكتاباً فى خطط مصر(١) . هذا فضلا عن كتاب فى سيرة الأخشيد وآخر فى أخبار سيبويه المصرى . ويبدو أنه ألف كتاباً فى سيرة كافور وآخر فى سيرة المـاذرائيين ولعله ألف كتاباً مستقلا فى سيرة محمد بن على الماذرائى وآخر فى تاريخ مصر على السنين وكتب أخرى فى سيرة جوهر وسيرة المعز وسيرة العزيز(٢) . وذكر منهم أيضاً ابن يونس أحد أئمة الحديث المذكورين فيما سبق وهو أبو سعيد عبد الرحمن بن أبى الحسين أحمد ابن أبى موسى يونس بن عبد الأعلى بن موسى بن ميسرة بن حفص بن حبان الصدفى المصرى صاحب تاريخ مصر ، وقد ولد سنة ٢٨١ هـ . وتوفى سنة ٣٤٧هـ(٣) . وكان خبيراً بأحوال الناس ومطلعاً على تواريخهم عارفاً بمـا يقوله . جمع لمصر تاريخين أحدهما وهو الأكبر يختص بالمصريين والآخر وهو صغير يشتمل على ذكر الغرباء الواردين على مصر وما أقصر فيهما وقد ذيلهما أبو القاسم يحيى بن على الحضرمى وبنى عليهما . . . »(٤) . وقد رثاه أبو عيسى عبد الرحمن بن اسماعيل بن عبد الله بن سليمان الخولانى الخشاب المصرى النحوى العروضى بقوله(٥) :

يثبت علمك تصنيفاً وتقريبـــا    وعدت بعد لذيذ العيش مندوبا
أبا سعيد وما نألوك إن نشرت    عنك الدواوين تصديقاً وتصويبـا

---

(١) حسن المحاضرة جـ ١ ص٢٣٨ وابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص٣٧٠ — ٣٧١

(٢) سيدة الـكاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ص ٣٢٩ ومقدمة روفن جست الإنجليزية لـكتاب القضاة والولاة ص ٤٥ .

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٤٧ .

(٤) ابن خلـكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٣١٨ .

(٥) شرحه ص ٣١٨ — ٣١٩ .

ما زلت تلهج بالتاريخ تكتبه ... حتى رأيناك فى التاريخ مكتوبا
أرخت موتك فى ذكرى وفى صحفى ... لمن يؤرخنى إن كنت محسوبا
نشرت عن مصر من سكانها علما ... مبجلا بجهال القوم منصوبا
كشفت عن فخرهم للناس ما سجعت ... ورق الحمام على الأغصان تطريبا
أعربت عن عرب نقبت عن نخب ... سارت مناقبهم فى الناس تنقيبا
أنشرت ميتهم حيا بنسبته ... حتى كأن لم يمت إذ كان منسوبا
إن المكارم للإحسان موجبة ... وفيك قد ركبت يا عبد تركيبا
حجبت عنا وما الدنيا بمظهرة ... شخصاً وإن جل إلا عاد محجوبا
كذلك الموت لا يبقى على أحد ... مدى الليالى من الأحباب محبوبا

وقد ضاع كتاب تاريخ مصر الذى ألفه ابن يونس ولكننا نجد بعض مقتطفات منه فى حواشى المخطوط الذى طبع منه الأستاذ جست كتاب الولاة والقضاة للكندى كما أن ابن حجر نقل عنه فيما كتبه عن القضاة ويبدو من هذه المقتطفات أن الكلام على الحديث والمحدثين كان أساس ما كتبه ابن يونس من التاريخ[١] .

٢ — الأدب :

النـــثر :

أما الأدب فى العصر الأخشيدى فكان له ميدانه الخصب أيضاً وكان له فرسان حلبته . وأول ما نلاحظه أن حظ النثر كان أعظم من حظ الشعر ، وأن النثر فى هذا العصر كانت فيه المسحة العراقية والميل إلى السجع والمزاوجة مع إطناب فى اللفظ وتكرار للمعنى وإقبال على الجمل القصيرة[٢] ، وكان زعيم النثر الفنى فى ذلك العصر ابراهيم بن عبد الله بن محمد النجيرمى

(١) سيدة الكاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ص ٣٠٥ .

(٢) شرحه ص ٣١١ .

وخير دليل على ذلك أن الكتاب الذى أرسله الأخشيد رداً على ما كتبه إليه رومانوس لكابينوس صاحب الأمر فى بيزنطة فى عهده كان من إنشائه[١] . ومن قبيل النثر أيضاً كتابات المؤرخين أمثال الكندى وابن زولاق وهى فى أسلوب علمى واضح . أما نثر سيبويه المصرى كما هو موجود فى كتاب ابن زولاق فهو نوع من النثر فريد فى بابه ولا يتعدى صاحبه وهو غنى بالسجع الذى يشبه سجع الكهان ولكن بعضه خفيف على السمع وتظهر فيه الصفة الفنية وقد ذكرنا بعضه عند كلامنا على المحتسب وعند كلامنا على تساهل الأمراء الأخشيديين مع سيبويه رغم سلاطة لسانه . ونذكر هنا أن أبا صالح بن نافع أحد كبار حاشية الأخشيد وهو الذى عهد إليه الأخشيد بعمل البستان وقصر المختار بالجزيرة مر على سيبويه يوماً فى موكب كبير بالحجاب والجند فتذكر سيبويه أن صالحاً كان معه فى الكتاب وأن أباه كان شيخاً نوبياً يتاجر فى العطر وأن صالحاً كان يساعده فى ذلك وغاظه من صالح أنه يتعالى على الناس فصاح به : « أى شىء هذا ! أنت فاسد بن ضار ! ارجع إلى شد الأشنان والسدر والزرنيخ » وقد أمر صالح بأن يحمل سيبويه إلى المارستان ولكن الناس غضبوا لذلك فاستدعى الأخشيد سيبويه وسأله فى بعض المسائل العلمية واقتنع بفضله فأطلقه وأمر صالح بن نافع بأن يعتذر ويحسن إليه[٢] . وكذلك نذكر هنا أن رجلا سأل سيبويه عن رأيه فى أصحاب المهن « فسأله سيبويه عن مهنته وعلم أنه يصنع الحصر فقال : أى حصر ؟ التى تعمل اعتباراً أو تعمل افتخاراً ؟ فقال الرجل : حصر السامان والعبادان فقال سيبويه : هذه حصر الافتخار لا تحل لك لأنك سبب الفتنة بعمل الحصر السامان فيستزيد الغنى ويقول أنا أجلس على حصر سامان وأما حصر الاعتبار فحصر الحلفا التى يأوى إليها الفقراء والعبدان والمساكين والسودان[٣] » .

(١) ابن سعيد : المغرب ص ١٨ — ٢٣ والقلقشندى : صبح الأعشى ج٧ ص ١٠ — ١٨ .
(٢) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ٢٥ — ٢٧ .
(٣) شرحه ص ٢٧ .

الشعر :

أما الشعر فى هذا العصر الأخشيدى فكان هزيلا نحيلا ونحن لا نكاد نجد من الشعراء المصريين من يساوى شعراء العراق أمثال أبى تمام والبحترى وابن الرومى[١] .

أحمد بن طباطبا :

ومن شعراء مصر فى هذا العصر أحمد بن محمد بن اسماعيل بن القاسم ابن ابراهيم طباطبا نقيب الطالبيين المتوفى سنة ٣٤٥ ﻫ[٢] وقد سبق أن أشرنا إلى أنه وصف الخمر فى شعر له على الرغم من مركزه الدينى وذلك عند كلامنا على الحالة الاجتماعية فى عصر الأخشيديين وقد كتب ابن سعيد أن له أدباً واسعاً وشعراً مليحاً فى الزهد والغزل وروى بعض مقتطفات من شعره[٣] كما روى الثعالبى أبياتاً من مختاراته ومن بينها[٤] :

خليلى إنى للثريا لحاسد ... وإنى على صرف الزمان لواجد
أيبقى جميعاً شملها وهى سبعة ... وأفقد من أحببته وهو واحد
كذلك من لم تخترمه منية ... يرى عجباً فيما يرى ويشاهد

ومن شعره المنسوب إليه فى طول الليل وهو معنى غريب [ من الطويل ][٥] :

كأن نجوم الليل سارت نهارها ... فوافت عشاء وهى أنضاء أسفار
وقد خيمت كى يستريح ركابها ... فلا فلك جار ولا كوكب سارى

---

(١) أحمد أمين : ظهر الإسلام جـ ١ ص ١٧١ — ١٧٢ .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٤٠ .

(٣) ابن سعيد : المغرب ص ٤٩ — ٥١ .

(٤) يتيمة الدهر جـ ١ ص ٣٧٠ .

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ١١١ — ١١٢ .

وله أيضاً[1] :

قالت لطيف خيال زارنى ومضى بالله صفه ولا تنقص ولا تزد
فقال أبصرته لو مات من ظمأ وقلت قف لا ترد للماء لم يرد
قالت صدقت وفاء الحب عادته يا برد ذاك الذى قالت على كبدى

القاسم بن أحمد بن طباطبا :

ومن الشعراء أيضاً القاسم بن أحمد الرسى وهو ابن الشاعر السابق وقد سبق أن ذكرنا له أبياتاً فى وصف الخمر عند كلامنا على الحالة الاجتماعية . وقد روى ابن سعيد والثعالبى[2] طائفة من شعره .

سعيد قاضى البقر وغيره .

ومن شعراء هذا العصر أيضاً سعيد قاضى البقر وكان مقرباً إلى الأخشيد لما امتاز به من الفكاهة وحلو الحديث[3] . وصالح بن رشدين وأحمد بن صدقة[4] ، وابو هريرة أحمد بن عصام وكان من أصحاب النوادر واللهو والمجون والإدمان على الخمر[5] ، وكانت له مجالس شرب فى بعض الأديرة المشهورة بخمرها العتيق ، وقد وصفها فى أشعار رواها المقريزى فى الكلام على الديارات بمصر[6] ، كما أن الشابشتى فى الديارات ذكر بعضها مثل[7] :

كم لى بدير القصير من قصف مع كل ذى صبوة وذى ظرف

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١١١ .
(٢) ابن سعيد : المغرب ص ٥١ والثعالبى : يتيمة الدهر ج ١ ص ٣٧٠ — ٣٧١ .
(٣) ابن سعيد : المغرب ص ١٠٣ .
(٤) شرحه ص ٨٧ — ٨٨ .
(٥) شرحه ص ١٠٤ .
(٦) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٥٠٢ ، ٥٠٤ .
(٧) الشابشتى : الديارات ص ١٨٥ .

لهوت فيه بشادن غنج ... تقصر عنه بدائع الوصف

ومثل[١] :

أذكرتنى يا دير من قد مضى ... من أهل ودى ومصافاتى

كم كان لى فيك وفيهم معاً ... من طيب أيام دليلات

أشكو إلى الله مصابى بهم ... وفقـــدنا أهل المروءات

ويلاحظ : أن أبا هريرة أحمد بن عصام مذكور فى كتاب الديارات باسم أبى هريرة بن أبى العصام .

*مهلهل بن يموت وغيره :*

ومن شعراء هذا العصر أيضاً محمد بن الحسن بن زكريا ومهلهل بن يموت وقد روى لهما شعر فى رثاء الأخشيد ومدح ابنه أونوجور[٢] ومنهم عبد الله محمد بن أبى الجوع وصالح بن مؤنس[٣] .

« وكان مهلهل من المطبوعين فى الشعر والمنهمكين فى الخلاعة واللعب والتطرح فى مواطن اللهو والطرب ملازماً للحانات والديارات » ومن مليح شعره فى وصف الرياض والحث على الشرب قوله[٤] :

لجنون الهوى وهبت جنانى ... فدعانى يا أيها العاذلان

طربى زائد فنى حرج من ... لامنى فى خلاعة أو نهانى

قدأبانت لى الرياض من الزهر ... غريب الصنوف والألوان

وبدا النرجس المفتح يرنو ... من جفون الكافور بالزعفران

---

(١) الشابشتى : الديارات ص ١٨٥ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب جـ ٥ ص ١٨٤ و ١٨٦ .

(٣) الثعالبى : يتيمة الدهر جـ ١ ص ٣٤٦ — ٣٥١ ، ٣٥٣ .

(٤) الشابشتى : الديارات ص ١٣٣ .

كعيون قد حدقت باهتات ناظرات إلى وجوه حسان
يتثنى زبرجد والقضب منه طرباً للجين والعقيان
وقف الطل فى المحاجر منها ثم ماست فانهل مثل الجمان
ياغلام اسقنى فقد ضحك الوقت وقد أتم طيب هذا الزمان
ادن منى الدنان صف الأباريق استحث الكؤس صف القنانى
بادر الوقت واغتنم فرص العيش ولا تكذبن فالعمر فانى

زيارة أبي الطيب المتنبي لمصر :

وقد زار مصر فى هذا العصر بعض الشعراء المشهورين ومنهم أبو الطيب المتنبي أحمد بن الحسين ، وأقام بها أربع سنوات عند كافور الأخشيدى يمدحه ويطمع فى الحصول على عمل من الأعمال المهمة ولكنه لم ينل بغيته وانقلب على كافور يهجوه بأقذع الهجاء بعد أن كان يمدحه بأحسن المدائح . ويقال إن كافوراً دس عليه من قتله[1] :

مدحه لكافور :

ومما قاله المتنبي فى مدح كافور قصيدته المشهورة :

كفى بك داء أن ترى الموت شافياً وحسب المنايا أن يكن أمانيا

ومن أبياتها :

قواصد كافور توارك غيره ومن قصد البحر استقل السواقيا
فجاءت بنا إنسان عين زمانه وخلت بياضاً خلفها ومآقيا
أبا كل طيب لا أبا المسك وجده وكل سحاب لا أخص الغواديا
إذا كسب الناس المعالى بالندى فإنك تعطى فى نداك المعاليا
وغير كثير أن يزورك راجل فيرجع ملكا للعراقين واليا

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٤٠ .

مدى بَلغ الأستاذَ أقصاه ربُّه ونفس له لم ترض إلا التناهيا
دعته فلبَّاها إلى المجد والعلى وقد خالف الناس النفوس الدواعيا
فأصبح فوق العالمين يرونه وإن كان يدنيه التكرم نائيا[١]

ومن ذلك قوله فى قصيدة أخرى :

وأخلاق كافور إذا شئت مدحه وإن لم أشأ تُملى على وأكتب
إذا ترك الإنسان أهلا وراءه ويمم كافوراً فما يتغرب
فتى يملأ الأفعال رأياً وحكمة ونادرة أحيان يرضى ويغضب[٢]

ومنها قوله :

إذا لم تَنُط بى ضيعة أو ولاية لجودك يكسونى وشغلك يسلبُ

ومنها أيضاً يخاطب كافوراً ويشير إلى أونوجور :

وأنت الذى ربيت ذا الملك مرضعاً وليس له أم سواك ولا أب
وكنت له ليث العرين لشبله ومالك إلا الهندوُانى مخلب

ومنها :

ويغنيك عما ينسب الناس أنه إليك تناهى المكرمات وتنسب
وأى قبيــل يستحقك قدره معد بن عدنان فداك ويعرب[٣]

وقد ضاق المتنبي ذرعاً بكافور الذى أبى أن يوليه ولاية لأنه ادعى النبوة[٤] وأنشد قصيدة فى حضرة كافور كانت آخر قصائده فى مدحه وفيها أبيات تؤذن بالقطيعة بينهما ومن أبيات هذه القصيدة :

وفى النفس حاجات وفيك فطانة سكوتى بيان عندها وخطاب

---

(١) ديوان المتنبي ص ٣٧٣ — ٣٧٧ .
(٢) شرحه ص ٣٩٨ — ٣٩٩ .
(٣) شرحه ص ٤٠٠ .
(٤) ابن سعيد : المغرب ص ٤٧ .

وما أنا بالباغى على الحب رشوة ضعيف هوى يبغى عليه ثواب
وما شئت إلا أن أدل عواذلى على أن رأيى فى هواك صواب
وأعلِمَ قوماً خالفونى فشرقوا وغربت أنى قد ظفرت وخابوا
وما كنت لولا أنت إلا مهاجراً له كل يوم بلدة وصحابُ(١)

هجاؤه لكافور :

وقد استعد المتنبى للرحيل بعد أن قال تلك القصيدة بسنة . وقال فى يوم عرفة سنة ٣٥٠ هـ قبل مغادرته مصر بيوم واحد قصيدته الدالية المشهورة التى هجا فيها كافور .

عيد بأية حال عدت يا عيد بما مضى أم لأمر فيك تجديدُ

ومن أبياتها :

إنى نزلت بكذابين ضيفهم عن القِرى وعن الترحال محدود
جود الرجال من الأيدى وجودهم من اللسان فلا كانوا ولا الجود
أكلما اغتال عبد السوء سيده أو خانه فله فى مصر تمهيد
صار الخصى أمام الآبقين بهـا فالحر مستعبد والعبد مقبور
لا تشتر العبد إلا والعصا معه إن العبيد لأنجاس مناكيد
من علم الأسود المخصى مكرمة أقومه البيض أم آباؤه الصيد
أم أذنه فى يد النخاس دامية أم قدره وهو بالفلسين مردود
وذاك أن الفحول البيض عاجزة عن الجميل فكيف الخصية السود(٢)

ونظم المتنبى قصائد أخرى كثيرة فى هجاء كافور(٣) .

---

(١) ديوان المتنبى ص ٤١٠ .

(٢) شرحه ص ٤٣١ — ٤٣٤ .

(٣) شرحه ص ٤٢٧ — ٤٣٧ .

### مدح المتنبي للحسن بن عبيد الله بن طغج :

ولم تقتصر أشعار المتنبي على كافور بل إنه عند ما قدم قاصداً مصر قابل فى الرملة الأمير أبا محمد الحسن بن عبيد الله بن طغج ومدحه بعدة قصائد منها القصيدة التى مطلعها :

أنا لائمى إن كنتُ وقتَ اللوائم　　علمت بما بى بين تلك المعالم[1]

ومنها :

أرى دون ما بين الفرات وبرقة　　ضراباً يمشى الخيل فوق الجماجم
وطعنَ غطاريف كأن أكفهم　　عرفن الردَينيات قبل المعاصم
حمته على الأعداء من كل جانب　　سيوف بنى طغج بن جف القماقم
هم المحسنون الكر فى حومة الوغى　　وأحسن منه كرهم فى المكارم
وهم يحسنون العفو عن كل مذنب　　ويحتملون الغرم عن كل غارم

### مدح المتنبي لفاتك :

وقد مدح أيضاً المتنبي أبا شجاع فاتكا الرومى الذى كان يحقد على كافور والذى أرسل اليه هدايا كثيرة . وذلك بعد أن استأذن كافوراً ومما قاله فى مدحه قصيدة مطلعها :

لاخيل عندك تهديها ولا مال　　فليسعد النطق إن لم تسعد الحال[2]

إلى أن قال :

كفاتك ودخول الكاف منقصة　　كالشمس قلت وما للشمس أمثال

### زيارة كشاجم لمصر وأشعاره فيها :

ومن الشعراء الذين زاروا مصر فى العصر الأخشيدى أيضاً أبو الفتح

---

(١) ديوان المتنبي ص ١٧٧ .

(٢) شرحه ص ٤١٤ — ٤١٥ .

محمود بن الحسين المعروف بكشاجم وقد نشأ فى إقليم الرملة الذى كان من أملاك الأخشيديين . ويشهد ديوان هذا الشاعر بأنه وفد على مصر عدة مرات وكان كلما بعد عنها يحن إليها والى ما بها من الرياض وحياة اللهو والمجون .

ومن شعره فى هذا الصدد [١] :

قد كان شوقى إلى مصر يؤرقنى ... فاليوم عدت وعادت مصر لى دارا
أغدو إلى الجيزة الفيحاء مصطحباً ... طوراً وطوراً أرجى السير أطوارا
بينا أسامى رئيساً فى رئاسته ... أذرحت أحسب فى الحانات خمارا
أما الشباب فقد صاحبت شرهم ... وقد قضيت لبانات وأوتارا
من شادن من بنى الأقباط يعقد ما ... بين الكثيب وبين الخصر زنارا

وقد نقل له ياقوت فى معجم البلدان عشرة أبيات قالها فى دير القصير مطلعها [٢] :

ويوم على دير القصير تجاوبت ... نواقيسه لما تداعت أساقفه

وأورد له المقريزى تسعة أبيات أخرى أولها [٣] :

سلام على دير القصير وسفحه ... بجنات حلوان إلى النخلات

---

(١) ديوان كشاجم ص ٦٤ .
(٢) الشابشتى : الديارات ص ٢٥٤ .
(٣) شرحه ص ٢٥٥ .

# المراجع

## أولا ـ المراجع العربية :


١ ــ ابن الأثير : على بن أحمد بن أبى الكرم ( + ٦٣٠ ) : الكامل فى التاريخ ج٦ و ٨ ( ليدن ١٨٦٦ ــ ١٨٧٤ م ) .

٢ ــ أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٢ ( القاهرة ١٩٥٢ ) .

٣ ــ الأزرقى ( + ٢٠٤ هـ ) : أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ج ١ ( مكة ١٣٥٢ ــ ١٣٥٧هـ ) .

٤ ــ ابن أبى أصيبعة : موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم ( + ٦٦٨ ) : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ج ١ ( القاهرة ١٢٩٩ هـ ) .

٥ ــ أنستاس الكرملى ( الأب ) : النقود العربية وعلم النميات ( القاهرة سنة ١٩٣٩ م ) .

٦ ــ ابن إياس أبو البركات محمد بن أحمد ( ٦٣٠ هـ ) بدائع الزهور ج ١ ( بولاق ١٣١١ ) .

٧ ــ بطلر : فتح العرب لمصر ( ترجمة محمد فريد أبو حديد ) .

٨ ــ البلاذرى ( + ٢٧٩ هـ ) : فتوح البلدان ( ليدن ١٨٦٦ م ) .

٩ ــ البلوى : أبو محمد عبد الله بن محمد بن عمير بن محفوظ البلوى المدنى ( لم تعرف سنة وفاته ) : سيرة بن طولون ( نشرها الأستاذ محمد كرد على ) .

١٠ــ بيبرس الدويدار ( + ٧٢٥ هـ ) : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٤ ( مخطوط بجامعة القاهرة تحت رقم ٢٤٠٢٧ ) .

١١ــ الثعالبي : أبو منصور عبد الملك النيسابورى ( + ٤٢٩ هـ ) يتيمة الدهر ج ١ ( القاهرة ١٣٥٤ هـ ) .

١٢ — جورجى زيدان : التمدن الإسلامى جـ ٣ ( طبعة دار الهلال ( ١٩٠٢ — ١٩٠٣ ) .

١٣ — ابن حوقل : أبو القاسم محمد البغدادى ( توفى فى أواخر القرن الرابع ) : المسالك والممالك ( ليدن ١٨٧٣ م ) .

١٤ — ابن خلكان : شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم ( + ٦٨١ هـ ) : وفيات الأعيان جـ ١ ، ٢١ ( القاهرة ١٩٥١ م ) .

١٥ — ابن الداية : أبو جعفر أحمد ابن أبى يعقوب يوسف ابن إبراهيم (+ ٣٣٠هـ) : سيرة ابن طولون .

١٦ — ابن الداية : المكافأة : ( نشره الأستاذان أحمد أمين وعلى الجارم ) .

١٧ — ابن دقماق : إبراهيم بن محمد المصرى ( + ٨٠٩ هـ ) : الانتصار لواسطة عقد الأمصار جـ ٤ ( بولاق ١٣٠٩ هـ نشره Vollers ) .

١٨ — زكى محمد حسن : الفنون الإيرانية فى العصر الإسلامى ( القاهرة ١٩٣٩م )

١٩ — زكى محمد حسن : الفن الإسلامى فى مصر : (القاهرة ١٩٣٥ ) .

٢٠ — ابن زولاق : أبو محمد الحسن بن إبراهيم ( + ٣٨٧ هـ ) : أخبار سيبويه المصرى ( مصر ١٩٢٣ م ) .

٢١ — ابن الزيات : شمس الدين أبو عبد الله ( ٨١٤ هـ ) : الكواكب السيارة ( المطبعة الأميرية ١٩٠٧ م ) .

٢٢ — ساويرس ( توفى فى أواخر القرن الرابع الهجرى ) : سير الآباء البطاركة (Patrologia Orientalis, vols., I, V, X)

٢٣ — ابن سعيد : على بن موسى المغربى ( + ٦٧٣ هـ ) : المغرب فى حلى المغرب الجزء الرابع ( ليدن ١٨٩٩ م ) .

٢٤ — سعيد بن البطريق ( + ٣٢٨هـ ) : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق جـ ٢ ( بيروت ١٩٠٩م ) .

٢٥ — سيدة الكاشف : مصر فى عهد الإخشيديين ( القاهرة ١٩٥٠ م )

٢٦ — : مصر فى فجر الإسلام ( « ١٩٤٧ م )

٢٧ — السيوطى : جلال الدين ( + ٩١١ هـ ) : حسن المحاضرة جـ ١ ٢٠١ القاهرة ١٣٢٧ هـ ) .

٢٨ — الشابشتى ( + ٣٢٦ هـ ) : الديارات ( بغداد ١٩٥١ م ) .

٢٩ — أبوصالح الأرمنى : كنائس وأديرة مصر ( طبعة اكسفورد ١٨٩٥ م ) .

٣٠ — ابن عبد الحكم ( + ٢٥٧ هـ ) : فتوح مصر ( طبعة هنرى ماسيه بالقاهرة ١٩١٤ وطبعة تورى سنة ١٩٢٤ ) .

٣١ — على إبراهيم : مصر فى العصور الوسطى ( القاهرة ١٩٤٧ م ) .

٣٢ — على مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ( بولاق ١٣٠٦ هـ )

٣٣ — ابن العماد الحنبلى ( + ١٠٨٩ هـ ) : شذرات الذهب جـ ٣ ( القاهرة ١٣٥١ هـ ) .

٣٤ — ابن العميد المعروف بالمكين ( + ٦٧٢ هـ ) : تاريخ المسلمين ( ليدن ١٦٢٥ م ) .

٣٥ — الغزولى : علاء الدين على بن عبد الله البهائى الدمشقى ( ٨١٥ هـ ) : مطالع البدور فى منازل السرور جـ ٢ ( مصر ١٣٠٠ ) .

٣٦ — ابن الفقيه ( توفى فى أواخر القرن الثالث ) مختصر كتاب البلدان ( ليدن ضمن المكتبة الجغرافية ) .

٣٧ — القلقشندى ( + ٨٢١ هـ ) : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا جـ ٧ ( الطبعة الأميرية بالقاهرة ) .

٣٨ — كشاجم : أبو الفتح محمود بن الحسين بن شاهك ( + ٣٥٠ أو ٣٦٠ هـ ) : ديوانه ( بيروت ١٣١٣ هـ ) .

٣٩ — الكندى ( + ٣٥٠ هـ ) : كتاب الولاة وكتاب القضاة ( بيروت ١٩٠٨ م ) .

٤٠ — الماوردى ( + ٤٥٠ هـ ) : الأحكام السلطانية ( القاهرة ١٢٩٨ هـ ) .

٤١ — متز آدم : الحضارة الإسلامية ( ترجمة أبوريده ) جزآن .

٤٢ — المتنبي : أبو الطيب ( + ٣٥٤ هـ ) : ديوانه ( بيروت ١٩٠٠ م ) .

٤٣ — أبو المحاسن بن تغرى بردى الأتابكى ( + ٨٧٤ هـ ) . النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة جـ ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ( طبعة دار الكتب ) .

٤٤ — المسعودى ( + ٣٤٦ هـ ) مروج الذهب ومعادن الجوهر ( طبعة أوروبا جـ ١ وطبعة مصر جـ ٢ ، ٣ ) .

٤٥ — المقدسى : شمس الدين أبو عبد الله : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ( ليدن ١٨٨٧ م ) .

٤٦ — المقريزى : تقى الدين ( + ٨٤٥ هـ ) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ( القاهرة ١٩٤٨ ) .

٤٧ — : إغاثة الأمة بكشف الغمة ( طبعة زيادة والشيال ) .

٤٨ — : المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار جـ١، ٢ (بولاق ١٢٧٠هـ)

٤٩ — : النقود الإسلامية ( القسطنطينية ١٢٩٨ هـ ) .

٥٠ — النويرى : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب : ( + ٧٣٢ هـ ) نهاية الأرب فى فنون الأدب جـ ٥ ( طبعة دار الكتب ) .

٥١ — هامرتن ( الناشر ) : تاريخ العالم ( الطبعة العربية — ترجمة وزارة المعارف المصرية ) .

٥٢ — ياقوت الحموى ( + ٦٢٦ هـ ) : معظم الأدباء جـ ٤ .

٥٣ — يحيى بن سعيد الأنطاكى ( + ٤٥٨ هـ ) : تاريخه أو صلة تاريخ أوتيخا ( بيروت ١٩٠٦ م ) .

٥٤ — اليعقوبى : أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح ( + ٢٨٤ هـ ) . البلدان ( ضمن المكتبة الجغرافية ليدن ١٧٩٢ ) .

٥٥ — أبو يوسف : يعقوب صاحب أبى حنيفة ( + ١٨٢ هـ ) : كتاب الخراج ( بولاق ١٣٠٢ هـ ) .

## ثانياً — المراجع الأفرنجية :


٥٦ — Berchem (Van Max): *Une page nouvelle de l'Histoire de l'Egypte* (J. As. Xe Sess., T. IX, 1907).

٥٧ — *Encyc. of Islam*; art. Kibt.

٥٨ — Grohmann : *Arabic Papyri in the Egyptian Library*; vol. III (Cairo, 1938).

٥٩ — Heyd : *Hist. du Commerce du Levant au Moyen âge*, T. I (Leipzig, 1885).

٦٠ — Lane-Poole : *A. Hist. of Egypt in the Middle Ages.* (London, 1900).

٦١ — Munier (Henri): *L'Egypte Byzantine* (Précis de l'Hist. d'Egypte, T. II, 1932).

٦٢ — Wiet : *Histoire de la Nation Egyptienne*, t. IV.

٦٣ — — *Précis de l'Hist. de l'Egypte*, T. II (Le Caire, 1932).

٦٤ — Zaki Hassan : *Les Tulunides* (Paris, 1933).

المطبعة العالمية ١٦ و ١٧ شارع ضريح سعد بالقاهرة

